المشهد الثاني

أفغانستان

obeikandl.com

أبطال المشهد:

- **أبو أنس:** يأخذ عمر من لاهور إلى بيشاور
- **ابن الشيخ:** أمير معسكر خالدان
- **أبو بكر:** مدرب فلسطيني في معسكر خالدان؛ أمير في غياب ابن الشيخ
- **أبو همام:** مدرب أريتيري في معسكر خالدان؛ يقود تدريب جري أول يوم لوصول عمر
- **أبو سهيل:** مدرب يمني في معسكر خالدان؛ يدرب عمر على استخدام الرشاشات
- **عبد الحق:** متدرب مغربي من لندن في معسكر خالدان
- **عبد الكريم:** متدرب فرنسي من أصل جزائري في معسكر خالدان؛ يعود إلى الظهور في معسكر دارونتا
- **أسد الله:** يزور معسكر خالدان لفترة وجيزة؛ يعود إلى الظهور في معسكر دارونتا بوصفه مدرب متفجرات
- **أبو يحيى:** مدرب يمني في معسكر خالدان؛ يدرب عمر على المتفجرات؛ يعود إلى الظهور في معسكر دارونتا
- **أبو حديفة:** متدرب سعودي في معسكر خالدان؛ يجري إخضاعه للاستجواب عند مجيئه
- **حمزة:** متدرب مصري صغير السن مولود في كندا؛ شقيق أسامة
- **أسامة:** متدرب مصري صغير السن مولود في كندا؛ شقيق حمزة
- **أبو سعيد الكردي:** يوصل عمر من بيشاور إلى دارونتا
- **أبو زبيدة:** يرتب الأمور لعمر في بيشاور
- **أبو موسى:** كردي عراقي؛ مقيم في دارونتا
- **أبو جهاد:** أمير معسكر دارونتا

obeikandl.com

تسلسل زمني

آذار/مارس 1991: قوات المجاهدين تستولي على بلدة خوست وتطرد منها سلطات الحكومة الأفغانية، بقيادة محمد نجيب الله.

نيسان/أبريل 1992: نجيب الله يستقيل من رئاسة الجمهورية الأفغانية.

1992/6/28: برهان الدين رباني يتولى رئاسة الجمهورية الأفغانية.

خريف 1994: حركة الطالبان تبرز بوصفها قوة سياسية داخل أفغانستان.

1994/12/24 - 1995/1/3: القوات الروسية تهاجم العاصمة الشيشانية غروزني ويجري صدها.

1995/1/19: القوات الروسية تحتل غروزني بعد حرب استنزاف مطولة.

1995/2/7: يجري إلقاء القبض في الباكستان على رمزي أحمد يوسف المشتبه بتفجير 1993 لبرجي مركز التجارة العالمي.

1995/7/11 - 1995/7/16: قوات صرب البوسنة تدخل سربرينيتسا وتقترف مذبحة يُقَدَّر عن عدد ضحاياها بسبعة آلاف نسمة من مسلمي البوسنة.

1995/7/26: انفجار قنبلة في أحد قطارات الآر إي آر RERتحت محطة سان ميشيل بباريس، ومقتل ثمانية وجرح أكثر من مئة.

1995/11/11: توقيع اتفاقيات سلام دايتون لوضع حد للحرب في البوسنة.

1995/11/19: هجوم بسيارة مفخخة على السفارة المصرية في إسلام أباد ومقتل ثمانية عشر شخصاً مع جرح خمسة وسبعين.

oberkanal.com

obeikandl.com

الباكستان

في ليلتي الأخيرة باستانبول، أَخَذْتُ نَفْسي إلى أفخر المطاعم في المدينة. طلبت أغلى قنينة نبيذ في القائمة، شربتها، ثم طلبت قنينة ثانية.

عند استيقاظي صباح اليوم التالي كنت متعباً. تناولت الفطور في فندقي وأجهزت على علبة سجائري. كنت أعلم أنني لم أكن لأدخن سيجارة أخرى على امتداد فترة طويلة جداً من الزمن.

استقلّيتُ سيارة أجرة إلى المطار للالتحاق برحلتي إلى كراتشي. كان الوقت مبكراً؛ ومع توفري على وقت أقتله ومبالغ كبيرة من المال في جيبي، توجهت إلى مخازن السوق الحرة. بعد الاستعراض انتهيت إلى شراء مصباح بطاريات جيب وسكّينة جيش سويسرية ذات سلسلة طويلة من الشفرات المختلفة. بدا هذان الغرضان كما لو كانا الشيئان الوحيدان اللذان كان من المحتمل أن أجدهما لازمين في المعسكرات.

ثم توجهت إلى البوابة وجلست. نظرت حولي في الصالة إلى الآخرين المنتظرين، غير أنني كنت لا أزال مرهقاً فتطلبَتْ عودتي إلى التركيز بضع دقائق. وبعد ذلك رأيت أمامي شيئاً مثيراً للانتباه: رجلاً معمَّماً. لم أستطع رؤية وجهه لجلوسه مديراً ظهره لي. إلا أنني أردت، غريزياً، أن أعرف المزيد عنه. وقفت ومشيت حوله فأصبحت قادراً على الجلوس في مواجهته، على مسافة نحو ثلاثة صفوف.

من الواضح أنه كان شاباً، في الثلاثينيات، غير أن وجهه كان يشي برجل أكبر سناً بكثير. بَشَرتُه كانت سمراء ومحروقة بالشمس، وثمة كانت تجاعيد عميقة حول عينيه. كان يرتدي زياً شبيهاً بالزي الأفغاني مع صدرية داكنة فوق السروال والقميص. كان يحمل مسواكاً في فمه. شفتاه كانتا تتحركان.

بعد زوجين من الدقائق، جاء رجل أعمال وجلس بجانبي. أشعل سيجارة وبدأ يدخن. وأنا أهم بالوقوف اقتربَتْ مني امرأة فتية. كانت تريد احتلال مقعدي وسألتني عما إذا كنت عائداً. كانت جميلة، جذابة تماماً، مرتدية خراطة قصيرة وبلوزاً مفتوحاً. هززت رأسي وابتعدت. توجهتُ نحو الرجل المعمم، وجلست إلى جانبه.

قال بما يشبه الهمس وهو ينظر إلى رجل الأعمال: 'المسلمون الذين يدخنون ليسوا مسلمين. إنهم من الطواغيت.' كانت لهجته الإنجليزية باكستانية أكثر منها أفغانية.

علَّقْتُ، ملمِّحاً إلى المرأة ذات الخراطة: 'وكذلك المسلمات اللواتي يرتدين مثل تلك الألبسة.'

أومأ برأسه، ثم تابع صلاته وتسبيحه. بقينا صامتين إلى أن حان موعد الركوب.

استقريت في مقعدي على الطائرة، رحت أفكر بالتغيير الذي ستتعرض له حياتي من جديد. كنت سأضطلع بدور مختلف تمام الاختلاف عن الأدوار السابقة. غير أنه لم يكن في الحقيقة دوراً جديداً، أو حتى دوراً بالمطلق. فحين كنت طفلاً كنت قد حلمت بخوض الحروب - بمحاربة اليابانيين، محاربة الألمان. ولاحقاً، في باريس، كنت قد حلمت بمحاربة الروس في أفغانستان. وبعد ذلك بالقتال في البوسنة، ومن ثم في بلاد الشيشان. والآن، أخيراً، ها أنا ذا على الطريق. كنت منفعلاً.

بعد ساعة طيران في الجو، شعرت بيد تربت على كتفي. رفعتُ رأسي؛ رأيت الباكستاني. سأل: 'في أي جهة تقع مكة؟'فوجئت؛ ثمة كانت خارطة طيران على جميع الشاشات في الطائرة. أشرت إلى الخارطة أمامنا وأفهمته أسلوب قراءتها. قلت له إن مكة واقعة إلى يمين الطائرة.

شكرني ومشى بضع خطوات إلى الأمام. ثم خلع سترته وبسطها على الأرضية أمامه. إحدى المضيفات انتبهت إلى ما كان يفعله وقالت له:

'لا تستطيع أن تقف هنا. يجب ألا تقفل ممر الخروج.' تجاهَلَها الرجل، رفعتْ صوتَها: 'يا سيد، يا محترم، يتعين عليّ أن أطلب منك التحرك. أنت لا تستطيع إغلاق باب الطوارئ المخصص للخروج.'

أخيراً رفع رأسه وقال: 'عليَّ أن أقيم صلاتي.'

هزت برأسها وراحت تتكلم معه بصوتٍ منخفض. قام، غير أن صوتيهما ما لبثا أن أصبحا أعلى؛ كانا يتجادلان. قال: 'لا شيء سيمنعني من أن أقيم صلاتي. لا يهمني المكان الذي أنا فيه، على ظهر جمل أو على متن طائرة. سأقيمها.'

هزت المضيفة رأسها، وقالت كلاماً آخر. ثم أخرج الرجل ورقة من جيبه وهزها في وجهها صارخاً: 'رائع، خذي بطاقتي وأعيدي لي ما دفعته لأغادر الطائرة فوراً.'

بدت المضيفة مرتبكة وخائفة. من الواضح أنه لم يكن مازحاً؛ حقاً بدا مقتنعاً بقدرته على مغادرة الطائرة وهي في الجو. قفزتُ من مقعدي واقتربت منهما. ابتسمتُ للمضيفة.

قلت لها بصوت مشبع مودة: 'لماذا لا تسمحين له بأن يصلي؟ لن يستغرق الأمر سوى دقيقتين. أستطيع أن أقف هنا احتياطاً.'

نظرتْ إلي طويلاً، صامتة. أخيراً هزت كتفيها. دارت نحوه، عَبَسَتْ، ثم ابتعدت. نظر الباكستاني إليَّ، حنى رأسه قليلاً. رأيت أنه كان بالغ الامتنان. ثم دار وأقام صلاته.

بعد انتهائه عدت إلى مقعدي فتبعني وجلس بجانبي. سألني: 'لماذا لم تقم الصلاة؟'

أجبت: 'أنا أتبع السنة.' فحسب السنة يمكن إعفاء المسلمين من فرض الصلاة الجسدية في أثناء السفر البعيد. يقوم المرء بأداء الصلاة داخلياً، بعقله، بدلاً من ذلك. أومأ الباكستاني وسألني عن وجهتي.

'كراتشي.'

بدا مستغرباً. 'لماذا كراتشي؟'

عاينته باهتمام. عيناه كانتا لامعتين، تُشعّان تصميماً.

قلتُ بما يشبه الهمس: 'أريد أن أؤدي فرض الجهاد.'

عيناه جحظتا: 'ولكن لماذا كراتشي، أيها الأخ؟'

هززت كتفي وابتسمت: 'في الحقيقة أنا لا أعرف كثيراً عن الباكستان. بالصدفة قطعت تذكرة إلى كراتشي.'

'لا، إياك يا أخ أن تبقى في كراتشي. إنها بالغة الخطر هذه الأيام، ليست آمنة بالنسبة إلى الأجانب، صمت برهة. 'عليك أن تذهب إلى إسلام أباد بدلاً من كراتشي.'

أخرج من حقيبته قطة من الورق وقلماً وبدأ يكتب. لم أتعرف على اللغة. بعد انتهائه من الكتابة، رفع رأسه وناولني الورقة قائلاً: 'أعرف شخصاً يستطيع مساعدتك. هو مقيم في راوالبندي، على بعد بضع كيلومترات من إسلام أباد. حين تصل إلى إسلام أباد اعط هذا العنوان لأي سائق تكسي فيوصلك إلى هناك.' ثم انحنى علي واقترب كثيراً ليقول: 'مهما حصل، يا أخ، إياك أن تتفوه بكلمة جهاد على مسامع أحد. إنها خطرة جداً. عليك أن تتحلى بالحذر.'

أومأت امتناناً. وبنبرة بالغة الجدية شكرته على مساعدته قائلاً: 'الحمد لله. يجب أن يكون الله قد أرسلك لي.'

ابتسم لي وعاد ليضطجع في مقعده.

كان الظلام لا يزال مخيماً عندما نزلت من الطائرة في كراتشي، إلا أن الحرَّ كان قد بات لا يُطاق. عبرت الفسحة الإسفلتية إلى صالة المسافرين والمكاتب لشراء تذكرة إلى إسلام أباد. حين أنجزت المهمة نظرت من الشباك. كانت السماء قد بدأت تضيء، هرعت إلى مسجد المطار لأقيم صلاة الفجر. كان الانزلاق إلى إيقاع الحياة هذا، إلى أنماط نشأتي الأولى، بالغ السهولة.

بعد وصولي إلى إسلام أباد، اهتديت فوراً إلى سائق تكسي وأعطيته ورقة العنوان التي كان الباكستاني قد زودني بها. حين جلست أدركت مدى تعبي من الطيران الطويل؛ جسمي كله كان يؤلمني. غير أني حين اضطجعت إلى الخلف وتمددت، مركزاً عيني، بدأت ألاحظ كل ما حولي. أدركت أنني كنت في عالم مختلف كلياً عن أي شيء سبق لي أن رأيته من قبل. كانت الموسيقا الصادحة عبر راديو التكسي غريبة، هندية. كانت الشوارع غارقة في الفوضى: ثمة كانت حشود من الحمير والعربات والبشر مندفعة إلى جميع الجهات، جنباً إلى جنب مع أعداد كبيرة من السيارات والشاحنات ذوات الأحجام المختلفة، وكل منها تُزمِّر للأخريات. كانت البيوت صغيرة، متلاصقة، مرقَّعة من الحجر والمعدن وما لا يدري إلا الله من مواد أخرى. وفوق كل شيء كانت ثمة رائحة غريبة، كريهة لم يكن قد سبق لي أن خبرت مثلها، مخيِّمة. الغبار في كل مكان. سحب الغبار المقذوفة من عجلات الشاحنات في الشوارع. طبقات الغبار المجللة لأجساد الحيوانات في الطرق. أكوام الغبار البادية على ملابس المارة من البشر. الغبار في عيني، في حلقي.

وصلنا إلى راوالبندي في أقل من ساعة، إلا أننا تابعنا السير بعد تجاوز البلدة في طريق ترابية شديدة الوعورة. كنت أراقب كل انعطافة وأسجلها في ذاكرتي، للاطمئنان إلى قدرتي على الاهتداء إلى الطريق وحدي إذا ما

اضطررت. ما لبث السائق أن أوقف السيارة على طرف الطريق. طلب الورقة مني، ثم نزل من السيارة حاملاً إياها. بقيت في السيارة ورحت أنظر إلى ما حولي. رأيت بوابة، خلفها مئذنة وعدد من المباني. لم أعرف ما إذا كان يتعين علي أن أنزل من السيارة أم لا. ربما كان السائق قد توقف لمجرد السؤال عن الاتجاهات.

قرع البوابة. سرعان ما فتحها شاب في زي باكستاني. قام السائق بتسليمه الورقة، فاختفى الشاب وغاب بضع دقائق. حين عاد كان متبوعاً برجل أكبر سناً بكثير. تبادل مع السائق كلمات قليلة، ثم مشى السائق عائداً إلى السيارة.

قال موجهاً كلامه إلي: 'وصلنا.' دفعت الأجرة، وهو دلني على البوابة. كان الشاب لا يزال واقفاً هناك، رَحَّبَ بي وأدخلني إلى المجمَّع فيما دارت سيارة التكسي وانطلقت مبتعدة. لم يقل شيئاً، ولكنه أشار نحو باحة مكشوفة. ثمة كان نحو ثلاثين رجلاً من أعمار مختلفة، مرتدين جميعاً زياً باكستانياً مؤلفاً من السروال والقميص بأحد اللونين الأبيض أو السُّكَّري.

عبر الباحة استطعت أن أرى عدداً من الصبية الصغار في نوع من غرفة الصف المؤقتة. ثمة كان معلم، يمشي بينهم حاملاً عصا. كان الصبية يرتلون آيات من القرآن صراخاً، وكانت وجوههم. مشدودة من فرط التركيز. كانوا يتدربون على التجويد. ومثل معظم المسلمين كنتُ قد تعلمتُ القرآن بالطريقة ذاتها، صَوْتياً، قبل أن أتعلم أي لغة عربية. وكان أساتذتي، مثل أساتذتهم، مستعدين لضربي إذا أخطأت في لفظ أي كلمة. ومع أن المسلمين يتكلمون مئات اللغات المختلفة في أرجاء العالم المتباينة، فليس ثمة سوى قرآن واحد ووحيد. فالإسلام لا يبيح أي تجديدات أو بدع، طارئة أو غير طارئة.

نظرتُ إلى الشاب الواقف بجانبي من جديد. كان يناولني كيساً للنوم. ابتعدت لأفرشه فأتمدد عليه. هز برأسه وأشار إلى باب عند طرف الباحة. خلفه

كان ثمة غرفة صغيرة، فارغة، مكيفة. تركني الشاب هناك، وغادر مغلقاً الباب خلفه. قمت بنشر كيس النوم واستلقيت فوقه. خلال ثوانٍ معدودة كنت غاطاً في النوم.

بعد بضع ساعات، أيقظني الشاب وسلمني بعض الألبسة. كانت مؤلفة من سروال وقميص كالسراويل والقمصان التي كان الآخرون يرتدونها. كانت بدلتي المؤلفة من السروال والقميص بيضاء اللون. بعد ارتدائها اقتادني إلى بقعة أخرى، قريبة من المسجد، حيث أقمت صلاتي مع الآخرين.

ثم أخذني إلى غرفة أخرى، أكبر بكثير من تلك التي كنت قد نمت فيها. وفي الوسط كان هناك شيخ جالس فوق عدد من الوسائد. لحِيته كانت بيضاء مع خطوط حمراء من خضاب الحناء. ورقتي كانت على الأرض أمامه.

بدأ يحدثني بالإنجليزية، ولكن لهجته كانت ثقيلة جداً بالكاد استطعت أن أفهم ما كان يقوله. قال شيئاً عن حمد الله من أجلي ومن أجل ذلك الذي أرسلني. ثم شيئاً عن الذهاب إلى لاهور في اليوم التالي مع إخوة آخرين. أدى هذا إلى إثارة أعصابي. كنت أنا راغباً في الذهاب إلى أفغانستان، ولاهور كانت في الجهة المعاكسة. لم يكن أمامي أي خيار؛ لم يكن ثمة أي سبيل ليفهم كل منا الآخر فيما لو طرحت عليه أي سؤال. ما لبث أن أعاد إليَّ الورقة. شكرته وعدت للانضمام إلى الآخرين.

كان الظلام قد بدأ يخيم والجو يغدو ألطف قليلاً. جلست في الباحة مع الآخرين ورحت أنظر حولي. لاحظت أن البعض كانوا طاعنين في السن، سبعين أو ثمانين. بدا الأمر كله غريباً بنظري، وراودني شعور بأن هناك خَلَلاً ما. كنت قد جئت لأداء فريضة الجهاد، إلا أن المجاهدين لا يخوضون المعارك بالصبية الصغار والشيوخ الطاعنين في السن.

لم أفهم اللغة التي كان الرجال يتكلمونها، غير أن عدداً منهم سرعان ما اقتربوا مني وسألوني بلغة عربية مهلهلة عن المكان الذي جئت منه. قلت: أنا من المغرب. أومؤوا. أحدهم قال إنه من بيشاور، وثالث كان من فيصل أباد ورابع من إسلام أباد.

تكلمنا عن أشياء أخرى، غير أننا بقينا عاجزين عن قول الكثير لأن أياً منا لم يكن يتقن العربية. من المؤكد أن أحداً لم يأت على ذكر الجهاد، إلا أن الرجل الذي كنت التقيتُه على الطائرة كان قد نَبَّهني إلى مدى خطر الكلام عن مثل هذه الأمور داخل الباكستان، وبالتالي فقد ظننت أن ذلك كان هو سبب امتناع الجميع عن ذكر كلمة الجهاد.

كنت لا أزال مهدوداً من التعب فنمت في وقتٍ مبكر. شعرت بقدرٍ قليل من الضيق وأنا ممدد. لم أصل إلى المعسكرات بعد، كما لم أكن واثقاً مما إذا كنت أغدو أقرب أم أبعد. غير أنني كنت على يقين بأنني كنت سأصل إليها آخر المطاف. مؤقتاً كنت شاعراً بما يكفي من الفرح لمجرد أنني كنت في الباكستان. غَطَطْت في نومٍ عميق.

التبليغ

صباح اليوم التالي استيقظنا قبل الفجر وأقمنا الصلاة. ثم جَمَعْنا حوائجنا وخرجْنا مشياً من المجمّع حيث كانت إحدى الشاحنات بانتظارنا. بادر الآخرون إلى رمي حوائجهم في الشاحنة والبدء بتسلقها، وأنا انضممت إليهم لأحذو حذوهم. غير أنني فجأة شعرت بيد تشدني إلى الخلف. "لا، أنت انزلْ" قال أحدهم.

للحظة الأولى شعرتُ بالرعب. هل جرى اكتشافي؟ هل كانوا قد تمكنوا، بطريقةٍ أو أخرى، من معرفة حقيقة كوني جاسوساً؟ إلا أنني حين التفتُّ وجدتني

أمام رجل ينشر ابتسامة عريضة على وجهه ويقول: 'أنت اركبْ هنا!' مشيراً إلى قمرة القيادة. 'أنت ضيفنا في الباكستان.'

في البدء كنت مسروراً لأنني لم أكن في الصندوق المكشوف للشاحنة. ثمة كانت سحابة كثيفة جداً من الغبار تتصاعد من الطريق، وحتى في هذه الساعة المبكرة كنت أشعر بالقيظ الحارق.

غير أنني، بعد ما وصلنا إلى الطريق الرئيسي، أدركت أن مكاني كان هو الأسوأ. لم يكن قد سبق لي أن رأيت مثل هذا الأسلوب في القيادة. كان الشارع ضيقاً جداً، وكان مزدحماً بجميع أنواع وسائط النقل: الدّراجات، عربات الجر، الشاحنات، عربات الحمير، عربات الباعة.

لم يكن ثمة أي نظام ضابط بالمطلق. بدا سائقُنا مولعاً باختيار الجهة التي يسير عليها مزاجياً. وحين كان يسبق أي واسطة نقل كان ينحني على المقود ويندفع إلى الأمام دون أن ينظر إلى الجهة التي يندفع نحوها. عادةً، كانت ثمة سيارة أخرى، إن لم تكن شاحنة، قادمة كان ذلك نوعاً من اللعب بالأعصاب، وأعصابه بدت قوية قوة غير عادية. كثيراً ما كان يجبر خصمه على الخروج عن الطريق كلياً. شعرت كما لو كنت قد أُصبت بخمس عشرة ذبحة قلبية خلال الساعة الأولى.

لم تكن المشكلة محصورة بسائقنا وحده - فالطرق كانت ملأى بالمجانين من أمثاله. كل بضعة كيلومترات كنت أرى سيارات محطمة، دراجات هوائية مطوية، شاحنات تحولت إلى أشلاء، على قارعة الطريق. شعرت بالحنين إلى الشوارع المنظمة والمنضبطة في أوروبا.

بعد نحو ساعتين وقفنا أمام مسجد صغير بجانب الطريق للوضوء والصلاة. حين عدنا إلى الشاحنة حاولتُ الصعود إلى الصندوق الخلفي مع الآخرين. ولكن

هؤلاء ابتسموا ومنعوني قائلين: 'أنت ضيفنا' ثم أشار الرجل نفسه الذي سبق له أن أجلسني في القمرة، إلى مقدمة الشاحنة. أطلقت زفرة قوية وأخذت مكاني بجانب السائق المجنون.

تابعنا السير كل النهار، وبعده الليل، حتى صباح اليوم التالي، دون أن نتوقف سوى ساعات قليلة على الطريق لأداء الصلاة. أخيراً وصلنا إلى لاهور، حيث انتقلنا إلى شاحنة أخرى وتابعنا السير بعد اجتياز المدينة.

توقفتْ الشاحنة في قرية غبراء غير بعيدة عن لاهور ونزلنا منها جميعاً. كان أول شيء لاحظته هو الرائحة النتنة القوية للفضلات البشرية. كانت الرائحة تزكم الأنوف. رأيت قناة على أحد جانبي الطريق فيها سيل متواصل من المياه المالحة النتنة. على الطرف الآخر كانت ثمة صف طويل من المحلات ذوات الألوان الزاهية العارضة للألبسة، الأطعمة، العطور، وأشرطة التسجيل للبيع. جُل الناس في الطريق كانوا يرتدون الزي نفسه، السروال والقميص الأبيضين. بدا الأمر منافياً للمنطق نظراً للغبار الكثيف جداً المحيط بنا من جميع الجهات.

جامع عملاق كان مهيمناً على كل شيء في القرية؛ كان الجامع محاطاً بعددٍ من المباني المتعنقدة حوله. ثمة كانت فسحة واسعة مكشوفة فيما بين المباني جلس فيها مئات الرجال تحت الشمس اللاسعة. كانوا جميعاً يرتدون الزي الأبيض نفسه.

جماعتنا الصغيرة مشت نحو باب المجمّع. رجلان كانا يحرسان المدخل، بيَدِ كل منهما عصا خشبية كبيرة. سَألانا عن الجهة التي جئنا منها، فأجبناهما. فجأة جاء أحد الحراس وأبعدني عن الجماعة. قادني إلى غرفة كبيرة، مكيَّفة، أبرد بكثير من صالة المدخل. كان انفراجاً يكاد لا يصدق بعد البقاء مدة طويلة في الحر الشديد.

كان ثمة نحو ثلاثين رجلاً مبعثرين في الغرفة، البعض ممدد، آخرون جالسون أو واقفون في مجموعات صغيرة، يتحدثون. سمعتهم يتكلمون عدداً غير قليل من اللغات المختلفة، رغم أنني لم أستطع التعرف عليها جميعاً، أعني اللغات. من ملابسهم استطعت أن أتبين أن عدداً كبيراً منهم كانوا من السعودية. أيضاً كان هناك بعض الأفراد من شمال أفريقيا ـ مغاربة، توانسة ـ لابسين ملابس خروج عادية. ما من أحد منهم كان يرتدي السروال والقميص، الزي الباكستاني الأبيض.

ما لبثْتُ أن فهمت أنني كنت في هذه الغرفة لأنني كنت أجنبياً. أما أولئك الذين جئت معهم فقد كانوا جميعاً باكستانيين فجرى نقلهم إلى الباحة الخارجية المكشوفة الواسعة التي كنت قد رأيتها من المدخل. كانت النار تشويهم فيما كنت أنا مستمتعاً بالجو الرطب. في تلك اللحظة بالذات أدركت أن لا علاقة لهذا المكان بالجهاد على الإطلاق. ففي معسكرات التدريب كان الجميع متساوين. كنت أعرف ذلك من الأفلام التي رأيتها ومن كلامي مع كل من أمين وياسين. وكنت أعرف ما يكفي من القرآن كي أدرك أن المسلمين لا يفرِّقون بين البشر على هذا النحو. لم أكن مستعداً للبقاء في هذا المكان طويلاً.

فجأة سمعتُ صوتاً شد انتباهي. رجل مسن كان جالساً أمامي خلف مكتب. قال بالإنجليزية: 'أعطني جواز سفرك ومحفظة نقودك من فضلك!'

فوجئت وشعرت بشيء من القلق. قلت: 'أستطيع إعطاءك ما معي من مال. أما جواز سفري فأفضل أن أحتفظ به.'

ابتسم بلطف بالغ. قال: 'اطمئن. جميع الحجاج يفعلون هذا. إنها طريقتنا في حفظ الأوراق والحوائج العائدة لضيوفنا. سنعيدها إليك عند رحيلك.'

لم أر مخرجاً من المأزق، ناولتُه جوازَ سفري وثمان مئة دولار من المبلغ الموجود في حزامي. أبقيت الباقي من الدولارات في الحزام. ثم قادني الحارس

إلى غرفة أخرى، ووضع أشيائي على الأرض. نظرت حولي ولاحظت أن عيون الجميع كانت ناعسة، بلهاء، فارغة، بلا معنى. حين التقطت رائحة العطور الثمينة لأحد الرجال، أيقنت أن هؤلاء لم يكونوا مجاهدين. في الحقيقة لم يكونوا حتى مسلمين أتقياء؛ فالعطور ممنوعة لأنها تحتوي على الكحول. لم يكونوا سوى أناس أغنياء في غمرة عطلة غريبة.

رافقني عنصر الحراسة إلى غرفة جديدة، غرفة أشبه بمكتبة. مجموعة من رجال أكبر سناً كانوا جالسين على وسائد ممددة على الأرض. كان الجميع ذوي لحى طويلة مُحَنَّاة. من الواضح أن أحدهم كان هو المسؤول؛ كان جالساً في الوسط وكانت وسادته أعلى قليلاً من نظيراتها. أعداد من الكتب كانت مبعثرة أمامه، ولكن دون أي نسخة من القرآن.

قام الحارس بتمرير شيء إلى هذا المسؤول. وفيما كان هذا يقلِّب الشيء ويعاينه رأيت أن الشيء الممرر لم يكن سوى الورقة التي كان الرجل المعمم قد زودني بها ونحن في الطائرة. ألقى نظرة سريعة أخرى على الورقة ثم رفع رأسه ونظر إلي داعياً إياي إلى الجلوس بالإشارة: 'أهلاً وسهلاً. كم من الوقت ستبقى معنا؟' سأل.

قلت: 'ثلاثة عشر يوماً.' في تلك اللحظة شعرت بالسعادة لأنني لم أستطع الحصول على ما هو أكثر من تأشيرة سياحية في استانبول. أومأ الرجل وراح يتكلم. أقر بأنني لا أذكر ما قاله. بعقلي كنت قد غادرت المكان. لم تكن هذه سوى إحدى الطرق الدينية، وعلاقة هؤلاء بالإسلام كانت واهية.

خلال اليومين التاليين كنت سأطلع على المزيد من هذا المكان. اكتشفتُ أنني كنت في رايوند، مقر قيادة جماعة التبليغ. يومياً كنا نُلقَّن دروساً لا عن القرآن بل عن تعاليم محمد إلياس الذي كان قد أسس الحركة. على العموم كانت الجماعة

مهتمة بالتبشير والهداية، بالاهتداء إلى المسلمين الذين ضلوا طريقهم وباتوا بحاجة إلى من يعيدهم إلى حظيرة الإيمان. ذلك هو معنى التبليغ بالعربية. ذلك هو كل ما كانت الجماعة تسعى إليه: إيصال الرسالة. كانت الجماعة ضد أي نوع من أنواع العنف.

بوصفي مهتدياً جديداً، كان من المفترض أن أحضر الدرس كل صباح. ولكن كثرة العدد كانت تساعد على ضياع الأمر. أكثر الوقت كنت أتجول فقط. كنت أميل إلى محادثة الأجانب في المقام الأول، لأن كثيرين منهم كانوا يتكلمون اللغة العربية أو الإنجليزية أحياناً.

الجميع كانوا ودودين جداً، ولكن شديدي النعومة. كثيرون منهم كانوا يدخنون، بل وقد شاهدت مرة أحد السعوديين يخرج قنينة صغيرة من جيبه ويوزع أقراصاً بيضاء على بعض العرب الآخرين. صُعقت.

أحياناً كنت أحدثهم عن الجهاد. وحين قلت إن الجهاد كان يعني بنظري قتال المجاهدين ضد الروس، أو البوشناق ضد الصرب، بدوا مذعورين. كانوا يسارعون إلى الرد قائلين: 'لا يا أخ. إن الجهاد يعني الحب. إن الجهاد يعني هداية الضالين إلى الصراط المستقيم. إن الجهاد يعني إنقاذ الأرواح.'

في اليوم الثالث انفجرتُ. قلت: 'حقاً؟ أهذا هو الجهاد؟' ورحت أرفع صوتي: 'لسنا إلا على مسافة بضعة أميال من الحدود مع الهند. إذا أغار الهندوس غداً علينا ليقتلونا، فما الذي ستفعلونه؟ هل سترفعون مصاحفكم في الهواء فيما هم يسددون الرصاص إلى صدوركم؟ أهذا هو جهادكم؟' اكتفى الرجال بالإيماء الخالي من المعنى والمهمهة حول التبليغ.

ثمة كان شخص واحد في رايوند أحببتُه، رجل من بلاد الشيشان في سن قريبة من سني. كان هناك مع ابنه المراهق. وصل إلى المكان بعدي بنحو يومين،

obeikandl.com

وعلى الفور اكتشفت أنه مختلف. لم يكن غنياً؛ ذلك واضح من ملابسه. لم يكن ناعماً مثل الآخرين أيضاً.

بعد ظهر ذلك اليوم رأيته يتحدث مع أحد الحراس. من الواضح أن الشيشاني كان شديد الحزن. بعد انتهاء الحوار،اقتربت منه وسألته عن المشكلة. قال بالإنجليزية: 'ابني بحاجةٍ إلى تجهيزات مدرسية، تكاليف دراسة. وأنا لا أملك أي مال. أنفقت كل ما كان معي للوصول إلى هنا.'

أفادني بأنه كان قد هَرَّبَ ابنه من بلاد الشيشان لحمايته من الحرب الدائرة هناك. كانت الطريقة الوحيدة لإخراجه من البلاد متمثلة بتأشيرة دراسية، وكانت الباكستان هي الأرخص. غير أنه كان يعلم أنه إذا أرسل ابنه إلى الجامعة فإن الفتى كان سيتم تجنيده وتدريبه في المعسكرات وإعادته إلى بلاد الشيشان للقتال. حدثني عن مدى هول الحرب في بلاد الشيشان، عن أن الروس كانوا يدمرون البلاد كلها، تماماً كما سبق لهم أن فعلوا بأفغانستان. كان الرجل يريد إنقاذ ابنه. امتلأتْ عيناه بالدموع وهو يتكلم.

تلك الليلة، جاء الشيشاني وابنه إلى حيث كنت قد نشرت كيس نومي. قاما بنشر كيسيهما بجانب كيسي. تابعْتُ الأب وهو يتحدث بلطف مع ابنه، وعلى الرغم من أنني لم أفهم كلماته فإنني استطعت أن أرى مدى حبه لابنه. كان يبتسم وهو يساعد ابنه في الاستعداد للنوم. غير أن الابن كان بارداً، قاسياً. عيناه كانتا ميتتين؛ بقي الفتى صامتاً جل الوقت.

بعد غرق الأب في بحر النوم، كنت قادراً على سماع تقلّب الابن. بعد بضع دقائق، همست سائلاً إياه: 'لقد جافاك النوم، أليس كذلك؟'فرد علي همساً أيضاً: 'بلى.'

انتظرت دقيقة لأرى ما إذا كان سيقول شيئاً آخر، غير أنني لم أسمع منه سوى أصداء تقلّبه المتواصل من جهة إلى أخرى. سألته من جديد: 'الوضع صعب في الشيشان، أليس كذلك؟'

سادت فترة صمت طويلة، ثم همس لي عبر الظلمة بلغة إنجليزية مكسرة: 'ليتني أستطيع قَتْلَهم جميعاً!'

صباح اليوم التالي، أخذت مبلغ أربع مئة دولار من حزامي وقدَّمْتُه إلى والد الفتى. لم يقل شيئاً، كما لم أقل أنا أيضاً أيَّ شيء. غير أن عينيه كانتا ممتلئتان بالدمع.

سرعان ما جرى نقلي إلى لاهور لأداء فريضة الخروج، فريضة المشاركة في مهمة التبليغ أو الهداية. في فريق مؤلف من اثني عشر شخصاً توغَّلْنا في الأحياء الفقيرة. من الواضح أن الناس هناك كانوا قد شاهدوا فرقاً قادمة من المركز للتبشير والهداية. رَحَّبوا بنا وقدموا لنا الطعام ودعونا إلى منازلهم.

قضينا ثلاثة أيام في لاهور متجولين في الأسواق والشوارع. لم يكن قد سبق لي أن رأيت مثل هذا الفقر في حياتي. صحيح أن هناك أحياء فقيرة في المغرب، ولكنها ليست شبيهة بهذه. ثمة كانت أسْيقة المياه المالحة المكشوفة المتدفقة في الشوارع، وكان حتى الكبار يخوضونها بأقدامهم الحافية.

كان من المفروض أن أثقّف الناس بالمبادئ الستة للحركة، غير أنني لم أكن قد أبديت أي اهتمام بالدروس فبقيت جاهلاً بها. عوَّضْتُ عن ذلك كيفما اتفق. كنت برفقة دليل للترجمة.

رأيت أعداداً كبيرة من الرجال والنساء ذوي الأفواه الحمراء جراء مضغ البان، الذي هو نبات مخدِّر يباع في الشارع على الملأ. أغضبني الأمر؛ قلت لهم إنه مخدِّر، من عمل الشيطان، من عمل الطواغيت. لاحقاً في اليوم نفسه، فيما

كنت جالساً أمام الجامع، جلس رجل إلى جانبي وسألني عما إذا كان قادراً على الالتحاق بجماعتنا. نظرت إليه. كان يحمل حجاباً علقه بشريط جلدي حول عنقه. قلت له: 'لا، لا يمكنك أن تأتي معنا.'

صُعق لجوابي: 'لِمَ لا؟'

'بسبب ذلك' قلت مشيراً إلى الحجاب.

'وما العيب فيه' سأل. مضيفاً 'إنه يحميني.'

سألته: 'هل يحميك؟ كيف يمكنه أن يحميك. وحده الله قادر على حمايتك. وأنت تهينه بحملك لذلك الحجاب.'

جحظت عينا الرجل، ثم مدَّ يده إلى رقبته وخلع القلادة.

مع حلول اليوم الثالث كان فريقنا قد توسع إلى ستة وعشرين عضواً. كنت أنا من جَنَّد أكثر الأعضاء الجدد وحدي. كانت بعثة ناجحة جداً إلى درجة أن الشيوخ المسؤولين دعوني إلى المكتبة فَوَرَ عَوْدتي.

قال الشيخ الجالس في المركز: 'نحن فخورون بك. سمعنا عن خروجك، عن عدد الذين جئت بهم. نعتقد أنك ذو مستقبل عظيم هنا.' غير أن غمامة داكنة ما لبثت أن غطت وجهه، قبل أن يتابع قائلاً: 'غير أننا سمعنا من الآخرين أنك تحدثت عن الجهاد المسلح. نحن قلقون بشأن هذا. إنها طريق الضلال. فالجهاد الصحيح الوحيد هو جهاد التبليغ.' ثم أوصاني بألا أتكلم عن الجهاد المسلح مرة أخرى.

اعترفْتُ له بضحالة ثقافتي الإسلامية، وبأن الناس الذين أعرفهم كانوا، حين يتحدثون عن الجهاد، يعنون شيئاً مختلفاً جداً عما يعنيه الناس في رايوند. أومأ، ثم عَبَّر عن رغبتهم في إبقائي أطول مدة ممكنة، وفي متابعة أداء فريضة الخروج.

قلت له: 'سيكون البقاء مستحيلاً بالنسبة إلي. لم يبق لي سوى بضعة أيام في تأشيرة الدخول.' طلب مني أن أطمئن، وقال إنه قادر على تمديد الإقامة. كان سيجري اتصالاً ثم كنت سأذهب إلى لاهور في اليوم التالي. سَجَّلَ عنواناً على ورقة ناولنيها.

في اليوم التالي، عُدْتُ إلى ملابس الشارع واستعدت جواز سفري من العجوز الذي كان قد استلمه مني في اليوم الأول. أخذت سيارة تكسي أقلَّتني إلى مكتب الجوازات الإقليمي بلاهور. أرسلوني إلى مكتب آخر لتمديد الإقامة. في أقل من ساعتين كانت إقامتي قد تمددت من 15 يوماً إلى ثلاثة أشهر.

عدت إلى المجمَّع وحزمت حوائجي. ذهبت إلى العجوز خلف الطاولة وطالبته بإعادة أموالي. بدا مصعوقاً تماماً: 'ماذا تعني؟ إلى أين أنت ذاهب؟'

أجبته: 'أنا خارج من هنا. أنا ذاهب إلى بيشاور.' رفع سماعة الهاتف للاتصال بأحدهم ولكن مجموعة من الرجال كانت قد تحلَّقَتْ حولي في هذه الأثناء. نصحني الجميع بألا أذهب، أفادوا بأن تلك طريق خطرة، بأن بيشاور بالذات زاخرة بالمخاطر. قال الجميع إن عليّ أن أبقى معهم وأعمل بسلام.

أبعدتُهم عني. لم يكن ثمة أي سبيل لإقناعي بأي شيء، وأكدت لهم ذلك. أخيراً أنهى العجوز مكالمته. بوجهٍ يقطر استياء ناولني دولاراتي الثمان مئة. قال: 'أنت تسير في طريق الضلال.' ضحكت. كانت هي الطريق القويمة بالنسبة إليّ أنا. كنت قد بددتُ أسبوعين كاملين هنا، غير أنني كنت قد كسبت ثلاثة أشهر إقامة. لم تكن صفقة رديئة.

ما إن خرجت من المجمَّع وتوغلت في الشمس الساطعة حتى عادت رائحة الأسيقة النتنة إلى الانقضاض علي من جديد. تذكَّرْتُ الخرافة التي سمعتها مرات كثيرة من الداخل، خرافة أن محمداً إلياس كان قد عاش في الهند ولكن

رائحة الفردوس كانت تفوح منه وهو يعبر الحدود جالباً معه وروده العطرة إلى رايوند.

ضحكت. كانت رائحة الغائط تملأ المكان كله وتزكم الأنوف.

أبو أنس

كنت أعلم أنني ملزم بالوصول إلى بيشاور. وكنت على يقين بأنني إذا ما وصلت إلى هناك كنت سأهتدي إلى طريقي المفضية إلى المعسكرات. كنت أعرف هذا لأنني كنت قد شاهدت رامبو الثالث. ففي طريقه إلى عمق أفغانستان، توقف رامبو في بيشاور ليتسلح. لذا كنت أعرف أن هناك معبراً حدودياً قريباً من بيشاور، وقَدَّرْت أن الأسلحة كانت هي الأخرى تذهب إلى هناك. كانت بيشاور، بنظري، أنسب أمكنة رصد الطريق إلى الجهاد.

ما إن غادرتُ مركز التبليغ في رايوند حتى استأجرت سيارة تكسي أقلَّتْني إلى محطة القطار في لاهور. لم يكن ثمة أي قطار متجه إلى بيشاور خلال الساعات السبع عشرة القادمة، وكان من شأن الرحلة أن تستغرق يومين كاملين. سارعت إلى سيارة أجرة بدلاً من الانتظار وذهبت إلى المطار وقطعت تذكرة على رحلة جوية في السابعة من مساء ذلك اليوم، فأكون في بيشاور في التاسعة.

كان الوقت عصراً حين كنت قد انتهيت من شراء تذكرتي وكنت موشكاً على إقامة صلاة العصر. كنت قد رأيت مسجداً صغيراً بالقرب من موقف سيارات المطار، فتوجهت إلى هناك. كنت لا أزال على مسافة خمسين متراً من المسجد حين رأيت حشد من الناس ذوي جلابيب التبليغ البيضاء. شَتَمْتُ همساً؛ فأطرقت وتوجهت نحوهم. كنت مرتدياً ملابسي العادية وآملاً في ألا يتعرفوا علي.

غير أن أحدهم ما لبث، بالطبع، أن فعل. نادى: 'يا عمر إلى أين؟ هل أنت عائد إلى الوطن؟'

رفعت رأسي. لم أتذكر الرجل الذي ناداني. كان يبتسم لي وينظر إلي تلك النظرة شبه البلهاء والفارغة التي كانت تميز الجميع في المركز. غمغمت: 'أنا ذاهب إلى بيشاور.'

على الفور سحابة سوداء غطت وجهه وسأل بنبرة مثقلة بقلق عميق: 'وما الذي يجعلك تذهب إلى بيشاور؟'

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لأرد عليه.' كان علينا أن نقيم صلواتنا. غير أن حشداً كبيراً ما لبث أن تحلَّق حولي فور انتهائنا من الصلاة. طلب الجميع أن أجالسهم بضع دقائق. امتثلتُ فجلسنا جميعاً أمام المسجد. كان ثمة رجل مسن في الحشد، تولى الكلام أولاً؛ قال: 'إن الله هو الذي ساقك إلى التبليغ. والله هو الذي منحك موهبة إعادة الناس إلى الإسلام. لماذا أنت مصر على الهروب من قَدَرك؟'

همهم الآخرون موافقين ونظروا إلي بعيونهم الواسعة، الغبية. كنت قد تحملت ما يكفي، وقفت لأمشي، وقلت وأنا أدور لأغادر المكان: 'قَدَري موجود في بيشاور.'

خلفي راحوا يصرخون بأصوات حزينة: 'لا، لا. ارجع من فضلك! اجلس معنا. عد إلينا. أنت تقترف خطأ جسيماً. ارجع من فضلك!'

أزعجني الأمر. كنت قد تحملت أسبوعين كاملين من هذا الهراء، وكنت أريد أن أضع حداً له مرة وإلى الأبد، فَدُرْتُ نحوهم وتكلمت بصوتٍ مرتفع قائلاً:

'فلسفتي ليست شبيهة بفلسفتكم. أنتم تخوضون جهادكم والقرآن بيدكم. أما أنا فأخوض جهادي والقرآن في جعبتي، مع رشاش كلاشنكوف بيدي.'

ثم أدرت ظهري ومشيت باتجاه المطار. لم أكن قد قطعت خمس خطوات حين سمعت صوتاً ينادي:

'يا عمر!'

يا للمصيبة! لن يكفّوا عن المحاولة. عدت ورأيت رجلاً جالساً وحده بجانب المسجد. كان يرتدي جلباباً سكَّري اللون مثل الآخرين، غير أنه لم يكن واقفاً مع الجماعة. رفع يده ودعاني إليه بالإشارة. شعرت بالفضول، تقدمت بضع خطوات نحوه.

قال: 'اطمئن أنا لست واحداً منهم.' تكلمَ بالعربية وفاجأني. الآخرون جميعاً تكلموا معي بالإنجليزية.

قلت: 'السلام عليك أيها الأخ!' وأنا أتقدم نحوه. وكلمتُه بالعربية قائلاً: 'إذا لم تكن واحداً منهم فكيف عرفت، إذن، اسمي.'

دعاني بالإشارة إلى الجلوس بجانبه، ففعلت. قال إنه أبو أنس. وراح يشرح بصوتٍ هادئ، متوازن قائلاً: 'كنت معك في مركز التبليغ. غير أنني لست منهم. كنت أراقبك.'

'ماذا تعني؟'

'راقبتك. استمعت إلى ما كنت تقوله. رأيت أنك لم تكن كالآخرين، وأنك راغب في خوض جهاد حقيقي. إلا أنني لم أستطع أن أفاتحك هناك. إنه لأمر شديد الخطورة.'

لم أعلّق.

قال: 'أستطيع مساعدتَك. أنا على الطائرة نفسها المتجهة مساء اليوم إلى بيشاور.'

كان يعرف أنني ذاهب إلى بيشاور، مما كان يعني أنه كان دائباً على تعقُّبي في المطار. هذا الرجل أثار شكوكي، حاولتُ أن أكتشف حقيقته. كان يعتمر قبعة

من طراز باكول، تلك القبعة الأفغانية التقليدية التي كنت أعرفها من صور شاه مسعود. إلا أنه كان يرتدي زياً باكستانياً مؤلفاً من سروال وقميص. كانت البدلة قديمة؛ كان القماش مهترئاً وفيه عدد من الثقوب. 'إذا كان على هذه الدرجة من الفقر فكيف استطاع أن يستقل الطائرة من لاهور إلى بيشاور؟' تساءلْتُ. لم أستطع أن أعرف هذا الرجل أو الجهة التي كان يعمل عندها، غير أنني كنت مدركاً لحقيقة أن الباكستان كانت تغلي بالجواسيس والأجهزة السرية. تعين علي أن أتحلى بقدرٍ استثنائي من الحذر. حين أحجمت عن الرد. تكلم من جديد.

قال: 'لدينا بضع ساعات قبل الطيران. تعال نعد إلى المطار ونجلس هناك نتحدث. الجو هناك ألطف، ويمكننا أن نتناول شراباً ما. ليس الكلام هنا في الخارج آمناً.'

أومأت، وعدنا مشياً إلى صالة الاستقبال والمغادرة في المطار. جلسنا في المقهى وطلبنا، كلانا، شراب الفانتا الغازي. ومن ثم، دون أي كلام، أخرج ورقة من حقيبته ووضعها على الطاولة. سأل: 'هل تعرف هذه؟'

أذهلني ما رأيته حين نظرت: نسخة من نشرة الأنصار. حملتُها لأعاينها وأدركت على الفور أنها النشرة الحقيقية؛ تعرفت على خاتم طارق. نظرت إلى التاريخ ورأيت أنها حديثة لم يمض على صدورها سوى أسبوعين.

أحسست بامتلاء عيني بالدموع. انفعلت، بالطبع، لأنني أيقنت مباشرة أن أبا أنس كان حقيقياً، أنه كان سيساعدني على الوصول إلى المعسكرات. أدركت في تلك اللحظة أنني كنت سأصل عما قريب إلى قلب أفغانستان.

غير أن رؤية نسخة الأنصار هي الأخرى أحْزَنَتْني، لأنها ذكّرتني بأهلي، بحكيم الذي كان قد ضل طريقه تماماً، بنبيل الذي كان قد أضاع كلاً من أخويه حكيم وعمر في اليوم نفسه، وبأمي التي كانت أسرتها قد تمزقت أشلاء مع بيتها.

قلت وأنا أهز رأسي: 'هذا غير قابل للتصديق. نعم غير قابل للتصديق.' رفعتُ رأسي، وكنت أعلم أن أبا أنس قد رأى أن عيني كانتا دامعتين.

قلت: 'أنت لا تعرف أيها الأخ. أنا قادم من بلجيكا. كنا نطبع الأنصار في بيتي أنا. كنا نوزعها بالبريد على العالم كله. غير أن البوليس داهم البيت واعتقل الجميع. أنا هربت، وذلك هو سبب وجودي هنا. جئت إلى هنا لأداء فريضة الجهاد.'

جحظت عينا أبي أنس للحظة عابرة - من الواضح أنه تأثّر. ثم نظر إلي مدقِّقاً وتحدث بنبرة معزِّية: 'نعم يا أخ، سمعتُ عن الاعتقالات. لا حول ولا قوة إلا بالله!'

من الجلي أنه تأثّر بشحنة العاطفة التي حَمَلَها صوتي وبالدموع التي ملأت عينيّ. كنت أعلم أنه اعتقد أنني كنت مزعوجاً من تعرض أهلي للاعتقال، وقد كان، بالطبع، على صواب. غير أن أفضل ألوان التمثيل تعوِّل، كما يعرف كل ممثل، على عواطف فعلية.

مال أبو أنس عليّ وتكلم بهدوء بصوته البعيد عن التكلف قائلاً: 'خاطرتَ إذْ حاولتَ المجيء إلى بيشاور دون عنوان، دون اسم صلة الوصل.' صمتَ وعاينَني باهتمام، ثم تابع: 'إذا جئت معي، أستطيع أن أوصلك إلى بعض إخوتنا العرب في بيشاور. سيدرّبونك، وسيساعدونك على دخول أفغانستان.'

يا إلهي! كم أنا محظوظ! 'اللهم لك الحمد!' قلت: 'إنني محظوظ حقاً إذ ساقك الله إليّ.' حقاً شعرت بالامتنان لأبي أنس، ولكن ليس فقط للأسباب التي خَطَرَتْ بباله.

قال لي إن علينا بعد تركنا للمقهى مباشرةً أن نتظاهر بعدم معرفة بعضنا بعضاً. كنا سنجلس في مقعدين بعيدين أحدهما عن الآخر في الطائرة. وبعد

الوصول إلى بيشاور كنت سأذهب مباشرةً إلى موقف التكسي لأنتظره هناك. كنا سنُمضي الليل في مركز التبليغ في بيشاور، ثم نلتقي العرب في اليوم التالي. وافقت وافترقنا دون أي كلمة أخرى.

مع إقلاع الطائرة إلى لاهور، حَدَّقْت عبر النافذة وأنا أفكر بمدى كوني محظوظاً. لم يكن قد مضى على وجودي في باكستان سوى أقل من شهر، وكنت قد نجحت في الاهتداء إلى من كان قادراً على إيصالي إلى المعسكرات. تمنيت للحظة أن يكون جيل قادراً على رؤيتي الآن والتأكد من أنه كان هو وجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSEعلى خطأ فيما يخصني. غير أنني سرعان ما أزحت تلك الأمنية جانباً. تعين علي أن اطرد كلاً من جيل، الجهاز، وكل ذلك الجزء من حياتي، من رأسي وعقلي وذاكرتي إذا كنت أريد النجاح في المعسكرات.

بيشاور

بعد وصولنا إلى بيشاور، توجهت مباشرةً إلى موقف التكسي. كل بضع ثوانٍ كان سائق جديد يعرض عليَّ الخدمة ويحاول أن يغريني بركوب سيارته مقابل أبخس الأسعار. بعد نحو عشرين دقيقة، خرج أبو أنس أخيراً من المطار. كان معه رجل باكستاني. قال أبو أنس إن الرجل كان سيتولى قيادة السيارة التي ستقلنا إلى مركز التبليغ حيث كنا سنمضي الليل.

خلال الرحلة شرح أبو أنس أن السفر تلك الليلة إلى مخيم اللاجئين كان شديد الخطر. كنا سنذهب إلى هناك في اليوم التالي للقاء العرب. كان علي أن أحرص على عدم استثارة أي شكوك، قال أبو أنس. أبلغني أن مراكز التبليغ كانت خاضعة لإدارة المخابرات، الشرطة السرية. وبعد وقتٍ طويل علمت أن مجموعة من ضباط الجيش كانت قد حاولت الإطاحة بالحكومة في الخريف السابق.

وبعد اعتقال الجماعة، تبين أنها كانت ذات علاقات مع جماعة التبليغ. لم يكن أبو أنس أن أطلعني على أي من هذا، بل اكتفى بتحذيري من إكثار الكلام طوال بقائنا داخل المركز، ومن النطق ولو بكلمة عربية.

كان ذلك في ربيع 1995، فترة خطرة بالنسبة إلى العرب في الباكستان. كان التطرف الإسلامي صاعداً، وكانت رئيسة الوزراء بناظير بوتو، دائبة منذ سنوات على اجتثاثه، ولاسيما بعد تهديد الولايات المتحدة بإدراج الباكستان على قائمة الدول الإرهابية لديها. غير أنها بدت موشكة على خسارة المعركة: قبل عام واحد، قُتل اثنان من موظفي القنصلية الأمريكية في كراتشي وهما في الطريق إلى العمل. وقبل بضعة أشهر من وصولي إلى الباكستان، كان رمزي أحمد يوسف، العقل المدبر لتفجيرات مركز التجارة العالمي في 1993، قد أوقف في إسلام أباد، مما شد أنظار العالم إلى دور البلد في تفريخ التطرف الإسلامي. كانت بوتو عازمة على إقناع العالم بأنها كانت متشددة مع الإسلام المتطرف. وكانت استثنائية التصميم على إثبات ذلك لأمريكا. كانت في زحمة التفاوض لشراء عدد من مقاتلات اف - 16، وبقيت الصفقة معلقة جراء العقوبات الأمريكية.

كانت حكومة بوتو بالغة التشدد مع العرب الذين كانوا يحمَّلون مسؤولية التحريض على التطرف داخل الباكستان. وقبل عام واحد، كانت الحكومة قد أمرت مخضرمي الحرب السوفيتية - الأفغانية العرب بمغادرة البلاد. وحين أحجموا عن الرحيل، بدأت الشرطة سلسلة من الحملات العنيفة لطردهم عنوة. ومع حلول عام 1995 كانت الحملة على العرب تزداد حدةً مع بدء الحرب في البوسنة بالوصول إلى نهايتها وشروع المزيد من المقاتلين العرب في التدفق من جديد على كل من أفغانستان وباكستان عائدين من أتون ذلك الصراع.

كان وقتاً خطراً بالنسبة إلى أي عربي في الباكستان.

obeikandl.com

أمضينا الليل في مركز التبليغ خارج بيشاور. لم يكن الوضع مختلفاً في شيء عن نظيره في رايوند؛ ثمة كان مئات من الناس الجالسين على الأرض، وفي وجوه الجميع النظرات المزجَّجَة نفسها. كنت قد صرت أمقت هؤلاء الضعفاء الضائعين مع فلسفتهم القائمة على العزوف عن الفعل.

أبو أنس وأنا لم نتبادل أي كلام في تلك الليلة. توضَّأنا وأقمنا صلاتنا وتناولنا عشاءنا، ثم أوينا إلى النوم في وقتٍ مبكر جداً. صباح اليوم التالي ارتديت سروالي وقميصي الأبيضين، وأنا وأبو أنس أقمنا الصلاة مع الآخرين. غادرنا المركز وتناولنا طعام الفطور في مقهى قريب، ثم استقلينا حافلة متوجهة إلى مخيم اللاجئين في بيشاور. قطعنا في الحافلة عدداً من الكيلومترات على طريق مزدحم بالمحلات، البشر، الحيوانات ووسائط النقل من جميع الأصناف مما جعل تسميته بشارع صعباً. عناصر الشرطة المسلمون كانوا في كل مكان، في زيهم الرسمي المؤلف من السروال والقميص الأسودين مع البيريه.

في إحدى المحطات غَمَزني أبو أنس فنزلنا من الحافلة وبدأنا المشي. كنا في قلب مخيم اللاجئين. ثم كانت محلات، أكشاك لبيع الطعام، وبشر في كل مكان. خيمة بعد خيمة بعد خيمة. عند أحد المنعطفات توقف أبو أنس لشراء بعض الخبز واللحم. قال لي إن عنده زوجاً وخمسة أطفال، وكان عليه أن يأخذ طعاماً لأنه كان غائباً منذ أسبوع.

منذ أسبوع. مع حساب وقت السفر لم يكن إلا مكلَّفاً بمراقبتي في رايوند لبضعة أيام، حسب تقديري. عدت بذاكرتي إلى الرجل الذي كنت قد التقيته في المطار باستانبول، الرجل الذي أرسلني إلى التبليغ. في البدء، فكرت أنه كان عضواً في الطريقة أراد فقط تجنيدي، أما الآن فلم أعد متأكداً. لم يكن يرتدي زياً أبيض كالآخرين، وكان يعتمر عمامة أفغانية. والآن كان ثمة أبو أنس الذي اندس في التبليغ في كل من رايوند وبيشاور، مع أنه لم يكن، بوضوح، واحداً من الجماعة. هل كان عثوره علي في رايوند صدفة؟ أم أنه كان مبعوثاً للعثور علي؟

مَشَيْنا عبر جزء من المخيم ثم تابعنا الطريق خارجه في ممر ترابي. أشار أبو أنس إلى الأفق نحو الجبال الداكنة المتعالية في البعيد. قال: 'تلك هي أفغانستان.' ثم أشار إلى أحد الوديان 'هناك، ذلك هو معبر خيبر.'

مع مواصلتنا المشي أشار إلى صف من المنازل، كانت هذه أكبر من أي بيوت في المخيم. بدت متينة مبنية بالطوب. قال إن العائلات العربية تعيش هناك، معظمها عائلات رجال استشهدوا في الحرب ضد الروس. بعض الرجال كانوا لا يزالون أحياء وموجودين في أفغانستان، مشاركين، حسب كلامه، في القتال ضد حكومة برهان الدين رباني في كابول.

مع متابعتنا المشي بدأت الأرض تتغير. كان المخيم على مساحة منبسطة تماماً، أما هنا فكانت ثمة تلال صغيرة وبدت الأرض أكثر وعورة. على مسافة نحو خمس مئة متر من محيط المخيم وصلنا إلى مجموعة بيوت. وقفنا أمام أحدها، وطلب مني أبو انس أن أنتظر فيما دخل هو وطلب من عائلته إعداد غرفة لي.

بعد بضع لحظات خرج من البيت واقتادني إلى الداخل. أخذني إلى غرفة فيها سرير وطلب مني أن أرتاح لمدة ساعتين. وعدني بأن يوقظني عند صلاة الظهر، وبأنه في هذه الأثناء كان سيحاول الاتصال بابن الشيخ عبر الراديو. لم يكن قد سبق لي أن سمعت بذلك الاسم من قبل، إلا أنني لم أشغل بالي بالأمر. سارعت إلى إغلاق الباب وتمددت على السرير.

وأنا أعاين السقف تذكرت الحلم الذي حلمت به في بروكسل. حكيم وأنا كنا ماشيين بين الجبال. ساقاي تعبتا وأردت التوقف؛ أردت أن أبدأ جهادي. قال لي: 'لا، يا أخ. ليس بعد. لست جاهزاً.'

مع انزلاقي إلى النوم كَلَّمْتُ نفسي همساً: 'جاهز أنا الآن، يا أخ. أنا جاهز الآن.'

ابن الشيخ

كانت الغرفة مضاءة بنور الشمس حين جاء أبو أنس لإيقاظي. كان وقت صلاة الظهر قد حان. وفيما كنا نهم بالخروج من بوابة بيته التفت إليّ وقال: 'نحن ذاهبان الآن إلى الجامع للصلاة، غير أن عليك ألا تتكلم مع أحد، أي أحد. ولا كلمة واحدة. حين تنتهي من صلاتك اخرج واجلس وحدك.' ثم تابع يقول إنه كان قد ذهب ليجري اتصالاً مع ابن الشيخ الذي كان سيلتقينا في المسجد. انفعلت. لم تكن لدي أي فكرة عن هوية ابن الشيخ، إلا أنني كنت متأكداً من قدرته على مساعدتي في الوصول إلى المعسكرات.

أخذني أبو أنس إلى مسجد صغير أقمنا فيه صلاتنا. ثمة كان نحو عشرة عرب آخرين واثنين من زنوج أفريقيا. لم يتكلم أحد مع أحد آخر. ما إن انتهينا حتى ذهبت إلى الخارج وجلست على صخرة ورحت أقرأ في مصحفي. بعد نحو عشرين دقيقة، سمعت صوتاً من خلفي يقول: 'أيهما تعتقد أنه ابن الشيخ؟'

التفتُّ. كان صاحب الصوت هو أبا أنس. ثمة رجلان بدءا يظهران. أحدهما كان قصيراً، والآخر طويلاً. قلت: 'ليست لدي أي فكرة.'

جلس أبو أنس إلى جانبي وابتسم قائلاً: 'أقله خمِّنْ أيها الأخ!'

نظرت ثانية إلى الرجلين. القصير كان استثنائي اللياقة البدنية. حتى تحت ملابسه كنتُ قادراً على القول بأنه مؤلف من عضلات خالصة. بشرته كانت سمراء وجافة من الشمس. الرجل الآخر كان ناحلاً بعض الشيء وبدا أثيرياً. كان ثمة شيء ملكي يحيط به، أشبه بأحد مقاتلي الماساي (إحدى القبائل التانزانية) كان ذا لحية سوداء وبشرة كاشفة جداً. بدا غير ذي علاقة بالجهاد. قلت لأبي أنس: 'أعتقد أنه الأقصر.'

رد: 'أنت مخطئ يا أخ. إن الطويل هو ابن الشيخ.' ثم نهض ومشى نحو الرجلين. تحادث الثلاثة بإيجاز، ثم ابتعد الأقصر إلى الطرف لينتظر تحادث أبي أنس وابن الشيخ وحدهما.

بعد بضع دقائق رأيت أبا أنس يبتعد بصحبة الرجل القصير، عائداً نحو جهة بيته. اقترب ابن الشيخ مني وقال: 'السلام عليكم!'

رددت: 'وعليكم السلام!'

ثم جلس إلى جانبي وراح يمطرني بالأسئلة: 'من أين أنت؟' كان صوته هادئاً وموزوناً مثل صوت أبي أنس.

'من المغرب' أفدته.

ابتسم. 'لا يا أخ، قصدت من أين جئت إلى هنا؟'

قلت: 'من بلجيكا'

سأل: 'حقاً؟' بقي وجهه شبه جامد وهو يتحدث، إلا أنني استطعت أن ألاحظ أن في عينيه ذكاء شرساً. 'ما الذي دفعك إلى مغادرة بلجيكا؟ هل أرسلك أحد إلى هنا؟'

صمتُّ بضع ثوانٍ قبل أن أبادر إلى الرد. كان جسمي كله متوتراً. كنت قد رويت قصتي كاملة لأبي أنس، وكنت مسافراً بجواز سفر يحمل اسمي الحقيقي. وإذا كان أبو أنس قد قرأ الأنصار فإن ابن الشيخ قد قرأها أيضاً بالتأكيد. إذن، هو كان يعرف عن المداهمات في بروكسل. تمثل السؤال الوحيد بما إذا كان يعرف شيئاً عن دوري فيها أم لا. خلال تلك الثواني القليلة قام عقلي باستعراض شريط الاحتمالات. ربما كان حكيم والآخرون قد صدقوا تفسيري لسبب التحاقي بجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE).

أو ربما لم تتوفر لهم فرصة إخبار أحد عن اعترافي لأنهم اعتقلوا بُعيد ذلك. ولكن ماذا إذا حصل؟ ماذا إذا كان أبو أنس قد حدد هويتي وجاء بي إلى هنا لإعدامي عقاباً على خذلان المجاهدين؟ كل شيء بدا ممكناً في هذه اللحظة، غير أنني كنت أمام خيار وحيد دون سواه.

أخذتُ نفساً عميقاً. 'غادرت لاضطراري إلى الهرب.' فترة صمت. 'ربما سبق لك أن سمعت عن المداهمات في بروكسل.' فترة صمت ثانية؛ نظرت إليه، غير أنه لم يقل شيئاً. لم يعط أي إشارة عما إذا كان على علم بما حدث أم لا. وبالتالي فقد تابعت: 'قبل نحو شهرين شُنَّتْ حملةٌ على الجماعة الإسلامية المسلحة في بلجيكا. داهمت الشرطة بيتنا. كنا نطبع الأنصار فيه ونوزعه منه. اعتقلتْ جميع الإخوة.' نظرت إلى ابن الشيخ من جديد. لا شيء مرة أخرى. فقط التحديق البارد نفسه.

تابعت الكلام: 'كانت الشرطة تبحث عني، فتعيَّن علي أن أغادر البلد. انتقلت جواً إلى تركيا أولاً، ثم جئت إلى الباكستان لألتحق بالجهاد.'

كان ابن الشيخ يصغي باهتمام إلى ما كنت أقوله وأنا أروي قصتي، غير أن شيئاً مما قلته لم يبدُ مفاجئاً بالنسبة إليه. لم يسأل إلا سؤالاً واحداً: 'ما أسماء الإخوة في بلجيكا؟'

أجبت مباشرة: 'أمين وياسين.' لم يكن ممكناً أن أكون عارفاً ما إذا كان قد سبق لهما أن التقيا ابن الشيخ، إلا أنني كنت أعرف أنهما كانا في معسكرات التدريب. كنت شبه متأكد من أن طارقاً لم يسبق له أن كان فيها؛ كان مفرط النعومة، أوروبياً أكثر مما ينبغي.

ما إن خرجتْ الكلمات من فمي، حتى ابتسم ابن الشيخ لي ونهض واقفاً. بدا كما لو كنت قد عشت انقلاباً. 'تعال يا أخ، تعال نعد ونلم حوائجك. ثم سنذهب معاً وسأقدمك للإخوة الآخرين.'

ابن الشيخ وأنا عدنا مشياً إلى بيت أبي أنس. كان الأخير بانتظارنا على الباب. رأيت ابن الشيخ يعطيه غمزة خفيفة، فعاد أبو أنس مندفعاً إلى الداخل. وحين عاد، كان يحمل كيساً. ابتسم لي ابتسامة دافئة وهو يناولني الكيس.

قال: 'حفظك الله! يا أخ'

لم أر أبا أنس بعد ذلك قط، إلا أن ابن الشيخ كان سيخبرني لاحقاً أنهما قاتلا جنباً إلى جنب في أفغانستان خلال الحرب ضد الروس.

الاستجواب

بعد وداع أبي أنس، أعادني ابن الشيخ إلى قلب مخيم اللاجئين. كان مكاناً غريباً باعثاً على الضياع. ثمة كانت بيوت، خيم، بُنى أخرى متزاحمة ومتراكمة دون أي منطق واضح. على امتداد أحد الجانبين كان ثمة سور عالٍ مقطع بسلسلة من الأبواب. في بعض الأمكنة كانت المسافة الفاصلة بين الأبواب عشرة أمتار وفي أمكنة أخرى خمسة أمتار. لم يكن هناك أي ناظم.

كنا في حي آخر من المخيم غير الذي مشينا عبره، في وقتٍ سابق من النهار، أبو أنس وأنا. كان المكان هنا أهدأ بكثير، أقل ازدحاماً. والوجوه التي كنت أراها كانت وجوهاً عربية، لا أفغانية.

توقف ابن الشيخ أمام أحد الأبواب وطرقه. أحدهم فتح الباب من الخلف، فلم أستطع رؤيته. التفت ابن الشيخ إليَّ وطلب مني أن أنتظر حيث كنت لبضع دقائق، ثم دخل البيت. وحين ظهر خاطبني قائلاً: 'ادخل من فضلك وانضم إلى الإخوة. سأرسل شخصاً يمكّنك من الدخول في غضون ما لا يزيد على ساعتين.'

قال ذلك ودار ليمشي مبتعداً. لم أعرف ما يمكن توقعه، غير أنني كنت مضطراً، دون أي خيار آخر، لتجاوز عتبة الباب. كان البيت ندياً في الداخل،

ومظلماً. ما إن تكيفتْ عيناي حتى رأيت سبعة رجال عرب جالسين على الأرض. جميعهم كانوا شباباً، في أواخر عشرياتهم أو أوائل عشرينياتهم. جميعاً كانوا في ملابس عادية ـ سراويل جينز، وسترات رياضية. وأنا أضع كيسي على الأرض، كنت قادراً على الإحساس بأن عيونهم كانت تحرقني.

قلت: 'السلام عليكم!'

ردوا جميعاً: 'عليكم السلام.'

دعوني إلى الجلوس على الأرض معهم بالإشارة. جلست وبدؤوا يتكلمون معي. جميعاً كانوا يتكلمون بهدوء وبصوت منخفض، ويكثرون من الابتسام. لاحظت أن عدداً منهم كانوا ذوي لكنة جزائرية. سألوني عن المكان الذي جئت منه وكيف كانت رحلتي. أشعروني بأنني شخص مرحَّب به.

ثم أمطروني بوابل من الأسئلة عن بلجيكا. استمروا يبتسمون ويتكلمون بالأصوات الهادئة ذاتها، غير أنني سرعان ما اكتشفت أنهم كانوا يمتحنونني، أن ابن الشيخ كان قد تركني هناك للاستجواب. كان يعلم أنني كنت على صلة بالجماعة الإسلامية المسلحة، فوقع اختياره على مجموعة من الجزائريين لشيٍّ (لاستجوابي شياً على النار).

رويت لهم القصة نفسها عن بلجيكا، تلك التي سبق لي أن كنت قد رويتُها لكل من أبي أنس وابن الشيخ. حدثتهم عن الأنصار وعن الاعتقالات. لم يعلق أحد ولو بكلمة واحدة، ولم أكن قادراً على معرفة ما توصلوا إليه من استنتاج؛ جميعاً حافظوا على التعبير الهادئ نفسه طوال فترة الحوار. سألوا عن السنة التي أمضيتُها في بروكسل، ولكن دون أي تحديد. كانوا مباشرين ومداورين في الوقت نفسه: لم يشيروا إلى أي أحد بالاسم، وكانوا يطرحون الأسئلة على نحو غير منظم. أدركت أنه قد تعين عليّ أن أتحلى بالحذر، بالدقة البالغة في إجاباتي.

سألني أحدهم عن الحرب في الجزائر وعن رأيي في كل من جبهة الإنقاذ الإسلامية (الفيس FIS) والجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA). كنت قد سمعت كثيراً، وكثيراً جداً، من أمين وياسين فتمكنت من الرد فوراً. كانت الجبهة طاغوتاً، قلت للشباب، لأنها كانت تطالب بانتخابات. فقط الجماعة كانت تخوض جهاداً حقيقياً. لم يقل المحقق شيئاً. ثم قفز أحد الآخرين إلى موضوع جديد.

بدأت أعصابي تتوتر. لم أكن قادراً على معرفة ما كان هؤلاء يعرفونه عني، أو السبب الذي من أجله كان ابن الشيخ قد أتى بي إلى هنا. أسئلة الشباب بدت عشوائية، ولم يكونوا يبادرون إلى التعليق على أي من أجوبتي. لا ردود أفعال على الإطلاق. الابتسامة الوديعة نفسها مهما قلت. تمنيت أن ينتهي الأمر.

سأل أحدهم: 'ما اسمك أنت يا أخ؟'

'عمر الناصري'

ثم صمت. صمت كلي، شامل. التعابير تغيرت تماماً مع خروج الكلمات من فمي. صُعق الجميع.

تجمد الزمن بالنسبة إلي. بدا وكأن قنبلة انفجرت في الغرفة. هل كانوا يعرفون من أكون؟ هل كانوا قد سمعوا بهذا الاسم من أحدهم في بلجيكا؟ نظر الرجال إلى بعضهم البعض نظرات قلقة، غير أن جميع الأشياء وكل الأشخاص كانوا في حركة بطيئة. أُصبِت بالشلل.

تصوَّرْتُني ميتاً. بدا واضحاً من وجوههم أن الأمر قد انتهى. عرفوا أنني جاسوس. عرفوا أنني كنت سبب مداهمات بروكسل. كانوا سيقتلونني. ومع ذلك فإنني وجدت اليقين محرِّراً بعض الشيء بعد كل هذه الأسابيع المثقلة بالقلق. كنت أعرف مصيري؛ أصبحتُ بين يدي الله أخيراً، وما من شيء كان يستطيع أن يغيّر قَدَري المكتوب. كنت سأموت هنا، بمشيئة الله. وقد بدا ذلك شبه محتوم حين شعرت بيدٍ تضغط على ظهري.

'قل لنا يا أخ، أهذا هو اسمك الحقيقي؟' جاء الصوت عن يميني. كان الرجل الجالس بجانبي قد وضع يده على لوح كتفي.

دُرْت نحوه وقلت: 'نعم ذلك هو اسمي الحقيقي.' لم يكن ثمة أي شيء يمكن عمله بعد الآن. كانوا قد كشفوني.

ثم تكلم الرجل من جديد 'نحن لا نستخدم أسماءنا الحقيقية على الإطلاق يا أخ. حين تأتي إلى هنا عليك أن تترك كل شيء خلفَك ـ بيتَك، أهلَك، هويتك. لابد لك من اعتماد اسم جديد.'

بدا وكان سَدّاً قد انهار؛ تدفق طوفان التوتر كله من جسدي. ذلك كان سبب انصعاقهم الشديد: كنت قد أخفقت في استخدام أي اسم مستعار. لم يكن قد خطر لي أنني بحاجة إلى مثل هذا الاسم. بدا وكأني كنت قد نجوت قبل ثوانٍ قليلةٍ من إعدامي. شكرت الله وحمدته على إنقاذه لي.

قلت: 'أنا آسف جداً. لم أعرف ذلك. ليس عندي سوى اسمي الحقيقي.' ضحك الحاضرون ضحكة هادئة، وبادرني الرجل الجالس إلى يميني قائلاً إن عليّ أن أختار اسماً جديداً.

قررت أن أعتمد اسم أبي بكر، صديق النبي الصدوق والخليفة المنتخب الأول في الإسلام. أومأ الآخرون موافقين، ثم بدؤوا يقفون. كان الاستجواب قد انتهى، وأنا كنت لا أزال على قيد الحياة.

المواد الكيميائية

ما إن انتهتْ الأسئلة، حتى طلب مني أحد الشباب أن أحمل أمتعتي وأتبعه إلى غرفة أخرى. هناك طالبني بإطلاعه على ما كان في كيسي. فتحت الكيس وأفرغت محتوياته على الأرض: كيس نوم، بعض الملابس العادية، نظارات راي ـ بان، سكينتي العسكرية السويسرية الجديدة ومصباح جيب، وبعض لوازم التواليت: أداة حلاقة، فرشاة أسنان، وما إليهما.

أولاً، حمل نظارات الراي - بان وقال: 'لن تكون بحاجة إلى هذه في المعسكر. سيتعين عليك أن تتعلم فن القتال دونها.' أخذ معظم ملابسي أيضاً، مُزيحاً جانباً فقط كنزة وبعض الملابس الداخلية لآخذها معي. رفض كيس النوم. 'سيتوجب عليك أن تتآلف مع البرد في الجبال التي أنت متوجه إليها.' ثم رفع السكينة العسكرية السويسرية وحملها أمامي ناظراً إليَّ نظرة عتاب: 'لا يمكنك أن تحمل صليب المسيحيين وأنت منخرط في القتال تحت راية الله.' أخيراً، حمل آلة حلاقتي، وابتسم بلطف. تذكرت أنني لم أكن قد حلقت منذ وصولي إلى الباكستان. كنت قد 'رَبَّيْتُ' لحية قصيرة. قال: 'من المؤكد أنك لن تكون بحاجة إلى هذه في المعسكرات.' تبادلنا الضحك.

لَمْلَم الرجل جميع حوائجي الباقية وأعادها إلى كيسي. قال إن الأشياء المتبقية كانت ستنتظر عودتي. ثم طلب مني ترك جواز سفري وسائر أنماط التعريف بهويتي التي كانت بحوزتي. عَبَّرْت عن عدم رغبتي في التخلي عن جواز سفري، اكتفى بمجرد هز الكتف وسمح لي بالاحتفاظ به.

ثم طلب مني أن أودع الإخوة الآخرين في البيت؛ كان يستعد لنقلي إلى مكان آخر لقضاء الليل. بعد كلامي مع الآخرين عدنا إلى ضوء الشمس ومشينا بضع دقائق في الأزقة الضيقة لمخيم اللاجئين.

بعد قليل توقفنا أمام باب آخر. قَرَعه، استقبلنا رجل عربي وسمح لنا بالدخول. ثمة كان خمسة عرب آخرون في الداخل؛ بدوا أكبر سناً ممن كانوا في البيت الأول، وأكثر جدية. كانوا جميعاً متربعين على الأرض، عاكفين على القراء. نظرت إلى أطراف الغرفة؛ ثمة كانت كتب وملفات في كل مكان.

دليلي حَيّا الآخرين وقدَّمَني إليهم. رفعوا رؤوسهم للحظة، رادين على التحية. ثم اقتادني إلى غرفة أخرى وأبلغني بأنني كنت سأمضي الليل هنا. قال إنه كان سيعود لأخذي من هنا لاحقاً بعد الظهر.

وضعت حوائجي على الأرض وعدت إلى الغرفة الأمامية. كان الرجال مستمرين في المطالعة. ذهبت إلى أحد الرفوف وأخذت بضعة ملفات. ما من أحد حتى رفع رأسه.

عدت إلى غرفتي، جَلَسْتُ على السرير، وفتحت الملف الأول. داخل الملف كانت صورة فوتوكوبي تالفة لأحد أنواع الكتب التعليمية أو التدريبية. كانت القراءة صعبة في بعض الأمكنة لأنها كانت نسخة عن نسخة عن نسخة. غير أن الأحرف على الغلاف كانت واضحة: الولايات المتحدة الأمريكية.

كان ما بيدي دليل حرب المدن. كان يفصّل سيناريو قيام الروس بمهاجمة إحدى مدن ألمانيا الغربية، ويقدم خطة لكيفية صد الجيش الروسي بالاستناد إلى تكتيكات حرب العصابات. تضمن الملف عدداً كبيراً من الصفحات، وكان تفصيلياً إلى أبعد الحدود. كان يفسر أسلوب وضع القنّاصة على المباني، أسلوب نَصْب الكمائن، أسلوب استخدام المباني للاختباء. كان يشرح كيفية حمل الرشاش في البيئة المدينية، وكيفية استهداف العدو في الأحياء القريبة.

كان ثمة مصنف آخر في الملف. كان الأخير كله عن استخدام المتفجرات. توجيهات حول كيفية زرع الألغام المضادة للدروع وكيفية نصب أفخاخ خادعة بوضع القنابل في جثث الموتى. ثمة كانت تعليمات أيضاً عن كيفية صنع القنابل، غير أن الأوراق كانت مشتملة على أعداد مبالغ بها من المعادلات الكيميائية التي لم تكن، بأكثريتها، مفهومة بالنسبة إلي.

حملت ملفاً آخر واستعرضته أيضاً. كان هذا، هو الآخر، من أمريكا: دليل عمليات الخطف، مع رسوم توضيحية لبيت كبير وتعليمات حول كيفية التغلب على الحراس الواقفين في الخارج. إلا أنني ما لبثت أن توقفت عن القراءة لأنني سمعت جلبة في الغرفة الأخرى. كان الآخرون يستعدون للوضوء. كان موعد صلاة العصر قد حان.

الحارس الآتي من البيت الأول عاد بُعيْد الصلاة وطلب مني مرافقته للقاء أحدهم. تبعته إلى خارج البيت، شرح لي أن الرجل الذي كنا سنقابله كان مصرياً. 'إنه بالغ اللطف. سوف تحبه. لقد قاتل في الحرب ضد الروس. فقد إحدى ذراعيه وإحدى ساقيه في الحرب. الآن هو عاكف على دراسة المواد الكيميائية.' كنا موشكين على لقاء أحد صانعي القنابل.

حين وصلنا إلى البيت، قام رجل في الثلاثينيات من العمر بفتح الباب. كان يضع على عينيه نظارات سميكة، ولكن عينيه خلفهما كانتا متقدتين وفعّالتين. كان يحمل قناعاً أبيض علقه حول رقبته. كان ذا ساق وذراع صناعيتين، وتفوح منه روائح كيميائية قوية، واخزة.

بدا المصري مباغتاً برؤيتنا في البداية، غير أنه ما لبث أن رحَّبَ بنا بحرارة ودعانا إلى الداخل. قادنا إلى حديقة صغيرة، ندية خلف المنزل، جلسنا فيها. بقيت مُقلاً جداً في الكلام خلال المحادثة التي تبعتْ. معظم الوقت، ظل المصري يتكلم مع دليلي. بالإصغاء إليهما عرفْتُ أن دليلي كان في أفغانستان منذ مدة قصيرة جداً، وأنه كان سيعود في غضون بضعة أيام. غير أنهما بقيا يثرثران ثرثرة فارغة أكثر الأحيان. لم أتعرف على الأسماء المذكورة، كما لم أستطع متابعة مجمل الحديث لأن لغتي العربية لم تكن بعد قوية جداً.

بعد نحو عشرين دقيقة، وقفنا. ابتسم المصري وهَنّأني. قال: 'ليت عندنا مزيداً من الإخوان من أمثالك!' ثم خرجنا، الدليل وأنا، لنعود إلى أتون قيظ بعد الظهر.

مصباح الغاز

بعد ظهر اليوم التالي، جاء أحد الشباب إلى البيت الآمن وطلبني. لم يكن قد سبق لي أن رأيته من قبل، إلا أنه قال لي إن ابن الشيخ كان قد بعثه. ودّعت

الإخوة الآخرين، ثم استقلينا، الشاب وأنا، حافلة متجهة من مخيم اللاجئين إلى الجزء الرئيسي من بيشاور.

نزلنا من الحافلة في مركز المدينة ثم استأجرنا سيارة تكسي أقَلَّتنا إلى حي آخر من المدينة. لم تكن المنطقة شبيهة بأي شيء مما كنت قد رأيته في الباكستان حتى ذلك التاريخ. كانت نظيفة ومنعشة. من فوق الأسوار، استطعت أن أرى أن البيوت كانت فخمة جداً.

توقفت السيارة ونزلنا منها ورحنا نمشي. قال دليلي: 'هذه منطقة حياة آباد. عدد كبير من العرب يقيمون هنا، رجال خاضوا حرب الجهاد ضد الروس.'

تشوَّشْت. لم تبد هذه شبيهة ببيوت مجاهدين. تساءلت بصوت مرتفع عما إذا كانوا قد كسبوا ثرواتهم من السلب والنهب ومن غنائم الحرب، غير أن دليلي شرح لي أنهم جلبوا أموالاً معهم لدى مجيئهم إلى الباكستان من البداية. كثيرون كانوا قد تزوّجوا من أفغانيات وبقوا بعد انتهاء الحرب. آخرون قُتلوا في الحرب، إلا أن عائلاتهم لم ترحل لأنها كانت قد اختارت الباكستان وطناً لها.

كنا في ساعة متقدمة من بعد الظهر، فاقتادني الدليل إلى جامع جميل كان قريباً. بدا وكأنه مبنيٌّ كُلُّه من الرخام. ثمة كانت باحة فسيحة مكشوفة في وسطها بحرة أقمنا فيها صلاتنا. الآخرون في المسجد بدوا مختلفين عن أي بشر كنت قد رأيتهم في الباكستان منذ وصولي. ملابسهم كانت أنعم، جلودهم أقل خشونة. بل واستطعت أن أشم عطوراً تفوح من بعضهم.

بعد انتهائنا من الصلاة، اقترب منا صبيان. كانا يعرفان دليلي على ما بدا، سلّما علينا بحماسة كبيرة كانا يتكلمان العربية. من وجهيهما ولهجتهما استنتجت أنهما كانا مصريين.

سأل أحد الصبيين وعيناه جاحظتان: 'هل أنت موشك على أخذه إلى المدرسة؟'

تجهم الدليل، وراح يتكلم بما يشبه الهمس قائلاً: 'حذار التكلم هكذا أمام الملأ. سأشكوك لأبيك. يجب ألا تقول هذه الأشياء أبداً.' الصبيان اللذان كانت عيونهما شديدة التألق إلى تلك اللحظة، اكتأبا فجأة. ثم ما لبثا أن ابتعدا بسرعة البرق.

ثم التفت الدليل إليّ وطلب مني أن أنتظر حيث كنت. كان بحاجةٍ لأن يتكلم مع أحدهم. حين عاد بعد عشر دقائق، كان شيء ما قد تغير. بدا أكثر رصانة، أقل انفتاحاً عليّ. قال: 'علينا أن نشتري لك بعض الملابس الأفغانية.' استأجرنا سيارة تكسي أقلتنا إلى سوق أقمشة كبيرة كانت قريبة. اختار لي طقماً أخضر اللون مؤلفاً من سروال وقميص، إضافةً إلى باكول (قبعة أفغانية).

تناولنا وجبة العشاء في السوق. ثم بادرنا، فيما كانت السماء تزداد ظلمة، إلى استئجار سيارة تكسي أخرى أقلّتنا إلى أعماق حياة أباد. كانت البيوت أكبر من سابقاتها، وهي مصفوفة في مجمعات طويلة. وحين نزلنا من التكسي، مشى الدليل متوغلاً في الشارع الفرعي فتبعته. توقف بعد دقيقة أو نحوها ودار ليتأكد من أن السائق كان قد رحل. ثم دُرْنا إلى الوراء وعدنا أدراجنا إلى الجهة التي كنا قد جئنا منها.

تبعته مسافة بضعة مجمعات سكنية. مشينا جيئة وذهاباً عدداً من المرات لنرى ما إذا كان أحدهم يتعقبنا. كان الظلام قد حل، والضوء الوحيد كان صادراً عن مصابيح الشارع المنشورة في الحي. بعد بضع دقائق وصلنا إلى باب دارة (فيلا) كبيرة. توقف الدليل وقرع عدداً من المرات. طاق. طق ـ طق. طاق. طاق. لعلها كانت نوعاً من "الشيفرة".

فُتح الباب، إلا أنني لم أر أحداً واقفاً هناك. غير أنني ما إن خطوت إلى الداخل حتى رأيت رجلاً بنظارات واقفاً خلف الباب. ناوله الدليل قصاصة ورق، ثم تبادل الاثنان بضع كلمات. تكلما بقدرٍ كبير من الهدوء والسرعة إلى درجة لم

أستطع أن أفهم من كلامهما شيئاً. ثم قال الدليل: 'وداعاً' لكلينا، الرجل الآخر وأنا. خرج الدليل من البيت بسرعة فائقة إلى درجة أنني لم أجد ما يكفي من الوقت لأرد عليه.

كان البيت مظلماً تماماً تقريباً في الداخل. النور الوحيد كان صادراً عن مصباح غاز صغير كان الرجل حاملاً إياه بإحدى يديه. ركزت نظري وعاينْت الرجل فرأيت أن لحيته كانت مشذبة بما يتناسب مع وجهه. لم تكن اللحية لحية مجاهد.

دعاني بالإشارة إلى ابتاعه نحو داخل البيت في العمق. كان المكان صامتاً مئة بالمئة. نحن الاثنين كنا وحدنا. قادني إلى إحدى الغُرف، رفع مصباحه، وأبلغني بأننا كنا سننام هناك. ثمة كان فراشان على الأرض وثمة كانت طاولة صغيرة، لا شيء آخر. على الطاولة كانت نسخة من القرآن.

سألني صاحب البيت عما إذا كنت متوفراً على ملابس أفغانية فعرضت عليه السروال والقميص من السوق، إلا أنه اكتفى بهز رأسه ومغادرة الغرفة. ثم ما لبث أن عاد ومعه ملابس أخرى. ناولنيها فلاحظت أن هذين السروال والقميص كانا أعتق بكثير، أكثر اهتراءً.

ثم حل موعد صلاة المغرب. دلني على أحد الحمامات حيث توضّأت، ثم صلينا معاً. ما إن انتهينا حتى تربّع على الفراش والتقط بعض الأوراق ودلني أنا على القرآن. جَلَسْنا هادئين في فراشينا نقرأ في ضوء مصباحه. بعد مدة، وضعت القرآن جانباً وتمددت فيما واصل هو القراءة. وسرعان ما غرقت في نومٍ عميق.

أيقظني مضيفي قبل الفجر واقتادي إلى غرفة أخرى صلينا فيها صلاة الفجر جمعاً. وقبل أن تبدأ أشعة الشمس بالتسلل إلى البيت، اقترب من طاولة

وكتب رسالة. ثم التفت إلي وقال: 'في بضع دقائق سيأتي رجل ليُدخلك إلى أفغانستان ويوصلك إلى المخيم.'

وكلمة مخيم تعني 'معسكراً'. عملياً، كانت تلك المرة الأولى التي يقول فيها أي شخص إنني كنت ذاهباً إلى معسكرات التدريب. شعرت بنوع من القشعريرة الخفيفة، لا لمجرد الانفعال، بل ولإدراكي حقيقة أنني كنت في حضرة شخص هائل النفوذ والسلطة. صوته كان هادئاً مثل أصوات آخرين كنت قد التقيتهم في مخيم اللاجئين، مثل صوتي أمين وياسين. غير أن درجة من الحدة كانت تميزه لدى كلامه، درجة لم يكن قد سبق لي أن رأيتها من قبل عند أي كان. وما نسيت لن أنسى الوضوح الكامل لتلك اللحظة.

تابع المضيف كلامه: 'إياك أن تقول ولو كلمة واحدة للدليل. إذا أمرك بأن تفعل شيئاً، فإن عليك أن تنفذ. يجب ألا تسأله أي أسئلة، أو تخبره بأي شيء على الإطلاق.' أومأت موافقاً.

بعد قليل، قُرع الباب. قال صاحب البيت: 'تعال معي. خذ حوائجك.' فُتح الباب وهناك كان شاب أفغاني واقفاً. مضيفي مرر إلى الأفغاني الرسالة التي كان قد كتبها للتو. لدى مغادرتي للبيت طلب مني الرجل أن أتذكره في دعواتي. صلواتي الشخصية. ثم صدم صدري وكتفي بصدره وكتفه.

كنت قد رأيت هذه الحركة في مخيم اللاجئين. معظم العرب يعبرون، لدى لقائهم بأحد أو وداعهم له، عن قدرٍ كبير من العاطفة، بل ويقبل بعضهم بعضاً. أما المجاهدون فلا يفعلون شيئاً من ذلك. تحيتهم تبقى معبرة عن كل من التحدي والاحترام في الوقت نفسه.

كانت تلك تحيتي الأولى بوصفي أحد المجاهدين.

مناطق الحدود

تبعت الدليل من البيت. مشينا قليلاً ثم استقلينا سيارة تكسي قطعنا بها بضعة كيلومترات. كانت الشمس موشكة على البزوغ من تحت الأفق. أنزلتنا السيارة بجانب الطريق ووقفنا هناك بضع دقائق. بعد قليل، رأيت سيارة بيك آب بعيدة متجهة نحونا.

تسلقنا، الدليل وأنا، إلى الصندوق الخلفي للبيك آب. كان هناك أكياس طحين في أرضية الشاحنة فجلسنا عليها. ثمة كان عدد قليل من الرجال والنساء، الباكستانيين جميعاً، مع عدد من فراخ الدجاج أيضاً.

ابتعدنا عن بيشاور جنوباً نحو ستة إلى سبعة كيلومترات. لم أتفوه بكلمة واحدة خلال الرحلة، غير أنني عاينت وجه دليلي. كان شاباً، صغير السن؛ ومع أن بشرته كانت خشنة من الشمس، فإنها لم تكن بعد ممزقة بالتجاعيد العميقة التي كان قد سبق لي أن رأيتها لدى آخرين. كان ذا جبهة عريضة، وبدا أنفه أشبه بالأنوف الآسيوية، بدلاً من أن يكون طرياً مثل الأنوف الأفغانية الأنموذجية. ربما لما كان الرجل الآخر قد قاله لي في الصباح، أو لأسباب أخرى، لم أثق به تماماً.

كانت الطريق مدروزة بحواجز التفتيش الخاضعة للميليشيات القبلية المختلفة. كانت هذه رحلة خطرة؛ هؤلاء كانوا من الشيعة، وكنت أنا سنياً عربياً مسافراً برفقة سني أفغاني. سررت لأنني كنت ملتحياً، لأن ذلك كان يساعد على إخفاء ملامحي.

في أحد الحواجز أوقفنا أربعة رجال. كانوا جميعاً بملابس سوداء وحاملين بنادق كلاشنكوف. أمروا اثنين من الباكستانيين بالنزول من الشاحنة، وبدؤوا يجادلونهما عما كان في كيسيهما. أخيراً، أوقفوا الرجلين ونحن تابعنا الطريق دونهما.

في مكان قريب من بلدة تحمل اسم سَدّه، توقفت الشاحنة. أمرني الدليل بالنزول، ثم ركبنا بيك آب من طراز تويوتا سارتْ بنا في طريق أضيق، غير مبعدة. قطعنا عدداً من الكيلومترات. في إحدى المراحل أشار الدليل إلى الأمام وسأل: 'هل ترى تينك الشجرتين؟' كان يتكلم بالعربية. 'ثمة تلة خلفهما. تلك هي أفغانستان.'

بعد قليل وصلنا إلى الحدود، وإن لم أدرك بداية أنها كانت حدوداً لعدم وجود أي إشارة أو مبنى ينبئ بذلك. ثمة كان باكستانيان بملابس عسكرية واقفان في ظل شجرة.

أمرني دليلي بأن أعطيه حوائجي والمشي مباشرة عبر الحدود دون توقف. وإذا سألني أحد أي سؤال فإن علي أن أبقى ماشياً دون رد وكان هو سيأتي بعدي ليتحدث مع الموظفين. أما أنا فكنت ممنوعاً من الكلام مع أي كان.

حين وصلت إلى الحراس وجدتهم يفتشون أناساً آخرين عابرين في الاتجاهين. نظرت إلى المسافرين الآخرين ولاحظت أن ملابسهم كانت مهترئة ومجللة بالغبار. عندئذ أدركت سبب قيام صاحب البيت بتجريدي من السروال والقميص الجديدين؛ ولولا ذلك لبرزت مثل نار على علم.

معظم العابرين للحدود كانوا يحملون طروداً وأكياساً كبيرة. كان من الواضح أن الحراس لم يكونوا مهتمين بما في هذه الطرود والأكياس، بل بمقدار المبلغ الذي كانوا يستطيعون الحصول عليه ابتزازاً جراء السماح لهؤلاء الناس بالمرور. كانت أيديهم دائمة الحركة المكوكية إلى جيوبهم ومنها. كانوا أكثر انشغالاً من أن يلاحظوا مروري مشياً دون حوائج.

ثمة كانت أعداد من سيارات التكسي ـ الشاحنات والعربات رباعية الدفع ـ واقفة في الجانب الأفغاني من الحدود. استقل الدليل إحداها وتبعته. توغلنا

أعمق في أفغانستان، على طرق ضيقة متعرجة كالأفاعي عبر التلال الجرداء. كان الظُّهر قد حل، وكانت الشمس حارقة. كانت أشعة الشمس تنعكس مثل ألسنة اللهب عن صفحات الصخور السوداء لجبال أفغانستان.

بعد مسيرة نحو أربعين دقيقة مررنا بمقبرة. أعمدة طويلة، بعضها بطول ستة أمتار، كانت الأعمدة منتصبة بجانب عدد من القبور. كان كل منها مزيناً بقطعة قماش لماعة بألوان الأحمر، الأبيض أو الأخضر. هذه كانت أضرحة المجاهدين. تذكرتها من جميع الأفلام التي كنت قد شاهدتها.

رأينا عدداً كبيراً من هذه المقابر على الطريق. ومع اقترابنا من أحدها، لاحظت جماعة من خمسة رجال ذوي عمامات بيضاء. كانوا واقفين بجانب سيارة بيك آب في داخلها مدفع كبير من المدافع المضادة للطائرات. ثمة كان على سطح الشاحنة دولاب تتدلى منه مئات الأشرطة السوداء المتألقة وهي ترفرف مع النسمات الخفيفة. أدركت مباشرة أن هذه لم تكن سوى أشرطة فيديو. كانوا من الطالبان.

اصطف الرجال في الطريق وأجبروا السائق على التوقف. ولدى اقتراب أحدهم من السيارة، صُعقْتُ حين رأيت مدى صغر سنه؛ لم يكن فوق السادسة عشرة من العمر. كان يحمل رشاش كلاشنكوف بيد وعصا بالأخرى. مد رأسه إلى داخل السيارة ووخز آلة التسجيل بالعصا، ثم راح يتكلم مع السائق. انحنى السائق إلى الأمام، سحب كاسيتاً من الجيب، ودسه في آلة التسجيل. بدأت الآلة تدور؛ كان الشريط تلاوة للقرآن. ابتسم الطالب الحدَث ولَوَّح سامحاً لنا بمتابعة السير.

مع مواصلتنا السير بدأت الأرض تتغير. صارت الطريق أقل غباراً، وبتنا نرى وفرة أغزر من النباتات. وبعد قليل شاهدت قرية أمامنا، ونهراً. ثمة كان أطفال يلعبون في الطريق، وبنات يغسلن في النهر.

بإيعاز من الدليل أوقف السائق السيارة وسمح لنا بالنزول. ومن هنا، تابعنا الطريق، الدليل وأنا، سيراً على الأقدام عبر القرية وبدأنا نتسلق التلال. ومع متابعتنا للسير، زاد الدليل من سرعته على نحوٍ مطرد. بعد قليل أصبحتُ عملياً في حالة عدو. كنت أعرف أنني ملزم بعدم التكلم معه، فلم أستطع مطالبته بالإبطاء. بعد نحو كيلومترين، كنت أعاني كثيراً في الحقيقة وبدأت أتساءل عما إذا كان يحاول الهرب مني عمداً. لم أكن متأكداً قط من قدرتي على الثقة به.

بعد مدة صار بعيداً عني حتى بتُّ غير قادر على رؤيته. كنت وحيداً بين الصخور السوداء. بدأت أتساءل: أمن الممكن أن يعرف أنني جاسوس؟ أن تكون الأيام القليلة الأخيرة مكيدة مُحْكَمة لقَتْلي؟ تذكرت الفلم الذي رأيته في مركز بومبيدو حيث قام المجاهدون بنصب كمين لرتل سوفيتي، وتساءلت عما إذا كان يتعين عليَّ أن استمر في اتباع هذا الرجل. لم أكن أعرف شيئاً عنه، أو عن المكان الذي كان يأخذني إليه. للحظات فكرت بالدوران إلى الوراء، ثم طَرَدْتُ الفكرة من رأسي. كنت هنا لسبب محدد. كان لابد من المثابرة مهما حصل.

كنت أتصبب عرقاً جراء المشي بهذه السرعة في الجو اللاهب، وكانت ساقاي مرهقتين. توقفت لخفض رأسي وأخذ بعض النفس للتعافي. حين رفعت رأسي، رأيت الدليل واقفاً على صخرة أمامي. ناداني: 'عجِّلْ وإلا فاتتنا وجبة الغداء.'

منذ تلك النقطة تابعنا سوية. انحدرنا عائدين في قلب أحد الأودية. كان المكان أشبه بواحة بين حشد من التلال السوداء. كان كل شيء أخضر ونديا، واستطعت أن أرى بريق الماء في الأفق البعيد.

فجأة، دويٌّ قوي، بام. بام بام لم أدرك سبب الدوي مباشرة. بعد قليل، أصوات أخرى. بوم. بوم. تات ـ تات ـ تات ـ تات.

عندئذ أدركت ما كان يجري: رشاشات، مدافع، تفجيرات، قذائف مورتار. كشّر الدليل قائلاً: 'ها قد وصلنا يا أخ. هذا معسكر خالدان.' تلك كانت المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة خالدان.

تبعت الدليل انحداراً على سفح التلة إلى قاع الوادي حيث استطعت أن أرى بعض المباني المعششة في ممر ضيق بين جبلين عاليين. ثمة نهر كان ينحدر من الجبال ويتدفق على الوادي ويعبر المعسكر. إلى يميني كانت هناك فسحة واسعة، مستوية. وفي مكان مرتفع بعيداً إلى اليسار ثمة كانت بقايا نوع من أنواع برج المراقبة.

توقفنا أمام المبنى الأول. التفتَ الدليلُ إليّ ونظر إلى عيني مباشرة وأمرني وهو يشير إلى قدمي: 'ابق واقفاً هنا.' أرادني أن أتسمَّر في المكان ذاته. ثم ركض مع الممر واختفى خلف المبنى.

بقيت واقفاً مدة بدت ساعة كاملة. كانت الشمس تحرق وكان العرق يقطر في عيني مختلطاً بأشعة الشمس المزيغة. تمنيت أن تكون نظاراتي الشمسية، الراي - بان، معي. كنت أشعر بالضعف والدوار جراء المشي؛ لم أكن قد تناولت أي طعام كل النهار. فجأة بدا كل شيء سوريالياً، مهدِّداً. كانت الشمس عديمة الرحمة قد جردت السماء من كل لون، وبدت الصخور السوداء عناصر تهديد على الخلفية السديمية البيضاء.

لم تكن لدي أي فكرة عما كان سيحصل بعد قليل. دليل لم أكن أثق به كان قد تركني واقفاً هنا وحدي. لم أكن قد رأيت أي شخص آخر على امتداد عدد من الكيلومترات. ما الذي كان القدر يخبئه لي هنا. كنت قد بالغت في المخاطرة بحياتي. لم يكونوا ليجدوا أي صعوبة في اكتشاف حقيقة كوني جاسوساً. غير أنني عدت لأحاكم بنفسي قائلاً لو كانوا يريدون قتلي، لاستطاعوا أن يفعلوا ذلك في بيشاور، أو حتى قبل ذلك. كان أبو أنس قادراً على قتلي في لاهور.

لعلعة الرصاص اختطفَتْني من أحلامي اليقْظى. تات ـ تات ـ تات ـ تات. من هذه البقعة في قلب الوادي السحيق استطعت أن أسمع أصداء الطلقات وهي تتردد بين الجبال. كل انفجار كان يتضاعف في الجو مع صداه الخاص. بانغ. بانغ. بانغ.

كنت قادراً على الإحساس بالتفجيرات في جسدي. بدأت أعيش الرعشة الأولية ذاتها التي أحسست بها حين أطلقت النار من البنادق مع إدوار للمرة الأولى. أدركت أنني كنت قد حلمت بهذه اللحظة لسنوات. كنت بين جبال أفغانستان وكان هناك إطلاق نار من حولي في جميع الجهات. تات ـ تات ـ تات ـ تات.

طردت من رأسي جميع الأفكار السوداء، إذ أيقنت أنني كنت قد بلغت هدفي. كنت جاهزاً للشروع في جهادي.

خالدان

في الحقيقة لم يكن وقوفي هناك قد امتد لأكثر من خمس دقائق حين جاء إليّ رجل وهو يعدو. كان صغير السن، في أوائل ثلاثينياته. كان يحمل رشاش اقتحام بيده اليمنى؛ بدا الرشاش كلاشنكوفاً، وإن أكثر لملمة. جسمه كان مشدوداً على نحو لا يصدق، قوياً. كان يتحرك مثل القطط، بهدوء ولكن بقدرٍ هائل من الدقة.

كنت بالغ التأثر بحضوره الجسدي الاستثنائي إلى درجة أنني لم أنتبه، حتى بات واقفاً أمامي، إلى أنه كان قصير القامة، ربما 165 سنتيمتراً، لا أكثر. قَدَّرْتُ أنه كان فلسطينياً. فوجوه الرجال الفلسطينيين تشترك في شيء معين، في نوع من الشحوب الذي يعكس نوعاً من التسليم بالضياع من جهة، وشيئاً من الالتزام بالقَدَر من جهةٍ ثانية. كنت قد رأيت ذلك الشحوب على شاشات التلفزيون مئات المرات.

وقف الرجل أمامي وقال: 'السلام عليكم!'

'عليكم السلام.'

ثم أخذ كيسي من يدي ورماه على الأرض. في حركة واحدة بالغة السرعة فتَّشَ جسدي كله بلمسة يده الخفيفة. حركاته كانت دقيقة، موزونة. العملية كلها لم تستغرق أكثر من ثانيتين.

تحت بدلة السروال والقميص اكتشف حزامي الذي كان يحتوي على جواز سفري وأموالي. أخذ الحزام مني وسأل: 'معك أي شيء آخر؟'

قلت لا؛ عَدَّ النقود أمامي. قال لي إنه كان سيعطيني لاحقاً ورقة أوقعها بشأن حوائجي. ثم وضع يده على ساعدي وسأل: 'ما اسمك يا أخ؟'

قلت: 'عمر الناصري.'

فوجئ، تراجع خطوة. عاود السؤال: 'أهو اسمك الحقيقي؟'

شعرت بالدم يصعد إلى وجهي؛ خجلت من نفسي. كنت قد أجبت غريزياً؛ لم أكن بعد قد تآلفت مع اسمي الجديد، وهذا الرجل العجيب كان قد أربكني. سارعت إلى تصحيح خطئي ورحت أتمتم: 'اسمي أبو بكر.'

ابتسم وقال: 'ذلك الاسم أخذه أخ آخر؛ سيتعين عليك أن تختار غيره.'

فكرت لثانية ثم سألت: 'ما رأيك باسم أبو إمام؟'

قال: 'موافق، ذلك رائع.' ثم اقتادني إلى داخل المجمَّع، بعد سلسلة من المباني. وأنا أتبعه، لاحظت ثانية كم كانت خطواته، حركاته محكمة وموزونة. كل ذرة من ذرات جسده بدت مفعَّلة. كان جسده مشدوداً مئة بالمئة، مثل أسد يتهيأ للانقضاض.

قادني إلى داخل مركز المجمع، إلى مبنى شيد من الطوب ذي سقف معدني. شرح أن هذا كان هو المسجد، وأن عليّ أن أجلس هناك وانتظر قدوم الآخرين. قبل رحيله انحنى عليّ وتكلم بصوت كان هادئاً ولكنه حاد محذِّراً إياي: 'يجب أن تتذكر دائماً أنك هنا لأداء فريضة الجهاد. لست هنا للتحدث مع الآخرين. نحن لا نطرح أسئلة على إخواننا. لا نميط اللثام عن أي شيء حول أنفسنا. يجب أن تبقى متركزاً على رسالتك الجهادية.'

أومأت موافقاً، وتابع يقول: 'كذلك يجب ألا تتكلم مطلقاً مع أي أفغاني. مع الأدلاّء، الحراس، الطباخين. ولا كلمة واحدة.'

أومأت ثانية لأبين له أنني فهمت. ثم دار واختفى بالسرعة التي كان قد ظهر بها، وقدماه تلامسان الأرض برفق مثل أقدام راقصي الباليه.

جلست وحدي في المسجد وتركت الجو المظلم الندي يغمرني. شعرت أن جسدي ارتاح قليلاً. عيناي لم تعودا تدمعان من الشمس الحارقة. تواصلت أصداء الانفجارات وأصوات إطلاق النار مترددة في الجبال، غير أنني كنت قد بدأت التآلف معها.

بعد دقائق قليلة، هدأ كل شيء فجأة. ساد المسجد صمت كامل: لا طيور تصدح، لا قنابل تنفجر، لا شيء. كنت قادراً على سماع صوت تنفسي ونبض قلبي اللذين كانا قد بدءا يتباطآن بعد كل هذا الفيض من الرياضة والقلق.

فجأة فُتح الباب صَفْعاً بجلبة صاخبة. خمسة رجال عمالقة تسللوا إلى المسجد. جميعاً كانوا في العشرينيات، من ذوي البشرة البيضاء والعيون الشهلاء. كان مع كل منهم رشاش كلاشنكوف عُلق على صدره، وحزام مثقل بالقنابل اليدوية والذخائر. كانت عيون الجميع مطوقة بالدوائر نفسها التي كنت قد رأيتها لدى أمين وياسين.

حين رآني الرجال جالساً هناك، ابتسموا واقتربوا مني. استطعت أن أفهم من لهجتهم أنهم كانوا من الشيشان، فتحدثت معهم بالإنجليزية. قدموا أنفسهم بالأسماء التي كانوا قد اعتمدوها: أبو أنس، أبو عمر، وأبو... تبادلنا التحية بالطريقة الأنموذجية، طريقة ملامسة الكتف بالكتف. استطعت أن أحس بالقوة الوحشية الكامنة في أجسادهم.

كان الوقت وقت صلاة الظهر، وما لبث المسجد أن بدأ يزدحم. استطعت أن أدرك من وجوههم أن هؤلاء الرجال كانوا من سائر أنحاء العالم: من شمال أفريقيا، من الشرق الأوسط، من آسيا الوسطى.

وفيما كانت الصلاة موشكة على البدء، تذكرت أنني لم أكن متوضئاً. درت إلى من كان بجانبي وسألته عن الحمام. أمسك بذراعي برفق ورافقني إلى خارج المسجد وعبر فضاء مكشوف نزولاً إلى ضفة النهر. ثم أشار إلى مجموعة من الأكشاك بين حشد من الصخور الكبيرة. طلب مني أن آخذ سطل ماء من النهر وأتوضأ هناك. غَمَسْت يدي في الماء. مع أن الشمس كانت حارقة، فإن الماء كان بارداً كالثلج. أدركت أن الماء آتٍ مباشرةً من الثلوج المتراكمة على الجبال.

بعد انتهائي من وضوئي، عدت إلى المسجد لإقامة الصلاة. لاحظت أن أولئك الذين كانوا متنكبين الكلاشنكوفات كانوا قد وضعوا أسلحتهم على الأرض بين أرجلهم في أثناء الصلاة. وما إن انتهينا حتى وقف الرجل الذي استقبلني عند وصولي إلى المعسكر ليقدمني إلى الجماعة وقال: 'هذا أبو إمام. إنه أخوكم. التحق اليوم بجهادنا.'

ابتسمت لجميع الرجال الذين رحّبوا بي في المسجد وهتفوا: 'ما شاء الله! ما شاء الله! ما شاء الله!'

غادرنا المسجد ومشينا باتجاه المقصف الذي كان في المبنى الأول الذي كنت قد رأيته عند مدخل المعسكر. كان المبنى حجرياً إلا أن السقف كان من أغصان

الأشجار اليابسة التي بدت أشبه بسعف النخيل. كنت قد رأيت هذه الشجيرات على الطريق إلى المعسكر. من الداخل كان السقف مبطناً بصفحات النايلون لاتقاء المطر.

جلسنا جميعاً على الأرض وتناولنا نوعاً من الشوربة المصنوعة من الفاصولياء. كان الطعام مقزِّزاً، غير أن الجوع كان قد هدني فأكلت مهما كان. وحين انتهينا من وجبتنا، جاءني رجل آخر وطلب مني أن أتبعه. ناولني كيس نوم رقيقاً وعدداً من البطانيات، ثم قادني عبر المعسكر إلى مجموعة من المباني الصغيرة واقتادني إلى داخل أحدها. أبلغني بأن هذا كان مكان نومي. نظرت حولي ورأيت أن عدداً من الأشخاص كانوا يقيمون هنا أيضاً. حوائجهم كانت مضبوبة بعناية ومركونة إلى جدران الغرفة. لم تكن ثمة أي أرضية ممهدة، فقط الأرض القاسية للجبال الأفغانية.

مساء بعد العشاء، توزعنا على مجموعات صغيرة للتدرب على التجويد، تلاوة القرآن. كنا مقَسَّمين إلى مجموعات وفقاً لمستوى معرفتنا الروحية. جماعتي كانت تضم خمسة من الشيشان وجزائرياً. جميعاً كنا مبتدئين.

شرح لي أحد المتدربين أن الرجل الذي كان قد قَدَّمني في المسجد كان أمير المعسكر، أبا بكر. ضحكتُ بيني وبين نفسي متذكراً أنني كنت، عن غير قصد، قد اخترت اسمه في بيشاور. ثم أفادني الرجل بأن أبا بكر كان الأمير الوحيد في غياب ابن الشيخ، الذي كان سيتولى الأمارة لدى عودته.

بعد انتهائنا من دروسنا، تجمعنا ثانية في الساحة الرئيسية أمام المسجد. لفت أبو بكر أنظارنا. أعطى أوامره للحراس الليليين، وزودنا بكلمة السر في تلك الليلة. ثم اختار أحد الإخوان ليتولى رفع الأذان فجر اليوم التالي.

ثم قام أبو بكر باستعراض أحداث النهار. دون تسمية أحد على نحوٍ مباشر، امتدح إنجازات معينة وانتقد إخفاقات محددة لبعض الإخوان. أحدهم كان في

الحمام حين خرج فريقه إلى التدريب. قام أبو بكر بتذكير الجميع بأن هذا إهمال وسلوك غير قويم بالنسبة إلى أي مجاهد. ما من مجاهد إلا ويبقى مهتماً بسائر إخوانه. إنها مسألة حياة أو موت.

بعد أن أنهى أبو بكر كلامه، توجهتُ إلى المهجع ووضعت حوائجي على الأرض الباردة. كانت درجات الحرارة قد انخفضت انخفاضاً كبيراً لدى غروب الشمس، وراح البرد يخترق ملابسي إلى جسدي. لم أشعر بالدفء إلا بعد بضع دقائق تحت كيس النوم والبطانيات.

ما لبثت نبضات قلبي أن تباطأت. ارتخى جسدي، وبدأت أفكر بكل شيء كان قد حدث. كنت قد استيقظت في بلد آخر ذلك الصباح. كنت في استانبول قبل أقل من شهر. والآن كنت هنا، في معسكر للتدريب مع المجاهدين. كل شيء بدا غريباً ولكنه مألوف كلياً في الوقت نفسه. كان هذا ما كنت قد توقعته تماماً وحلمت به وتطلعت إلى ممارسته بعد مشاهدة كل تلك الأفلام، بعد القراءة عن الحرب ضد الروس، بعد الاستماع إلى كلام كل من أمين وياسين. رحت أفكر بدوي القصف الذي كنت قد سمعته ورشاشات الكلاشنكوف التي كان الإخوان يحملونها، وأيقنت أنني كنت سأجد كثيراً من المتعة هنا.

كنت منفعلاً وتواقاً لطلوع الفجر. غير أنني، في اللحظات الأخيرة قبل الاستغراق في النوم، أجبرت نفسي على تأمل مهمتي. تلك الليلة، وسائر الليالي التي أعقبتْها في العام التالي، بقيت حريصاً على تذكير نفسي بحقيقة أنني كنت جاسوساً.

أبو همام

لم أنم كثيراً تلك الليلة. فبعد ما بدا نحو ساعة أو اثنتين فقط، أيقظتني أصوات تقلبات الآخرين في الظلمة. حين فتحت عيني، وجدت الظلام دامساً لا

يزال. وفيما كنت أحاول التركيز أدركت أن وقت الصلاة الأولى كان يجب أن يكون قد حان. كان الوقت صيفاً، وأشرقت الشمس في ساعة مبكرة جداً.

توضّأنا وتوجهنا إلى الجامع للصلاة مع الآخرين. كان البرد لا يزال شديداً. بعد الانتهاء من الصلاة، احتشد الجميع في الساحة أمام المسجد. قَسَّمَنا أبو بكر إلى ثلاث مفارز وعين لكل منها مدرباً مختلفاً.

ثم ركضنا جميعاً إلى أمام المعسكر، حيث كانت فسحة منبسطة واسعة. كانت الشمس قد بدأت تتاغي قمم الجبال وكان جسدي لا يزال متجمداً من برد الليلة الماضية. قمنا بعدد من الحركات والتمرينات الجماعية تحمية لعضلاتنا. لاحظت أن جميع الآخرين كانوا ذوي لياقة بدنية استثنائية، وبدأت أشعر بالقلق. منذ سنوات وأنا بعيد عن جميع أنواع الرياضة وألوانها.

ذلك الصباح تم إلحاقي بمفرزة يقودها مدرِّب اسمه أبو همام. كان هذا أريتيرياً، وبشرته أكثر سواداً بما لا يقاس من بشرة الآخرين. حركاته كانت رشيقة، ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة أبي بكر.

لم يتوفر لي وقت كافٍ لدراسة أبي همام قبل بدء تمارينا. دون أن ينبس ببنت شفة، بدأ الجري باتجاه أحد الجبال العالية خلف المعسكر، وحَذَوْنا حَذْوَه. ما لبثنا أن وصلنا إلى سفح الجبل ورحنا نعدو صعوداً.

في البدء بدت الحركة منشطة. شعرت بالدفء في جسدي، متغلباً على الصقيع الذي كان في الليلة السابقة. غير أنني بدأت، بعد نحو مئة متر، أحس بوخزة في عضلات الفخذ الرباعية. كان الآخرون قد سبقوني كثيراً؛ كنت الأخير في الرتل. ثمة كان رجل واحد على الدرجة نفسها تقريباً من البطء، غير أنه كان بديناً تماماً ويرتدي سترة واقية من الرصاص لابد أنها كانت تزن عشرين كيلوغراماً أو أكثر. لم يكن أحد مرتدياً سترة واقية؛ افترضت أنه طُلب من هذا

أن يفعل ما فعله لتخفيف الوزن. على مسافة غير بعيدة منا كان ثمة سعوديان. من الواضح أنهما كانا أكبر سناً بكثير من الآخرين، في الدرجات العليا من أربعينياتهما. كان قلبي ينبض بقوة إلى درجة أنني كنت قادراً على سماعه. واضح أن تدريبي لم يبدأ بداية موفقة.

بعد نحو خمس عشرة دقيقة، اختفى باقي أفراد المفرزة، بمن فيهم الرجل البدين والسعوديان متوسطا العمر، خلف إحدى التلال. وحين وصلت إلى هناك متأخراً بضع دقائق، رأيت الجميع واقفين معاً في مكان أعلى بمئات الأمتار على سفح الجبل. كان أبو همام عاكفاً على إصدار التعليمات فيما كان الآخرون يمطون أجسادهم.

كنت شديد الفرح من احتمال الحصول على قسط من الراحة وهرعت بأقصى ما استطعت من سرعة. غير أنني كنت شديد التخلف فاستغرق وصولي إلى حيث كان الآخرون عدداً غير قليل من الدقائق. وفيما كنت موشكاً على الوصول، سمعت أبا همام يهتف بأعلى صوته: 'تكبير!'

ردد الآخرون مثل جوقة: تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر!'

تماماً فيما كانت الأصداء تتراجع، وصلت إلى حيث كانت المفرزة. أخيراً توقفت عن الجري، غير أن قلبي كان لا يزال يخفق وساقاي بدتا مشلولتين تحتي. انحنيت لأستعيد أنفاسي، وما إن رفعت رأسي حتى رأيت أبا همام واقفاً أمامي مباشرةً. قال:

'ما شاء الله! يا أبا إمام!'

حاولت أن أرد، إلا أنني لم أكن قد استعدتُ نَفَسي. لم يخرج أي صوت من فمي. إلا أن ذلك لم يكن مهماً؛ كان قد دار. سرعان ما بدأ يجري من جديد وجميع الآخرين يتبعونه.

هبط قلبي. لم أعرف ما إذا كنت قادراً على المتابعة؛ خارت قواي. كل ما كنت قد تناولته من طعام هو ذلك الحساء المرعب غداء وعشاء، وما من أحد منا كان قد تناول أي فطور ذلك الصباح قبل الشروع في التمارين الرياضية.

بقيت واقفاً لثوانٍ ثمينة أخيرة قليلة، لأستأنف الجري بعدها. في دقيقة واحدة وجدتُني متخلفاً كثيراً عن الآخرين. كانت الشمس قد ارتفعت، وباتت تسخِّن ظهري. ما لبثت الحرارة ومعها الإرهاق أن بدأت تسبب لي الدوار.

بعد نحو نصف ساعة، درت حول إحدى الزوايا ورأيت أن المفرزة كانت متوقفة مرة أخرى. دعوت الله ملتمساً بقاءها ما يكفي من الوقت كي أتمكن من أخذ قسط من الراحة، ولكن أبا همام سارع، لحظة وصولي، إلى الدوران والانطلاق من جديد.

ناديت: 'يا أبا همام!' استدار ونظر إلي نظرة مزاح. بقبقت الكلام محاولاً لم أنفاسي قائلاً: 'يا أبا همام. أنا هنا من البارحة فقط. ليتنا نرتاح هنا ولو لبضع دقائق قليلة إضافية كي أنال قسطاً من الراحة!'

نشر على وجهه ابتسامة عريضة، مبرزاً أسنانه البيضاء الناصعة على خلفية بشرته الداكنة وقال: 'يا أبا إمام، في المعركة لا يمكن لشخص واحد أن يعرقل الجماعة.' كان صوته ناعماً، جذلاً.

رَجَوْتُه أن يسمعني ورحت أقول: 'قبل أن يصبح أي مجاهد قادراً على القتال، لابد له من أن يتدرب. أنا هنا من يوم أمس فقط، والآن تريد أنت، على ما يبدو، أن تقتلني حتى قبل أن أغدو مجاهداً.' ابتسم أبو همام ثانية ثم ضحك ضحكة ناعمة. وبعد ذلك دار وبدأ يتسلق الجبل قفزاً.

واصل أبو همام الجري، واستمرت المفرزة تجري خلفه. ما من أحد بدا منهكاً، بمن فيهم حتى ذلك البدين صاحب السترة الواقية أو السعوديان كبيرا

السن. كانوا، بالطبع، يرتاحون بين الوقت والآخر. وكلما زاد تخلفي، كانت مدة استراحتهم تطول مع توقف أبي همام. ولأنني لم أكن أستطيع أن آخذ قسطاً من الراحة، كنت أغدو أبطأ فأبطأ. مع كل خطوة كنت أصلي داعياً الله أن يلهم أبا همام بالالتفاف والتوجه نزولاً، نحو طريق العودة إلى النهر والمعسكر. إلا أنه لم يفعل بالطبع.

دام جرينا نحو أربع ساعات ذلك الصباح. حين وصلت إلى المعسكر وجدتُني هالكاً من التعب. أما الآخرون فكانوا مصطفين أمام المقصف منتظرين وصولي. ما إن وصلت حتى بدأ أبو همام بقراءة التفقد منادياً كلاً من أعضاء الفريق بالاسم. وبعد إنجاز مهمة تفقدنا جميعاً، سُمح لنا أن نشرب ماء ونتناول فطورنا. لم يكن ثمة سوى كأس شاي وكسرة خبز، غير أنني أجهزت عليهما بسرعة.

وكما علمت في الأيام التالية، كان هذا يوماً عادياً في خالدان. كان الشيء نفسه سينتظرنا كل يوم. كنا سننهض من النوم قبل الفجر لنصلي، ثم نخرج مباشرة للقيام بالحركات السويدية في الساحة ثم ننطلق للتدريب في الجبال.

لم أكن أجري باستمرار في جماعة أبي همام؛ كان لدينا مدربون مختلفون في أوقات مختلفة. لم يكن الجري نفسه على الدوام؛ أحياناً كنا نقوم بأشياء أخرى: نقفز، نزحف، نسبح في النهر المتجمد. كنا نصطحب الأسلحة، لا لمجرد زيادة الوزن ومضاعفة مستوى الصعوبة، بل ولنكون قادرين على إتقان فن نقل المعدات والمواد إلى الجبهة. ذات يوم حملنا عدداً من الصواريخ وتسلقنا بها الجبال. بعضها كان كبيراً، أطول من متر. كانت هذه لنسخة أصغر من نسخ الكاتيوشا، أو عضو ستالين التناسلي، راجمة الصواريخ المتعددة التي كان السوفييت قد استحدثوها في الحرب العالمية الثانية. ذلك اليوم لم يكن أحد يعدو. كان يكفي أن نصمد تحت وطأة الصواريخ العملاقة.

كثيراً ما كنا نجري حفاة. ليس في الصيف فقط؛ كنا نركض حفاة حتى فوق الصقيع أواخر الخريف. كان الأمر مرعباً في البداية؛ كانت الصخور مدببة وحادة وممزقة، وكنت أعود إلى المعسكر وقدماي غارقتان في الدم. مع الزمن كان أبو همام سيعلمني فن المشي فوق الصخور، فن قياسها بنظراتي لأحدد المكان الذي أضع فيه قدمي. علمني كيف أشكل قدمي وأُقَوْلبها وفقاً لشكل كل صخرة كي أتمكن من الانسياب على الأرض دون أن أحس بشيء. تلك هي الطريقة التي تعلمت بها كيف أمشي مثل أمين وياسين.

كان أبو همام يجري على نحوٍ مغاير. لم يكن جسمه مشدوداً مئة بالمئة ثمل جسم أبي بكر، وبقيتْ حركاته أقل دقة وإحكاماً. كان ثمة ملمح ملكي في حركته، ولكن مع ارتخاء في الوقت نفسه. لم يكن قط يبدو ناظراً إلى الصخور أمامه. مرة فكرت بالأمر، إذ وجدت ارتياحه إلى هذه الطبيعة بطريقةٍ مختلفة عن الآخرين منطوياً، بنظري، على معانٍ كثيرة. كان قد نشأ وترعرع وهو يقاتل في جبال الوادي الانهدامي في حرب العصابات ضد الحكم الأثيوبي.

أبو سهيل

كنت وحدي في المعسكر، وهو أمر غير مألوف. جُل الآخرين كانوا يأتون ويذهبون في مجموعات مؤلفة من ثلاثة أو أكثر: الشيشان، الطاجيك، الكشميريون، السعوديون، الجزائريون، وإلخ. هذه المجموعات كانت تتدرب سوية. أما أنا فلم يكن معي أحد لأتدرب معه، ولذا فإن أبا همام طلب مني بعد طعام الفطور صباح اليوم الأول أن أنضم إلى مجموعة أبي سهيل. وأبو سهيل هذا كان سلفاً مشغولاً بتدريب فريق من الشبان الشيشان الذين كانوا قد وصلوا قبل عدد من الأسابيع.

كان أبو سهيل من اليمن. شاب في أوائل العشرينيات من العمر. ناحل جداً، بشرته فاتحة. هادئ ورابط الجأش.

غرفة صفنا الدراسي كانت مبنى صغيراً على مسافة بضع مئات من الأمتار بعكس اتجاه النهر من المقصف. كنا نجلس فيما يقوم أبو سهيل بالشرح على السبورة. في اليوم الأول، بدأ بتعليم الشيشان شيئاً عن صواريخ الأرض - جو. كان يرشدهم إلى طريقة إجراء الحسابات الضرورية للتسديد الصائب. كنت أبقى متفرجاً، غير أنني كنت ألتحق بالحصة الدرسية في منتصفها ولا أفهم معظم ما يقال.

كنا نقْطَع الدرس للعودة إلى الجامع لأداء صلاة العصر. وبعد العودة إلى الصف، كان أبو سهيل يترك الشيشان يدرسون وحدهم، ويكرس الجزء الباقي من بعد الظهر لتعليمي عن الأسلحة الفردية. غير أنني حرصت في ذلك اليوم الأول على عدم لمس أي سلاح، لأن الأشياء التي يجب تعلمها كانت كثيرة. في ذلك اليوم، كما في الأيام كلها، كان الدرس تفصيلياً على نحوٍ يتعذر تصديقه. بالنسبة إلى كل سلاح، كل رشاش، كان أبو سهيل يصر على تلقيني اسم القطعة وشرح نوعية الذخيرة المطلوبة. ثم كنت أتعلم إجراءات أمان كل بندقية. كان أيضاً يتعين علي أن أحفظ عن ظهر قلب عنوان الجهة المصنعة بل وحتى اسم المخترع: ماركوف، كلاشنكوف. تعلمت مميزات كل مسدس أو رشاش: حجم بيت النار، الوزن والطول، طاقة السبطانة، المدى. أنسب الحالات التي يتم استخدام السلاح فيها: الاغتيالات، حرب المدن، وإلخ....، أسلوب حساب مسار الطلقات المقذوفة، طريقة الفك والتركيب، كيفية المسح والتنظيف.

تعين علي أن أتعلم كل هذه الأشياء قبل أن أمد يدي على الرشاش. كنت نافد الصبر. كلما تعلّمت عن سلاح جديد، كنت أريد أن أحمله بيدي مباشرة.

كنت سريع التعلُّم. جزئياً لأن أبا سهيل كان يُمضي وقتاً طويلاً في العمل معي وحدي، لأن الشيشان كانوا متقدمين كثيراً عليّ. وجزئياً لأنني كنت، سلفاً، أعرف الكثير من الوقت الذي عشته مع إدوار.

خلال ذلك الشهر، كنت سأتعلم فنون استخدام سلسلة طويلة ومتنوعة من الأسلحة. عَرّفني أبو سهيل بمسدسات ورشاشات لم يكن قد سبق لي أن رأيتها من قبل. كانت تلك، بأكثريتها، أسلحة ألمانية وروسية من مخلفات الحرب العالمية الثانية. في الأسابيع الأولى، تدربت على ماركوف بي ام، مسدس سوفيتي نصف آلي اختُرع في الأربعينيات من القرن الماضي؛ التوكاريف تي تي، مسدس نصف آلي استخدمه السوفييت في الحرب العالمية الثانية؛ الوالتر بي بي كي، مسدس ألماني كان يستخدمه اللوفتوافه (سلاح الجو) (كنت أعشق الوالتر بي بي كي، إذ كان المسدس الذي درج جيمس بوند على حمله)؛ السيغ ـ ساور، نسخة معدلة لمسدس كان الألمان قد اخترعوه خلال الحقبة النازية؛ واللوغار، وهو السلاح الذي صممته المصانع الألمانية للأسلحة والذخائر أوائل القرن العشرين. الاسم الحقيقي للسلاح هو مسدس بارابيلوم. وكلمة 'بارابيلوم' هذه مأخوذة من شعار الشركة اللاتيني: سي فيس باسم، بارا بيلوم Si vis pacem, para bellum (إذا أردت السلم فاستعد للحرب).

بعد أن تعلمت تلك الأمور، صار أبو سهيل يعلمني كيفية استخدام مدافع رشاشة أكبر. بداية تدربت على العوزي، الرشاش الذي كنت أمقته كثيراً. وهو رشاش خفيف صممه عوزييل غال في أعقاب حرب 1948 العربية ـ الإسرائيلية. بعد ذلك، تدربت على رشاشين حربيين سوفيتيين إضافيين: الديغتياريف دي بي، الذي هو رشاش خفيف من عشرينيات القرن العشرين، والآر بي دي الذي تم استحداثه بعد وقتٍ طويل. إنه رشاش يذخَّر بحزام ثنائي المنصب الموصول.

أخيراً علمني أبو سهيل عن الأسلحة الأسطورية التي اخترعها ميخائيل كلاشنكوف. أولاً بندقية كلاشنكوف ايه كي ـ 47 وهي بندقية اقتحام تعمل على الغاز. وقد حملتْ عامَ الاختراع اسماً لها. هذه هي البندقية التي قام السوفييت بتزويد الدول العميلة بها في طول العالم وعرضه؛ استخدمها الفييت كونغ كما

استخدمها الساندينيون في نيكاراغوا. في بعض أجزاء أفريقيا ثمة آباء يسمون أولادهم الذكور كلاش تكريماً للبندقية ومخترعها.

وبعد ذلك تعلمت أسلوب استخدام البي كي والبي كي ام. وهذان مدفعان آليان مئة بالمئة يتغذيا من حزام الذخيرة. كل منهما مجهز بقاعدة ثنائية القوائم ويمكن استخدامهما على الأرض أو من على ظهر وسائط النقل. أحببت البي كي ام حباً استثنائياً؛ إنه سلاح بالغ الدقة. كنت أستطيع التسديد على الهدف وإصابته على مسافة كيلومتر كامل.

أخيراً، انتقلنا إلى مدافع أكبر. كنت قد أصبحت بمستوى الشباب الشيشان، فصرنا نتلقى التدريب معاً. أولاً تدربنا على الدوشكات: الدي اش كي والدي اش كي ام 12.7. بدأنا بالأول وقضينا أياماً نتعلم عنه داخل غرفة الصف. إنه مدفع ثقيل جداً؛ لا يمكن نقله إلا على مقطورة. إنه المدفع الذي نصبه السوفييت على أبراج دباباتهم.

وحين حان وقت اختبار الدي اش كي ميدانياً، طلب أبو سهيل متطوعاً يتولى إطلاق الضربة الأولى. جميعنا رفعنا أيدينا ـ كنا، بلا استثناء تواقين لاختباره. وقع اختيار أبي سهيل على أحد الشباب الشيشان، أصغر أعضاء المفرزة سناً بما لا يقاس. كان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر؛ كان لا يزال بجسم صبي، ولد، لا رجل.

كمن الصبي خلف المدفع. كان المنصب الثلاثي بحجمه، وتعين عليه أن يمد ذراعه من فوق رأسه ليضع يده على الزناد. طلب منا أبو سهيل أن نتراجع جميعاً ولكن دون أن نسد آذاننا.

لم يكن أحد منا مهيأ لسماع الدوي حين انطلقت قذيفة الدوشكا. لم يكن الدوي شبيهاً بأي شي سمعته من قبل. قام الانفجار بشحن الوادي وراحت

الأصداء تتردد على الجوانب. جميعاً قفزنا إلى الخلف بضعة أمتار، بمقدار ما استطعنا الابتعاد عن المدفع الغول.

بعد أن خَفَّتْ الأصداء، رفعنا رؤوسنا. كان الصبي الشيشاني واقفاً في المكان نفسه تماماً الذي كان يقف فيه قبل الإطلاق. كان لا يزال رافعاً يده فوق رأسه وكان إصبعه لا يزال ملفوفاً حول الزناد. غير أنه كان يزعق بأعلى صوته. كان وجهه ملتوياً من الألم. لم يترك المدفع إلا بعد أن جاءه أبو سهيل وحرر إصبعه برفق من الزناد. وبعد ذلك لم يعد ثمة أي متطوعين.

بعد الدوشكات درسنا الآر بي جيات، قاذفات الصواريخ السوفيتية المضادة للدروع. تدربنا على الآر بي جي - 7، وهي نسخة مبكرة استُخدمت أولاً في ستينيات القرن الماضي، ومن ثم الآر بي جي - 18، وهي نسخة أخف، قصيرة المدى، كانت أسهل على الحمل لقابليتها للتفكيك. أخيراً، تعلمنا كيفية استخدام الآر بي جي - 22، التي هي النسخة المخترعة في الثمانينيات. إنها بالغة القوة إلى درجة أنها قادرة على اختراق متر من الإسمنت أو أربع مئة ميليمتر من التصفيح.

كنا متوفرين على جميع هذه الأسلحة في خالدان، وقادرين على التدرب على أي منها. غير أننا لم نكن نتعلم عن أسلحة المعسكر فقط؛ فأبو سهيل كان يطلعنا على مواصفات جميع أسلحة العدو أيضاً. ففي المعركة قد يترك العدو أسلحته وراءه بعد التعرض للهزيمة. أو كان من المحتمل أن نغير على أحد معسكرات العدو ونسطو على أسلحته. في أي من الأحوال، كنا بحاجةٍ لنتعلم عن جميع صنوف الأسلحة على الأرض.

كان أبو سهيل يعرض علينا صور مدافع - رشاشات من أمريكا مثل الام - 16 - ويعلما جميع الأشياء التي تعلمناها عن الأسلحة الأخرى، ولكن نظرياً فقط هذه

المرة. كذلك كان يطلعنا على المواصفات المميزة لأسلحة العدو؛ كيف أن الهاونات الأمريكية كانت، مثلاً، تقذف رشقات مختلفة عن نظيرتها الروسية التي كنا نستخدمها نحن.

لدى انتهائي من تعلّم كل ما كان متوفراً لمعرفة المرء حول مدفع أو رشاش معين، كان يُسمح لي باستخدامه في الرمي. كان ثمة حقل واسع أبعد، في الاتجاه المعاكس لتدفق النهر، من غرفة الصف، كنا نتدرب فيه في مواجهة سفح الجبل. ومع كل قطعة سلاح، كان يتعين علي أن أتعلم كيف أسدد غريزياً، دون أي رؤية. تعلمت كيف أشهق وأزفر في الوقت نفسه تماماً، لأن الزفير يكون ملازماً لأكثر حالات الجسم ثباتاً وأكثر حالات اليد دقة.

كنت مولعاً بالمسدسات اليدوية أكثر، بالماركوف والوالتر بي بي كي خصوصاً، لأنهما كانا الأصعب في الإطلاق. أكثر المسدسات لا يمكن إطلاقها إلا باليدين كلتيهما، غير أنني كنت أحب إطلاق النار من المسدسات بيد واحدة فقط، كما كان إدوار قد علمني. كنت مغرماً بتحدي نفسي.

كذلك كنت أحب الاختبارات التي كان أبو سهيل يجريها لي، لأنني كنت أنجح دائماً. حين علمني الكلاشنكوف حدد لي الوقت ليرى المدة التي تلزمني لفك الرشاش وتركيبه مغمض العينين. في المحاولة الأولى كان معظم المجندين يستغرقون نحو دقيقتين. أما أنا فكنت أنجز العملية في أقل من ستين ثانية. كنت أرى مدى إعجابه وهو يهتف: 'ما شاء الله! يا أبا إمام، ما شاء الله!'

أعتقد أن أبا سهيل أدرك من طريقة تعاملي مع الأسلحة أنني كنت على دراية سابقة بها. غير أنه لم يسألني قط عن أي شيء. تلك كانت القاعدة في المعسكر. لم نكن نتبادل الأسئلة.

خلال هذه الأسابيع أصبحت شديد التعلق بأبي سهيل. كان ماهراً وذكياً ومفيداً جداً. كان يدفعني بقوة، غير أنه تميز بلطف لم أكن قد رأيتُه لدى أي من

المدرِّبين الآخرين؛ وبنوعٍ من الحزن أيضاً. فهو لم يكن يمزح مثل الآخرين، أو يضاهيهم ضحكاً. كان هناك نوع من العزوف في وجهه، نوع مما يشبه الفراغ. أصبحت مقتنعاً بأنه كان قد مر بتجربةٍ مرعبة، بأنه كان يسعى، عبر رعايته لي وللآخرين، إلى التماثل للشفاء أيضاً. إطراؤه كان يعني الشيء الكثير بالنسبة إليَّ جزئياً لأنني كنت أعرف أن ذلك كان يعني الشيء الكثير بالنسبة إليه هو أيضاً.

كنت أعشق التدريب. كنت أعشق جُلَّ الأشياء ذات العلاقة بالتدريب. كنت أعشق الشعور المصاحب للإمساك بالسلاح، للارتداد بعد إطلاق النار. كنت أعشق الإحساس بإتقان كل سلاح، معرفته معرفة كلية. وكنت أعشق الجلبة المصاحبة لحفلات الرمي. يا لها من جلبة! مجموعات كثيرة مختلفة كانت تطلق النار في الوقت نفسه؛ مجموعات على سائر مستويات التأهيل المختلفة. ثمة كانت مسدسات ورشاشات اقتحام وهاونات متفجرة على سفح الجبل. بدا الأمر كما لو كان المرء في حضرة جوقة، وكنت أحياناً أرتعش وأحمد الله الذي أوصلني إلى هنا.

لم نكن مطالبين قط باقتصاد الذخيرة، وكان على الدوام ثمة شيء جديد للتدرب عليه. كانت الذخائر مخزَّنة في كهوف قريبة من المعسكر. ثمة كان ما مجموعه ثلاثة كهوف للأسلحة، وقد دخلت اثنين منها. من الخارج كانا، كلاهما، يبدوان صغيرين، بعرض متر واحد فقط. كان يتعين علي دخول الفتحة زحفاً. أما في الداخل فكان الكهفان كبيرين جداً.

لم يكن الكهف الأول يحتوي إلا على الذخائر: الآلاف المؤلفة من مختلف أنواع الطلقات وقذائف المورتار. كانت جميعاً مخزَّنة في صناديق خشبية مدسوسة في الجدار بالقرب من سقف الكهف. أعداد كبيرة من الصناديق كانت مختومة بأرقام وكلمات بالروسية. أما الكهف الثاني فلم يكن يشتمل إلا على الألغام، جميع أنواع الألغام دون استثناء. ومثل الذخائر كانت الألغام أيضاً مخزَّنة

في صناديق، استطعت أن أميِّز من الكتابات أنها آتية بأكثريتها من روسيا، إيطاليا، والباكستان. بدا المخزون لانهائياً.

أيضاً كان هناك كهف ثالث، وهو الأكبر في المعسكر. غير أنه لم يُسمح لي بدخوله قط؛ كان محظَّراً على أكثرنا. ولهذا السبب بالذات، كنت شديد الرغبة في معرفة ما بداخله. كان المدربون ومعهم عدد قليل من الإخوان الآخرين أيضاً مخولين بدخوله. على الدوام كنت ألح على هؤلاء طالباً منهم إطلاعي على ما كانوا قد رأوه، ولكنهم درجوا على الكلام همساً قائلين إنه لم يكن مسموحاً لهم أن يتكلموا عن ذلك.

أحد أولئك الذين كان مسموحاً لهم بالدخول كان أخ مغربي يدعى عبد الحق. رأيته يدخل الكهف عدداً من المرات وأنا هناك، غير انه لم يتكلم عن الأمر قط. لم أكن أعرف عبد الحق جيداً على الإطلاق. كان صغير السن، في عشرينياته، إلا أنه كان قد فقد جزءاً كبيراً من شعره. كان الأقصر بين الإخوان في المعسكر. لعل الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عنه هو أنه كان، مع أخته، يعيش في لندن.

الليل

بعد الانتهاء من التدريب على السلاح، كنا نؤدي صلاة المغرب ثم نجتمع في المقصف. على الدوام كنا نتناول الطعام معاً. كان ثمة أفغانيان تَوَلَّيا مهمة إعداد الطعام لنا؛ كانا يقيمان في مكان بجانب المقصف، قريباً من مدخل المعسكر وخلف كوخهما مباشرةً، عند أسفل الجبل، كان هناك كوخ صغير لخبز الخبز. أحد الأفغانيين كان أصم وأبكم، غير أن ذلك لم يكن مشكلة على الإطلاق لأننا كنا ممنوعين بحزم من التكلم مع الأفغان.

تمثلت المشكلة بكون الطعام سيئاً للغاية، والطبق نفسه كل يوم. على الدوام كنا جائعين؛ ما من أحد إلا ونقص وزنه كثيراً منذ مجيئه إلى خالدان. لوَجْبَتَيْ

الغداء والعشاء كنا باستمرار نتناول نوعاً من الشوربة المخلوطة المصنوعة من البقول. نادراً ما كنا نتناول اللحم، رغم وجود أعداد من فراخ الدجاج المتراكضة حول بيت الطباخين، وقيامها بين الحين والآخر بطبخ أحد الفراخ، وهو الأمر الذي كنا نكتشفه من الرائحة.

في وقتٍ مبكر، لاحظت أن الجميع كانوا يضيفون كميات كبيرة من الملح إلى طعامهم. بدايةً اعتقدت أن الأمر لم يكن إلا لإخفاء المذاق. إلا أنني ما لبثت أن أدركت لاحقاً أن أجسامنا كانت بحاجة ماسة إلى المعادن. ففي غياب اللحم لم نكن نحصل على المغذيات التي كنا بحاجةٍ إليها لدعم ما كانت هذه الأجسام تبذله من جهد، وتتعرض له من عناء. دأب المدربون، بالطبع، على تذكيرنا بأننا ما كنا لنكون متمتعين بترف تناول اللحم على أرض المعركة أيضاً.

كان هناك، دائماً، درس ديني بعد العشاء. لم يكف الأمير والمدربون عن تذكيرنا المطّرد بأن هذا كان العنصر الأكثر أهمية في عملية الارتقاء إلى مرتبة مجاهد. فقبل الشروع في القتال في سبيل الله، تعين علينا أن نفهم ونستوعب ما كان سبحانه قد دعانا إلى فعله.

في بعض الليالي كنا نمارس التجويد وفي ليالٍ أخرى كنا نعكف على دراسة القرآن والحديث، جملة الأقوال والأفعال المأثورة عن النبي محمد ﷺ. أحياناً كان المدربون يتولون تعليمنا. وأحياناً أخرى، كان مجندون آخرون، عرب بأكثريتهم، لأنهم عموماً أعلى مستوى تعليمياً، يقومون بتعليمنا.

تعلّمنا أشياء كثيرة خلال هذه الدروس المسائية المنتظمة، غير أن الجزء الأكبر مما تعلمناه كان ذا علاقة بقوانين الجهاد وشرائعه. ثمة ما يزيد على مئة وخمسين آية في القرآن عن الجهاد، إضافةً إلى مئات الإشارات في الأحاديث النبوية. كنت قد قرأت الكثير من التبريرات في الأنصار لبعض أشنع الممارسات

الحربية. غير أنني لم أبدأ بالاطلاع، شخصياً، على ما كان القرآن يقوله فعلاً عن الجهاد، إلا بعد أن جئت إلى خالدان.

ثمة، بطبيعة الحال، سلسلة طويلة من أنواع الجهاد المختلفة. ثمة الجهاد الداخلي الذي يمارسه كل مسلم حقيقي دائماً. ثمة جهاد المعرفة والبحث العلمي. ثمة الجهاد باللسان الذي يأخذ جميع صنوف الأشكال. قد يعني التبشير، الهداية، كما رأيت عند جماعة التبليغ. أو قد يعني الدعوة السياسية الصريحة، عبر إلقاء المواعظ أو عن طريق مظاهرات الاحتجاج، أو حتى من خلال الدعاية الخالصة كما كانت تفعل نشرة الأنصار. ثمة الجهاد الذي يخاض بالأفعال، مثل القيام برحلة الحج إلى مكة، أو حتى تقديم التبرعات النقدية لدعم أسمى آيات الجهاد الذي هو القتال في سبيل الله، وخوض الحرب المقدسة.

على نحوٍ شبه كلي كان كلامنا يبقى متركزاً على هذه الصيغة الأخيرة من الجهاد بالطبع. تعلمنا جميع قواعد الاشتباك. ينبغي تجنب القوة ما لم تكن ضرورية ضرورة مطلقة، وحتى في هذه الحالة يجب استخدامها بما يتناسب مع قوة العدو. أما حين تصبح القوة ضرورية، فإن أحداً لا يستطيع التهرب من واجبه. إذا ما تعرضت امرأة واحدة في الطرف الآخر من العالم للاغتصاب أو السبي، فإن على جميع المسلمين أن يتآزروا ويحتشدوا للقتال إلى أن يتم إنهاء الظلم. ذلك هو أمر الله.

وقبل القتال، يتعين على كل أخ أن يعد نفسه. أولاً وقبل كل شيء يجب أن يستعد روحياً. بالإيمان، يستطيع أي جيش أن يسحق عدواً متفوقاً عليه بعشرة أضعاف من حيث الحجم. "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" (البقرة: 249).

إن أنواعاً أخرى من الإعداد حيوية أيضاً. فأي مجاهد يجب أن يكون جاهزاً معنوياً وأخلاقياً؛ لابد له من التطهر من جميع الخطايا وإعداد نفسه للمثول بين

يدي الله نقياً. كذلك يجب أن يعد جسده ليكون على أعلى درجة ممكنة من القوة. ويتعين على كل أخ أن يتعلم كل شيء يستطيع تعلمه في مجالات العلوم والتكنولوجيا، حتى يكون تفوقه على العدو شاملاً وكلياً.

ولابد لأي مجاهد من أن يمتثل لجملة من القواعد الصارمة بعد دخوله ساحة المعركة. ذبح الأبرياء ممنوع. لا مجال للقتل دون تمييز، لقتل النساء والأطفال، للتمثيل بجثث العدو وتشويهها. لا مجال لهدم المدارس أو الكنائس أو شبكات الماء أو حتى مراعي المواشي. لا مجال لقتل كائن من كان وهو يصلي بصرف النظر عما إذا كانت الصلوات إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو غيرها.

تعلمت مدى أهمية القتال في سبيل قضايا عادلة. يتعين على أي مجاهد أن يقاتل في سبيل الله فقط، لا من أجل الكسب المادي، ولا لأغراض سياسية. إنه يقاتل والحق في صفه، ويقاتل خدمة لخلق الله. وكلما زاد إيمانه بالله عمقاً، تضاعفت قدرته على تكريم صنع الله وتشريفه.

إن المؤمنين الصادقين هم أولئك الذين اشترى الله أرواحهم مقابل وعد الفردوس. 'يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دُبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.' (الأنفال: 14 و15).

فوجئت بمدى دقة قواعد الجهاد في الحقيقة - أدق بما لا يقاس من أي مواثيق حقوق إنسان سبق للغرب أن حلم بها. في الحقيقة دأب مدرسونا، دونما كلل أو ملل، على تكرار أن هذه المبادئ هي التي تميز المسلمين عن غير المسلمين. فالكفار هم الذين يقتلون دون تمييز، على نحوٍ مخالف للشرائع. إنهم يدمرون مدناً كاملة، بل ويبيدون كتلاً سكانية إجمالية. إنهم يقصفون الكنائس والجوامع والمدارس.

قرانا عن البريطانيين والفرنسيين الذين قهروا الشعوب في أرجاء العالم كله وسرقوا أوطانها لصالح مستعمراتهم. قرأنا عن هتلر ومعسكرات اعتقاله. قرأنا عن كيفية قيام الأمريكيين بذبح الكوريين والفيتناميين. قرأنا عن هيروشيما وناغازاكي كما عن القصف السجادي نهاية الحرب العالمية الثانية. وبالطبع قرأنا أيضاً عن الأهوال التي اقترفها الإسرائيليون في فلسطين، إلا أننا جميعاً كنا نعرفها سلفاً. دأب الكفار على قتل وقصف وتدمير كل شيء في طريقهم. كانوا وحوشاً.

اطلاعي على هذا كله جعلني، بالطبع، أعيد النظر بما كنت أعرفه عن الحرب في الجزائر. كانت الجماعة الإسلامية المسلحة قد اقترفت عدداً كبيراً من الأشياء المحرمة في الشرع الإسلامي. كان أفراد الجماعة قد قتلوا المدنيين، بل وأعدموا مدارس كاملة بالرصاص. غير أنني ما لبثت، مع مرور الوقت، أن تعلمت شيئاً عن قوانين الجهاد: ثمة مجال. ثمة هامش في إطار حدود الشرع لجميع ألوان التفسير والتأويل.

ثمة هامش خصوصاً حين يكون الأمر متعلقاً بتحديد هويات الأعداء من جهة وهويات الأبرياء من الجهة المقابلة. يبدو الأمر بسيطاً بالطبع ـ فالأعداء هم أولئك الذين يحملون السلاح. غير أن تحديد العدو، وفقاً لشرائع الجهاد، يمكن توسيعه ليشمل سلسلة الإمداد من أولها إلى آخرها: ليشمل كل من يدعم العدو بالمال أو السلاح، أو حتى بالطعام والماء؛ حتى أولئك الذين يوفرون التأييد المعنوي ـ الإعلاميون الذين يكتبون دفاعاً عن قضية العدو، مثلاً. غير أنني رحت أتساءل: إلى أي مدى يمكن مد سلسلة الإمداد؟ ربما إلى كل من يدلي بصوته في انتخابات النظام المعادي؟ وماذا عن أولئك الذين لا يؤيِّدون أياً من الفريقين بالمطلق؟ ما المدى الذي يمكن بلوغه؟

عموماً يُعتقد أن النساء بريئات؛ غير أن من شأنهن، مع ذلك، أن يكن من الأعداء. إذا كانت امرأة معينة تصلي وتلتمس من الله حماية زوجها، فهي ليست من الأعداء. أما إذا كانت تصلي من أجله لتمكينه من قتل مسلم، فإنها منهم. يصح الأمر على الأولاد. أي صبي صغير يمكن إعفاؤه من تبعات صلواته؛ فهو أصغر من أن يكون مسؤولاً. أما إذا حمل طعاماً أو حتى رسالة إلى مقاتل من الأعداء، فإنه ينقلب، فوراً، إلى عدو.

أصبحت أدرك كيف يمكن لأي شخص أن يغدو عدواً حسب منطق أي متطرف.

الجمعة

أيام الجمع كانت مختلفة عن سائر الأيام. لم يكن ثمة أيُّ جَرْي، أي تدريب على السلاح. في الصباح كنا نكتفي بساعة رياضة في الباحة الموجودة أمام المعسكر. ثم كنا نعقد اجتماعاً في الساحة ويقوم الأمير بتقسيمنا إلى مجموعات. كان يكلف كل مجموعة بمهمة سخرة محددة: تنظيف المسجد، جمع الحطب اللازم لنار الطباخين، ملء خزانات الماء الكبيرة في المقصف. غير أن واحدة من المهمات لم يبادر الأمير قط إلى إحالتها على أحد: مهمة تنظيف التواليتات. بدلاً من التكليف كان يطلب متطوعين. لا أحد من الإخوان كان يرفع إصبعه بالمطلق، لقذارة العمل. كنت أنا استثناء.

كل ما كنا نفعله في المعسكر كان مستلهماً من مبادئ السنة، أشكال السلوك التي شَرْعَنَتْها ممارسات النبي محمد ﷺ خلال سني ولايته. فالمسلمون يعتقدون أن هذه العادات لم تكن إلا من إملاءات الله المباشرة على النبي. والسنة تحدد قواعد معينة لكل جانب من جوانب الحياة اليومية بدءاً بطريقة إلقاء التحية على أحدهم وانتهاءً بالصحة والنظافة الشخصيتين.

لعل أبا هريرة هو الصحابي الأكثر تزويداً للمقتبسين بالأحاديث. وهو يروي أن من المقبول أن يلوذ المرء، حين يكون مسافراً في الصحراء أو مفتقراً إلى الماء، بالحصى وسيلة لتنظيف نفسه. يقول ما معناه إن رسول الله (عليه الصلاة والسلام) قال: إذا قام المرء بمسح مؤخرته بالحصى (بعد قضاء الحاجة التي تفرضها الطبيعة)، فإن عليه أن يستعمل عدداً مفرداً من قطع الحجر. وبالتالي فإن الحمامات (التواليتات) كانت ملأى بالحصى. نعم بالحصى أي بقطع الحجر المغطاة بالغائط.

من المؤكد أنني لم أكن مستمتعاً بتنظيف الحمامات، إلا أنني كنت أستطيع إنجاز العملية بسرعة فائقة.

لم تكن تستغرق مني عملية كنس الحصى في كل حمام ثم شطفها بسطول من ماء النهر سوى خمس عشرة دقيقة. وبعد الانتهاء كان يبقى لدي وقت أقضيه وحدي. كنت أستطيع القراءة أو الاستماع إلى الراديو، أو مجرد مراقبة الآخرين وهم ينقلون الحطب والسطول الثقيلة. تلك الأعمال كانت تستغرق ساعات. درجت على التطوع لتنظيف التواليتات أسبوعياً.

وبعد إنجاز مهمات السخرة كنا جميعاً نغتسل ونغسل ملابسنا في النهر. كنت على الدوام شديد الحرص على غسل كيس نومي. فالأكياس كانت عتيقة وملطخة، وكنت أعرف السبب. ففي الأفلام عن الحرب السوفيتية ـ الأفغانية، كنت قد رأيت المجاهدين وهم يرحّلون الجثث من أرض المعركة. كثيراً ما كانت الجثث ملفوفة بأكياس النوم. ومنذ ذلك التاريخ كانت هذه الأكياس قد استُخدمت من قبل أعداد كبيرة من المجاهدين. وبالتالي لم يكن غريباً أن يكون عدد كبير من الإخوان قد أصيبوا خلال فترة وجودهم في خالدان بأصناف مرعبة من الالتهابات والأمراض الجلدية.

كان يوم الجمعة يوم الاجتماع. بدلاً من إقامة صلاة الظهر، كنا نجتمع في المسجد لسماع الموعظة أو الخطبة. أحياناً كان أحد المدربين يتولى الخطابة. كثيراً ما كان أبو سهيل وأبو همام يخطبان، ولكن أحد المتدربين كان في مرات موازية يتولى مهمة الخطابة. لم يكن أحد مختاراً خطيباً؛ كان الجميع يستطيعون أن يحضِّروا خُطَباً ويتطوعوا. ومع ذلك فإن العرب كانوا، عموماً، هم الذين يتقدمون للاضطلاع بالمهمة. كانوا أكثر رسوخاً عقائدياً من الآخرين، وأعلى درجة تعليمية.

أحياناً كانت الخطب عن تاريخ الإسلام. كان إخوان يتحدثون عن أئمة مهمين وذوي تأثير، مثلاً. إلا أن المواعظ كانت في الغالب سياسية، عن مختلف ألوان الجهاد التي كان المسلمون يخوضونها في طول العالم وعرضه، عن سَطْو الكفار على أراضي المسلمين.

في المساء، بعد الخطاب، كنا نجتمع للمناقشة. كنا نستطيع أن نسأل الخطيب عن أي شيء كان قد قاله، حتى ولو كان الأمير هو من ألقى خطبة ذلك اليوم. كان أحد أكثر الأمور إثارةً للدهشة في المعسكر: الجميع كانوا متساوين. بالطبع كان يتعين علينا أن نطيع الأمير حين يعطينا أوامر محددة، غير أننا كنا نُمَكَّن على الدوام، إذ ما بدا أمر ما غريباً أو غير عقلاني، من تحديه ومطالبته بالتفسير. كان هذا ينطبق على الجميع؛ كنا نستطيع أن نعارض ونناقض ونناقش كلما شعرنا بالحاجة إلى مثل هذه المحاججات التي كانت تدوم ساعات وساعات. لم يكن ثمة أي تنظيم تراتبي حقيقي، أي شعور بالمرجعية، أي إحساس بالخضوع. لعله المكان الأكثر ديمقراطية الذي سبق لي أن كنت فيه.

في أماسي أيام الجمعة، كان أبو سهيل يعقد حلقات بحث ودروساً حول فقه سيد قطب، ذلك الفقيه المصري المعروف، وعقيدته. كنت دائم الحضور. كان أبو سهيل يقرأ علينا من مؤلفات الفقيه، ولاسيما من في ظلال القرآن ومعالم في الطريق، وهما أهم كتبه.

كنت مسحوراً بهذه الدروس، بالأسلوب اللطيف الذي كان أبو سهيل يعتمده في تعليمنا، ولكن أيضاً وهذا أهم، بالأفكار. فلدى قطب سمعت اللغة المنطوية، بنظري، على معنى. أذهلتني كتاباته بوصفها ذهنية بشراسة؛ كان قطب باحثاً حقيقياً. تحدث أبو سهيل عن أن قُطباً كان قد تابع دراسته الجامعية في القاهرة، بل وكان قد حصل حتى على شهادة ماجستير من إحدى الجامعات في أمريكا. كان عميق الاحترام لتعاليم الإسلام، ولكنه كان قادراً على الكتابة عن تلك التعاليم بأسلوب بدا حديثاً وواقعياً. كتب عن العالم الذي كنت أعيش فيه، لا عن عالم ما قبل قرون.

كتب قطب عن الإسلام بوصفه شيئاً أكثر من دين. بنظره كان الإسلام نظاماً اجتماعياً كاملاً مشتملاً على كل ما هو موجود في العالم. فقط عبر الخضوع الكامل لله كنا قادرين على حل مشكلات الأرض - مشكلات الجهل والظلم والفقر. كانت فلسفته ذات شحنة سياسية عالية. كان الله سيده الوحيد. حُكْم الدين كان الشكل الشرعي الوحيد للحكم؛ كل ما عدا ذلك لم يكن إلا طاغوتاً. وقد تعين على المسلمين المقيمين في بلدان ذات حكومات علمانية أن يقاوموا تلك الحكومات. كان قطب مؤمناً بالثورة.

شرح لنا أبو سهيل كيف كان سيد قطب قد عاش وفقاً لمعتقداته. ففي 1948، في أعقاب المهانة التي لحقت بمصر في الحرب العربية - الإسرائيلية، بادر ضابط شاب في الجيش يدعى جمال عبد الناصر إلى تشكيل حركة عُرفت باسم حركة الضباط الأحرار بهدف إطاحة النظام الملكي. وفي 1952 نجح الضابط في تحقيق الهدف. بداية سارع قطب إلى تأييد عبد الناصر فعُيِّن مستشاراً ثقافياً لمجلس قيادة الثورة في الحكومة الجديدة. ولكن العلاقة سرعان ما أصبحت مشحونة بالمرارة. كان قطب، مثل كثيرين غيره، قد توقع من عبد الناصر إقامة دولة إسلامية. وحين لم يفعل، بادر قطب إلى نقل تأييده إلى حركة الإخوان المسلمين الأكثر ثورية التي كانت تعارض عبد الناصر.

في 1954، حين أقدم أحد أعضاء حركة الإخوان المسلمين على محاولة اغتيال عبد الناصر، قامت الحكومة بحَظْر المنظمة. سُجن قطب مع آخرين كثر. تلك هي الفترة التي كتب فيها كلاً من كتابي في ظلال القرآن ومعالم في الطريق. بعد عشر سنوات أُطلق سراح قطب من السجن. إلا أنه ما لبث أن اعتُقل من جديد بعد أشهر قليلة فقط، في آب/أغسطس 1964 وحوكم محاكمة صورية. حُكم عليه بالإعدام وأُعدم شنقاً عام 1966. قضى شهيداً في سبيل عقيدته.

لم يكن عندنا كهرباء في خالدان، بالطبع، وبالتالي فإن الإنارة كانت بمصابيح الكاز أو الشموع في الليل. لذا فإن ظهور جهاز للتلفزيون، بعد أشهر من وصولي، فاجأني. ظهر الجهاز ذات يوم جمعة مربوطاً بمولد ديزل.

تلك الليلة شاهدنا عدداً من الخطب من إلقاء عبد الله عزام. وعزام هذا كان، كما قيل لنا، قد وُلد في الضفة الغربية ولكنه هاجر إلى الأردن بعد النكسة (المعروفة في الغرب باسم حرب الأيام الستة) في 1967. التحق بالجهاد ضد الاحتلال الإسرائيلي، ثم تابع دراسته للحصول على الدكتوراه من جامعة القاهرة حيث أصبح صديقاً لعائلة سيد قطب.

مع انقضاء سبعينيات القرن العشرين، نأى عزام بنفسه عن الجهاد الفلسطيني وانتقل إلى العربية السعودية. راح يركز على الجهاد العالمي بدلاً من نظيره المحلي، وبات مقتنعاً بحاجة الأمة (الإسلامية) إلى قوة عسكرية منظمة لدحر الكفار. وحين أقدم السوفييت على اجتياح أفغانستان، هاجر إلى الباكستان مع عائلته ليكون أكثر قرباً من القتال.

ما لبث عزام أن استقر في بيشاور، حيث أسس مكتب الخدمات، منظمة مكرسة لمساعدة المجاهدين المنخرطين في معارك القتال ضد السوفييت عبر الحدود في أفغانستان، ولتدريب المجندين الجدد الذين كانوا يتدفقون على

الباكستان من بلدانٍ أخرى. كذلك قام بزيارة أفغانستان ليكون شاهداً على بطولة المجاهدين.

وقبل اغتياله في 1989، أصبح عزام أحد أهم وأبرز الدعاة الداعين إلى الجهاد. ومن خلال كتبه وتعاليمه بقي حياً في قلوب عدد كبير من المسلمين، ولاسيما الشباب، في طول العالم وعرضه.

فيما كنا نتابع الأشرطة تلك الليلة استطعت أن أهتدي إلى السبب. كان شديد العمق والتعقيد ولكنه كان حماسياً وملتهباً في الوقت نفسه. كان يتحدث عن تدمير إسرائيل، وعن الجهاد العالمي. إلا أن تصريحاً واحداً كان بالغ الأثر في نفسي. فقد أعلن: 'إن عشق الجهاد قد استولى على حياتي، على روحي، على مشاعري، على قلبي، وعلى عواطفي. إذا كان الاستعداد إرهاباً، فنحن إرهابيون.'

باستمرار بقيت صلاة الجمعة الأكثف بين أحداث الأسبوع. فبعد أسبوع كامل من الجري والكفاح والعمل مع إخواننا، كنا يوم الجمعة نلتقي لنرتاح ونعبد الله كما لو كنا شخصاً واحداً. أحياناً كان هذا الأخ أو ذلك يتأثر عاطفياً فتنهمر الدموع من عينيه.

أنا أيضاً كنت أتأثر. واقفاً بين هؤلاء المجاهدين كنتُ أستطيع أن أشعر بروح الله مالئة كياني كله. كنت أنجرف مثل الآخرين بسيل مشاعر الحب والمودة والأُخُوَّة. كنت فرداً في عائلة، عضواً في جماعة، جماعة كرَّسَتْ نفسها لله.

مع مرور الأسابيع، صار الانفصال عن إخواني أكثر صعوبة بالنسبة إلي. إنَّ تذكر حقيقة أنني لم أكن واحداً منهم، أنني كنت جاسوساً، أصبح يتطلب جهداً أكبر ليلة بعد ليلة.

عبد الكريم

ثمة كان جزائريان اثنان فقط في خالدان في أثناء وجودي هناك. أحدهما، عبد الكريم، كان في فرقتي لدراسة التجويد المسائية، وكان أيضاً ينام في المهجع نفسه معي. مثلي أنا، لم يكن قد جاء مع جماعة؛ كان وحده. لغته العربية كانت بائسة، أسوأ من لغتي أنا بكثير. إلا أن لغته الفرنسية كانت ممتازة.

لدى وصولي الأول إلى المعسكر، كان هناك جزائري آخر أيضاً، وهو أبو جعفر الذي كان أكبر قليلاً في السن من عبد الكريم. رأيتهما يتحدثان معاً عدداً من المرات، ولكن أبا جعفر ما لبث أن رحل فبقي عبد الكريم وحيداً من جديد.

ذات يوم جمعة، أوائل الصيف، أنهيت تنظيف التواليتات مبكراً وتوجهت إلى المدخل الشمالي للمعسكر، بعيداً عن المقصف في أعلى النهر. كان ثمة شلال صغير متدفق من جوف أحد الجبال حيث كنا نملأ أواني مياه شربنا. كنت قد جلبت مطرتي لأملأها؛ كان يوماً حاراً جداً.

في طريقي إلى الشلال، مررت بالجامع ورأيت عبد الكريم جالساً وحده تحت شجرة. لوحت له وسألته عما إذا كان يريد أن أجلب له بعض الماء. ابتسم وقال: 'نعم، من فضلك' وناولني مَطَرَتَه.

ذلك النوع من الإيحاء كنا نُقَدم عليه باستمرار في المعسكر. كنا مهتمين بعضنا بالبعض الآخر لأننا كنا هناك للسبب نفسه. كنا نجلب لبعضنا الطعام والماء وندعم بعضنا في حالات الضعف أو التعب أو المرض. حين كان أحد الإخوان يغادر المعسكر، كان يترك جُلَّ ما بحوزته وراءه: معطفه، حذاءه، مذياعه. كل ما لديه كان يقدمه إلى إخوانه.

عندما عدت إلى الجامع واقتربت من عبد الكريم، رأيت موقداً صغيراً أمامه. كان يغلي ماء في إناء. ثمة كان مرطبان بجانب الموقد: مرطبان نسكافه.

لم أكن قد ذقت طعم القهوة منذ كنت في بيشاور ـ لم نكن نتناول سوى الشاي المُرّعب مع الفطور ـ فبدأ لعابي يسيل.

ثم ما لبثت أن لاحظت شيئاً آخر. كان عبد الكريم عاكفاً على تنظيف كلاشنكوفه، وكان يفعل ذلك بطريقة خاطئة كلياً. كنت اعرف أن عبد الكريم كان يعرف كيف ينظف سلاحه. أنا لم أكن قد استلمت كلاشنكوفي بعد، إلا أن إدوار كان قد علمني كيف أنظف سلاحاً، أي سلاح، وكنت قد مارست ذلك مئات المرات.

غير أن إدراك أن عبد الكريم لم يكن يمسح رشاشه بطريقةٍ صحيحة لم يكن يتطلب اختصاصياً. كان يكشطه بورق الزجاج. لعل هذا هو أحد أسوأ الأشياء الممكنة التي يمكن لأي سلاح أن يتعرض له، لأنه يترك خدشات صغيرة على المعدن داخل الرشاش من شأنها أن تجمع الرطوبة التي تؤدي إلى الصدأ. وأي رشاش صدئ من شأنه أن يستعصي، أو يكبو.

كل شيء حول هذا بدا لي خطأ. على الدوام كان يتم تلقيننا بأن نتعامل مع أي قطعة سلاح بقدرٍ كبير من الاحترام، لأن الإخوان الآخرين الذين كانوا سيأتون بعدنا، كانوا سيستخدمون المعدات نفسها. كان عبد الكريم يتصرف تصرفاً مفرطاً في أنانيته. وقد استطعت أن أفهم من حركات يديه الوجلة ونظراته المرتابة أنه كان يعرف ما كان يقترفه من إثم. كان ثمة نوع من المكر والمراوغة في حركاته. من الواضح أنه كان شديد التوتر.

جلست إلى جانبه. قلت: 'أيها الأخ، ليست تلك الطريقة الصحيحة لمسح أي سلاح أو تنظيفه.' مددت يدي. 'هات، دعني أبين لك كيف.'

غمغم: 'أعرف الطريقة. لم أعد أبالي. مهما فعلتُ لن أستطيع إرضاء أبي بكر. سيبقى الرشاش دون مستوى إرضاء أبي بكر.'

ابتسمت. كنت أعلم أن من شأن المدرب أن يغدو أكثر تشدداً وقسوة كلما قطعت عملية التدريب شوطاً أبعد. ولاسيما فيما يتعلق بصيانة الأسلحة. ففي المراحل المتأخرة من التدريب - التدريب التكتيكي - كان الإخوان يطلقون النار على نحوٍ مطّرد. وكلما تكاثرت جولات الرمي كان من شأن الأسلحة أن تتسخ أكثر. فيُمضي المدربون وقتاً أطول وهم يعاينونها للتأكد من تحلّي المجندين بالحرص على صيانة أسلحتهم.

تركت موضوع الأسلحة. كنت أريد فنجان قهوة فطلبته منه. لبى طلبي بالطبع، ولكنه رجاني ألا أُخبر أحداً. كان الوحيد المسموح له باحتساء النسكافه في المعسكر، وكان الأمير قد طلب منه أن يُبْقي الأمر سراً.

كانت مادة النسكافه قد أفادتني بمعلومة معينة: علمت أن عبد الكريم كان شخصاً مهماً. لم يكن ثمة أي امتيازات خاصة في المعسكر، ولا أي أسرار. إذا ما كان مسموحاً له باحتساء القهوة فيما الآخرون محرومون منها، فلعل من شبه المؤكد أن هناك شيئاً جعله ذات قيمة غير عادية.

كان عبد الكريم تواقاً للكلام. وبسبب ضعف لغته الغربية لم يكن يستطيع التحدث مع معظم الإخوان الآخرين. أما أنا فكنت، حسب كلامه، أتكلم الفرنسية مثله، وقد أسعده ذلك. بسرعة فائقة، بدأ يتكلم عن الجماعة الإسلامية المسلحة. وما لبث أن وصل إلى موضوع الأنصار. ذكّرته بعدم جواز الكلام عن حيواتنا السابقة، غير أنه لم يستطع الالتزام. كان الكلام يتدفق منه، واستطعت أن أرى من حركات يديه أنه كان يزداد انفعالاً باطراد. عيناه كانتا تتحركان بسرعة يميناً وشمالاً، كما لو كان خائفاً من شيء معين.

ثم التفتَ إليَّ علي نحوٍ مفاجئ وراح يرغي فيما بدأت عيناه تتسعان وتجحظان من محجريهما قائلاً: "أنت، نعم أنت جاسوس. أنا أعرف ذلك. الفرنسيون بعثوك للتجسس عليّ."

كاد قلبي يتوقف عن الخفقان. كيف عرف؟ ما الذي كنت سأفعله؟ كان جالساً والكلاشنكوف في حضنه. وأنا أعزل. كنا وحدنا، على مسافة مئات الأمتار من الإخوان الآخرين. راح عقلي يدور بسرعة . تعين علي أن أقول شيئاً .

قلت وأنا أضحك: 'سارع إلى استغفار الله أيها الأخ! هل تظن أنك على هذه الدرجة من الأهمية حتى يبالي الفرنسيون بإيفاد عميل إلى أفغانستان البعيدة من أجلك أنت؟' ثم وقفت.

قال: 'لا، بالطبع لا . أنا آسف. أرجوك تعال. اجلس واشرب بعض القهوة معي.' راح يشرح أنه كان قد عاش في خوف وهو في فرنسا، أنه كان ملاحقاً ومراقباً باستمرار. وحين سمعني متحدثاً بالفرنسية عن الجماعة تذكر كل ما كان قد سبق أن تعرض له وعانى منه.

عدت إلى الجلوس وضحكت بيني وبين نفسي. كنت واثقاً من أن هذا الزبون لم يكن مستعداً لإفلات الشخص الوحيد الذي كان يستطيع أن يتحدث معه في المعسكر كله.

كان عبد الكريم مختلفاً عن جميع الآخرين في خالدان، كان ذلك واضحاً. في البداية تساءلت عما إذا كان مدمن هيروئين. كنت قد رأيت مدمني هيروئين في شوارع المغرب، مما جعلني قادراً على تمييز وجوههم وحركاتهم إضافةً إلى جنون الارتياب العميق في عيونهم. بالطبع، لم يكن ثمة أي مخدرات في المعسكرات، وقد تساءلت عما إذا كان قد سُمح له باحتساء النسكافه تخفيفاً لشدة معاناة الإقلاع.

بصرف النظر عما إذا كنت على صواب أم لا حول هذا الأمر، فإن من المؤكد أن عبد الكريم كان استثناء من سائر ألوان القواعد والضوابط مثل التنوعات الجامحة في نبرة كلامه، الحركات العصبية، التأرجحات المزاجية السريعة، فيض

المعلومات المتدفق منه دون أي التماس أو طلب. كان من شأن أي أخ آخر أن يتعرض للطرد من المعسكر بسبب واحد من هذه العيوب. ومع أن بعض الوقت كان يجب أن ينقضي قبل أن أفهم السبب، فقد أيقنت، حتى في هذا الوقت المبكر، أن عبد الكريم كان سيبقى شخصاً بالغ الإثارة. كان ثمة سبب وراء السماح له بالبقاء.

في ذلك اليوم، كما في الأيام التالية، صرت أعرف المزيد عن عبد الكريم. كان أكثرُ كلامه عن الجماعة.' والجماعة، مثلها مثل اللغة الفرنسية، كانت مسألة مشتركة بيننا.

أخبرني عبد الكريم أن له زوجاً في فرنسا. كان عازماً على الطلاق بسبب عدم تدينها. غير أنهما كانا أبوين لابنة، وكانت الزوج قد أخذتها عند افتراقهما. كان يريد استرجاع البنت ليتمكن من تنشئتها نشأة إسلامية قويمة.

فيما بعد، كان سيتحدث أكثر عن السياسة. اتضح لي أن عبد الكريم كان متطرفاً حقيقياً، متطرفاً خالصاً مئة بالمئة. ما أكثر ما كان يقول لي: 'إن شاء الله ستغدو فرنسا مسلمة ذات يوم.' ثم تحذو أوروبا حذو فرنسا، فيتم تكنيس الكفار من القارة.

ذات يوم، تحدثنا عن المداهمات في أوروبا. كنت شديد الرغبة في اكتشاف ما كان يعرفه، إلا أنني لم أكن قادراً على سؤاله مباشرة. ولكن لم يكن ثمة أي داعٍ للسؤال مع عبد الكريم؛ ما لبث أن قفز إلى قلب الموضوع تلقائياً. شكا بصخب من مدى هول المداهمات وبعدها عن الإنصاف. وافقته وأومأت معبراً عن التعاطف، حدثته عن تجربتي الخاصة، عن أن الشرطة كانت قد داهمت بيت أمي واعتقلت أخي، وحاولت أن تلقي القبض علي أنا أيضاً.

ومن ثم سألته، ببراءة: 'من الذي أبلغ الشرطة؟ هل لديك أي فكرة؟'

ربما كنت قد عانيت من القلق لو اضطررت إلى انتظار جوابه. غير أنني لم اضطر. مباشرةً زودني عبد الكريم باسم فرنسي من أصل جزائري لم يكن قد سبق لي أن سمعت عنه. شعرت بقدرٍ كبير من الارتياح لسماع ذلك. ربما كنت آمناً آخر المطاف.

مع مرور الزمن، تطور بيني وبين عبد الكريم نوع من الصداقة. صرنا نقضي فترات طويلة من الوقت ونحن نتحدث بالفرنسية ونحتسي القهوة. كان جميلاً بالنسبة إلي أنا أيضاً أن أجد شخصاً كان يتكلم لغتي الأصلية ويفهم العالم الذي كنت قد جئت منه.

ذات ليلة، كنا، عبد الكريم وأنا، جالسين وحدنا أمام الجامع. كنا حريصين على اللقاء في غياب الآخرين؛ لم نكن نريد أن يرى الآخرون احتساءنا للنسكافه. وعلى حين غرة سمعنا جلبة. كان الصوت منبعثاً من محطة البث الإذاعية، ذلك المبنى الصغير القريب من المقصف حيث كان المدربون يجتمعون ليلاً.

بام.

نهضنا، كلانا، واقفين ورأينا أحدهم يطلق النار في الهواء من كلاشنكوفه. بام بام بام بام. ثمة كانت رشقات عديدة من بنادق كثيرة في وقتٍ واحد، مع أصوات أناس محتفلين. سمعنا وقع أقدام جارية نحونا، وسرعان ما ظهر أحد المدربين. قال: 'افتحوا الراديو. كان ثمة هجوم في باريس.'

أدرنا مفتاح الراديو وسمعنا التقارير المذاعة عبر الإذاعة الفرنسية الدولية (راديو فرانس انترناسيونال). قبل ساعة فقط، كانت قنبلة قد انفجرت في إحدى عربات قطار الآر إي آر (RER) السريع تحت محطة سان ميشيل القريبة من نوتردام. ثمة كانت ضحايا مؤكدة، وأخرى إضافية متوقعة. وكان هناك مئات الجرحى، كانت الفوضى سائدة.

ثمة آخرون كانوا قد سمعوا أصوات إطلاق النار وخرجوا مسرعين لينضموا إلينا. كنا نحتفل في الساحة الواقعة أمام الجامع. ما من أحد كان يتفوه بكلمة واحدة عن الجماعة الإسلامية المسلحة لأننا كنا ممنوعين من ذلك. ما من أحد إلا وأدرك فوراً أن الجماعة كانت هي المسؤولة.

كان عبد الكريم مشرقاً؛ كان يهتف: 'ما شاء الله! توت لا فرانس ديفندرا موسلمان (فرنسا كلها ستصبح مسلمة)'. نظر إليَّ مكشراً وكرر هتافه. فرنسا كلها ستكون مسلمة.

علقت: 'إن شاء الله، إن شاء الله يا أخ!' ثم أجبرت نفسي على الابتسام.

في الأيام والأشهر القادمة كنا سنطلع على المزيد من المعلومات عن التفجيرات. قُتل ثمانية أشخاص، وجُرح المئات. كانت الحلقة الأولى في سلسلة هجمات جرت في فرنسا ذلك الصيف. في آب/أغسطس، انفجرت قنبلة بالقرب من قوس النصر. وفي الشهر نفسه اكتشف البوليس قنبلة على سكة القطار خارج ليون. قنبلة ثالثة انفجرت في مدرسة يهودية بليون. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر تم تفجير عبوتين ناسفتين في اثنتين من محطات القطارات بباريس. عشرات الناس جُرحوا في أثناء حملة التفجيرات غير أن أحداً لم يُقتل لحسن الحظ بعد الانفجار الأول في السان ميشيل.

أمضيت فترة طويلة من الوقت وأنا أفكر بالتفجير الحاصل في باريس، وبرد فعل الآخرين في المعسكر. ثمة أمر صعقني على نحوٍ خاص: لم يخطر ببال أحد أن يسأل عن ركاب القطار. من المؤكد أن هؤلاء كانوا أبناء سبيل أبرياء. لا أعداء؟ ما تبرير مثل هذا النوع من الهجوم؟

أبو بكر

من المؤكد أن أبا بكر كان استثنائياً؛ أحياناً كان يبدو فوق البشر. وكلما راقبته أكثر ازددت إعجاباً بانضباطه كما بقوته ولياقته البدنيتين. كان دائم

الحركة؛ في كل دقيقة كان يقظاً، كان عاكفاً على التدريب. خلال المواعظ، كنتُ أتابعه وهو يلعب بأصابعه بصمت، لاوياً إياها إلى الأمام وإلى الخلف لجعلها أكثر مرونة. كان يستطيع ثنيها كثيراً إلى درجة أن أظافره كانت توشك على ملامسة رسغيه. مرة شاهدت أبا بكر وهو يقفز عن صخرة بارتفاع لا يقل عن سبعة أمتار. لم يجفل حين قفز، وحين وصل إلى الأرض لم يقلّص جَسَده أو يتكور ويتدحرج مثل الآخرين. اكتفى بثني ركبتيه قليلاً ثم مشى. عدد من الإخوان حَذَوا حذوه وقفزوا عن الصخرة في ذلك اليوم، وكثيرون كسروا سيقانهم وكواحلهم. اثنان منهم بقوا مجبصنين مدة أسابيع.

على الرغم من أننا لم نكن مخوَّلين بالتكلم مع بعضنا عن أي شيء خارج المعسكر، فكثيراً ما كنا نفعل. أشياء كثيرة عن أبي بكر عرفتها بهذه الطريقة. عرفت أنه كان أردنياً ذا أصل فلسطيني. عرفت أنه كان أميراً للمعسكر أحياناً فقط، خلال فترات غياب ابن الشيخ. عرفت أنه كان استثنائي الجرأة - لم يكُف الإخوان عن الحديث المطّرد عن شجاعته في معارك بطاجكستان وكشمير.

لم أتدرب مع أبي بكر قط، لأنه كان، معظم الوقت، مشغولاً بتدريب مجندين للقيام بعمليات خاصة. أكثر الرجال الآتين إلى المعسكرات كانوا يبقون ستة أو سبعة أشهر، لاتباع دورة تدريبية كاملة. غير أن مجموعات كان من شأنها أن تأتي أحياناً لقضاء فترة أسبوعين فقط للتدرب على تنفيذ مهمات محددة.

غير أن أبا بكر كان أحياناً يتولى إدارة تدريبات وتمارين خاصة لمجمل المعسكر. كان يعشق قيادة مسيرات الجري الليلية بين الجبال. عدداً من المرات خلال أشهر وجودي في خالدان، أمرنا أن نستيقظ منتصف الليل.اجتمعنا في الساحة، ثم اندفع قفزاً إلى الجبال في قلب الظلام الدامس وما كان لنا إلا أن نتبعه.

كنت أمقت جميع أشكال الجَرّي، إلا أني كنت أشد كرهاً لمسيرات الجري الليلية. على الدوام كنت أتعب وأضيع. هذا وكانت الليالي باردة، حتى في الصيف. وقد زادت سوءاً مع اقترابنا من الخريف. كذلك كانت عمليات الجري خطرة. في العديد من الليالي كانت السماء ملبدة بالغيوم فنبقى محرومين حتى من ضوء القمر والنجوم لهدايتنا. لم نكن نستطيع أن نرى شيئاً على الإطلاق؛ كنا مضطرين للاكتفاء بهداية صوت الإخوان أمامنا. كثيراً ما كنا نجري في ممرات ضيقة معلقة على سفوح الجبال. في أي لحظة كان خطر السقوط في الهاوية السحيقة ماثلاً. خطوة واحدة خاطئة كان من شأنها أن تفضي إلى الموت.

ذات ليلة، كانت السماء استثنائية الصفاء وقادنا أبو بكر في مسيرة جَرّي ليلية إلى قلب تضاريس الجبال. تابعنا الجري نحو ساعة كاملة في ضوء القمر إلى أن وصلنا إلى هضبة مستوية، وما لبث أن أوقفنا. سأل: 'هل يستطيع أحد أن يشير إلى اتجاه القبلة (مكة)؟' عشرات المجندين رفعوا أيديهم وأشاروا إلى جهات مختلفة. بقي أبو بكر غير متأثر.

رفعت يدي. قلت: 'إنها في الاتجاه المعاكس لمكان بزوغ القمر.' كنت أعرف أنه لم يكن يريد معرفة موقع مكة. بل كان يريد أن يقف على طريقة عمل عقولنا. كنت أعرف أشياء كثيرة عن الكواكب بسبب ولعي الطفولي المهووس بالخيال العلمي، الذي كان قد تطور إلى اهتمام أعم بالعلوم خلال فترة وجودي في باريس وبروكسل. كنت أعرف أن الشمس، مثلها مثل القمر، كانت تشرق من الشرق. ولأننا كنا في أفغانستان فإن مكة كانت في الغرب. عندما شرحت هذا للإخوان، أومأ أبو بكر وهتف: 'ما شاء الله يا أبا إمام! إنه جواب جيد.'

بعد انتهاء أبي بكر من اختباره، انطلق إلى الجري من جديد وتبعناه. بعد نحو نصف ساعة، أوقفنا مرة أخرى. راح يشرح لنا ونحن مندسون أحدنا بالآخر في جو الليل البارد قائلاً: 'حين أقول "اختبئوا!" أريدكم أن تنبطحوا على الأرض

فوراً. عندكم خمس ثوانٍ.' ثم بيَّنَ مدى أهمية الاختباء لدى سماع هدير أي حوامة في الجو، ومدى تضاؤل احتمال الاهتداء إلينا إذا ما انتشرنا على أوسع نطاق ممكن. لابد من ترك ما لا يقل من مسافة خمسة أمتار بين العنصر وزميله. ولعل الأمتار العشرة هي المسافة المثالية.

ثم انطلق يعدو من جديد. وتابع العدو. دام ذلك ما لا يقل عن خمس وأربعين دقيقة قبل أن يعطينا الإشارة. وما إن فعل حتى انبطحنا أرضاً. ربما سقطنا قريبين من بعضنا أكثر مما كان ينبغي، غير أن الظلام كان دامساً مما جعل الرؤية متعذرة. كانت ثمة هاوية إلى الجهة اليمنى، وبالتالي فإن أحداً لم يكن يريد أن يبالغ في الجري بعيداً عن الجماعة. أضف إلى ذلك أننا كنا نجري في تشكيلة محكمة من البداية، حيث لم يكن يفصل بين الأخ والأخ سوى قدمين اثنتين، مما أبقى الإكثار من التباعد أمراً صعباً.

لم يكن قد مضى على انبطاحي سوى ثانيتين حين سمعت أزيزاً حاداً وشعرت بشيء يطن ماراً بكتفي الأيمن. ثم صوت آخر، وشيء يضرب الأرض على يميني مباشرةً فيثير الغبار. فجأة أدركت أنهما كانتا رصاصتين. كان أبو بكر ينبهني بالطلقات النارية.

ثم سمعت صوتاً ينادي باسمي. خلعت وجهي عن الأرض. ونظرت. كان أبو بكر واقفاً عند رأسي مباشرة. تات. تات أطلق رصاصتين أخريين مَرّتا على مسافة بوصات قليلة عن كتفي. أوعز: 'تحركْ يا أبا إمام. أنت قريب جداً من أخيك، لا يجوز.' وبعد ذلك دار وانتقل إلى التالي، وراح يطلق النار قريباً منه.

لاحقاً في الليلة ذاتها، فعلها مرة أخرى. كنا نجري منذ ما مجموعه أكثر من خمس ساعات، حين أعطى الإشارة. كان الجميع مهدودين من التعب. بضعة إخوان لم ينبطحوا على الإطلاق؛ كانوا قد نسوا التعليمات.

تات ـ تات ـ تات ـ تات. على الفور بدأ أبو بكر يطلق النار باتجاه الرجال الذين ظلوا واقفين. كانت الرصاصات تتطاير عن يمينهم وشمالهم؛ بعضها اقترب مسافة ستة سنتيمترات. استطعت أن أرى أن بعضهم كانوا قد شُلوا تماماً من الخوف.

إلا أنني أصبحت الآن على يقين بأن أي رصاصة من بندقية أبي بكر لم تكن لتصيب أي أخ مطلقاً. كان رامياً ممتازاً، كلي الثقة بمهارته. تلك كانت طريقته اللطيفة لتذكيرنا بضرورة الامتثال لأوامره.

كان أبو بكر كمالياً (بمعنى نُشْدان الكمال) في كل ما كان يفعله. كذلك كان شديد النزعة الانضباطية. ذات يوم، رأيت بعض الرجال من الفريق الذي كان يدربه يزحفون مع مجرى النهر. كان الخريف قد قطع شوطاً، وكان الماء شديد البرودة. ولكنهم كانوا في الماء رافعين كلاشنكوفاتهم أمامهم مبحرين بين الصخور وعبر الماء الجليدي.

كانت الصخور بالغة الحدة حتى أن بعض الإخوان كانوا ينضحون دماً حين خرجوا من النهر. سألت أحدهم عما كانوا يفعلونه فأجابني بأنهم كانوا يعاقَبون لأنهم أخفقوا في مسح رشاشاتهم وتنظيفها على نحوٍ صحيح في الليلة السابقة.

على الفور فهمت لماذا كان عبد الكريم غاضباً من أبي بكر يوم رأيته عاكفاً على تنظيف بارودته بورق الزجاج. وكما لو كان الزحف في الماء المتجمد غير كافٍ، درج أبو بكر على عادة معاقبة مجنديه عبر جَعْل مسح البوارید تلك الليلة أكثر صعوبة بما لا يقاس. كان سيتعين على كل أخ أن يمسح الماء كله من جوف السلاح إلى أن يجف تماماً ثم يقوم بتزييت الآلية كلها. كان من شأن ذلك أن يستغرق ساعات طويلة. كان أبو بكر صارماً.

مرة اختفى أبو بكر مدة يومين. سألت أحد المدربين عنه وأفادني بأن أبا بكر كان مريضاً. قررت أن أعوده في الكوخ الذي كان يعيش فيه مع بعض المدربين الآخرين. أردت أن أرى مدى قدرتي على القيام بأي شيء من أجله.

بدا أبو بكر في حالةٍ مرعبة. كان منشوراً على الفراش وعيناه مغمضتان، شبه عاجز عن الحركة. كان قد أصيب بالملاريا التي كانت متفشية في المعسكرات. سُحُب البعوض كانت مالئة للأجواء.

جلست إلى جانبه قائلاً: 'السلام عليكم! لم أعرف بمرضك إلا الآن. كيف تشعر؟'

'بخير يا أخ. أنا بخير.' إلا أنه كان يئن ويحرك رأسه من جهة إلى أخرى في أثناء الأنين.

كانت ثمة محقنة على الأرض بجانبه، معبأة بسائل ما. حملتها. 'لم هذه يا أبا بكر؟'

'إن فيها دواء' أجاب. 'يُفترض أن يأتي أحدهم ليحقنني. ليتك تطلب من الدكتور!' كان يلمّح إلى أخ كان يتولى رئاسة مستوصف المعسكر.

'أنا أستطيع أن أحقنك.' قلت عارضاً خدمتي. كنت قد أمضيت فترة طويلة من الزمن في مشافي بلجيكا وحُقنت بالكثير من الأدوية والمهدئات حتى أصبحت عارفاً تماماً ما كان يجب فعله.

نظر إلي بامتنان: 'إذن أنت تعرف كيف؟'

أومأت، وطلب مني أن أُقّدم. حملت المحقنة، أبرزت الوريد، حقنت الدواء بسرعة فائقة. بدا مندهشاً حين أبلغته بأن الحقن قد تم.

ابتسم لي وقال: 'سبق لي أن حُقنت عدداً غير قليل من المرات منذ أن جئت

إلى أفغانستان ولكن هذه المرة هي الوحيدة التي لا يؤلمني فيها الحقن أيها الأخ. شكراً.'

كنت بالغ السعادة لأني كنت قد استطعت أن أساعده. حين وقفت استعداداً للمغادرة تلفتُحول الغرفة. تلك هي المناسبة التي رأيت فيها شيئاً ساحراً: بارودة قنص عملاقة. كنت قد تعلمت من أبي سهيل كل الأمور عن بنادق القنص، غير أنني لم أكن قد رأيت ولو واحدة في المعسكر. كنت شديد الرغبة في اختبارها.

يجب أن يكون أبو بكر قد لاحظ تعبير الاندهاش على وجهي، إذ قال: 'أنا آسف يا أخ. إنها أمريكية ولسنا متوفرين على الخرطوش المناسب.'

ذات يوم، كانت مجموعة منا جالسة خارج المسجد حين أبلغنا أبو بكر بأنه، هو وأبا سهيل، كانا سيغادران في غضون بضعة أيام للقيام بمهمة مع مجموعة طاجيكية كان يدربها. كان أبو الشيخ قادماً ليحل محله.

كنت جالساً بجانب أبي بكر، وفي إحدى المحطات التفتَ إليّ وسأل مبتسماً: 'هل تريد أن ترافقنا؟'

لم أعرف ما أقوله. توقعت أنه كان يمزح، لأنني لم أكن قد تدربت مع الطاجيك كما لم أكن أعرف شيئاً عن المهمة. إلا أنني تمتمت: 'بالتأكيد.'

حافظ أبو بكر على ابتسامته وتابع يقول: 'إذا جئت معنا فهل ستكون قادراً على قطع رأس جندي روسي؟'

'بالطبع' أجبت بحزم. كنت قد شاهدت ذلك في أحد الأفلام، وكنت أعرف أن هذا كان هو الرد المطلوب. وعلى أي حال كنت أعلم أنني لم أكن لاضطر لفعل ذلك ليقيني بأن أبا بكر كان يختبرني فقط.

ناشراً الابتسامة ذاتها على وجهه عاود أبو بكر السؤال: 'ماذا لو جلبت معي جندياً روسياً إلى المعسكر؟ هل ستكون مستعداً لقطع رأسه هنا أمامنا في الساحة؟'

توقفتْ نبضاتُ قلبي. تساءلت عما إذا كان عازماً فعلاً على الإتيان بمثل هذا التصرف، وعما إذا كنت أنا سأضطر لقطع رأس أحدهم لأثبت أنني مجاهد حقيقي. سألت نفسي: 'ما الذي أفعله أنا هنا بحق الجحيم؟' غير أنني أجبت بالطريقة الوحيدة المتاحة لي:

'بالطبع يا أبا بكر! بالطبع!'

المتفجرات

كانت الرحلة التالية من تدريبنا هي الرحلة المخصصة لموضوع المتفجرات. كنا نتدرب مع أبي يحيى الذي كان من اليمن. وهذا الجزء من تدريبنا دام نحو أسبوعين. مثل التدريب على المسدسات والرشاشات كان هذا الجزء من التدريب نظرياً من ناحية وعملياً من ناحيةٍ ثانية. أمضينا قدراً كبيراً من الوقت في غرفة الصف الدراسية ونحن نتعلم كل شيء تجب معرفتُه عن المتفجرات الرئيسية - التي إن تي، الديناميت، وسائر المتفجرات البلاستيكية: سي 1، سي 2، سي 3، سي 4 وسَمْتَكْس. تعلمنا أن الأمريكيين كانوا يحاولون استرجاع كميات من السَّمْتَكْس من المجاهدين في أفغانستان لأنها شديدة الخطر. خلافاً للمتفجرات الأخرى كانت مادة السمتكس هذه غير قابلة تماماً للتحري.

تعلمنا عن اطراد كل مادة متفجرة ومظهرها. تعلمنا فن التعرف على المتفجرات المختلفة عن طريق الشم والتذوق؛ كنا نضع كمية قليلة على رؤوس ألسنتنا. كان لبعضها، مثل الديناميت، مذاق حلو بسبب الغليسرين.

تعلمنا عن جميع الأصناف المختلفة من الألغام الأرضية، وسائر أنواع المتفجرات المختلفة المستخدمة في كل منها. تعلمنا كيف ننصُب لُغْماً وكيف ننزع

فتيله. تعلمنا كيف نزرع حقْل ألغام. تعلمنا كيف نُفَخِّخ أي لغم بحيث يتفجر آنياً بمن يحاول نزع فتيله.

تعلمنا عن جميع أشكال الرمانات والقنابل اليدوية المختلفة، وعن أيِّها يجب أن يُستخدم وفقاً لوضعنا في معركة معينة. تعلمنا متى يجب علينا وصل القنابل بأجهزة توقيت، ومتى يتعين علينا أن نتركها تنفجر بفعل الضغط أو الصدم.

تعلمنا عن أنواع الصواعق المختلفة، وقد ظل أبو يحيى دائباً على تذكيرنا بمدى حساسية الصواعق وخطورتها. علَّمنا أبو يحيى فن التعامل معها بقدرٍ كبير من الأناة والنعومة كي لا تتفجر في وجوهنا.

كرسنا فترات طويلة من الوقت على تعلم تدابير الأمان، على إتقان فن حساب منطقة التفجير بالاستناد إلى كمية المتفجرات المستخدمة، والمسافة التي يجب أن نتركها بيننا. أوضح أبو يحيى أن من شأن بقائنا على احتكاك بأنواع معينة من المتفجرات فترات زمنية أطول مما ينبغي أن يفضي إلى تعريضنا لعلل صحية معينة بما فيها علة العُقَم.

كان أبو يحيى يعلمنا كيمياء المتفجرات وفيزياءها. وقد تعلمنا الفرق بين المتفجرات عالية الكثافة ومنخفضتها، وكيف نحسب تأثير قنبلة معينة استناداً إلى تسارع تفجرها. علمنا أبو يحيي التركيبة الكيميائية لكل نوع من أنواع المتفجرات، كما فسر لنا ردود الأفعال الحاصلة بعد الانفجار. شرح لنا أنواع الرضوض المختلفة التي يمكن أن تنشأ بالاستناد إلى المسافة التي كانت تفصل الضحايا.

تماماً كما كان أبو سهيل قد فعل في أثناء التدريب على المسدسات والبنادق والرشاشات، فإن أبا يحيى قام أيضاً بإعطائنا دروساً عن أسلحة غير موجودة في المعسكر ولكنها قد تتوفر يوماً. وفي أحد الأيام علمنا كل ما كنا بحاجةٍ إلى معرفته عن المتفجرات النووية.

كان هناك مخزون هائل من الألغام في المعسكر، وأحياناً كنا نتدرب بألغام حية كي نتمكن من دراسة قوة التفجيرات وتأثيرها. بدأنا بالألغام المضادة للدروع التي كانت عموماً محشوة بالتي إن تي. وقد كانت تنفجر دائماً من الأرض إلى الأعلى، خلافاً للألغام المضادة للأفراد القابلة للانفجار في الاتجاهين كليهما.

تعلمنا عن العبوات الناسفة والألغام المرتدة التي تُدفن تحت الأرض وتُفجَّر بشريط موصول. ولدى صعق أي لغم مرتد فإن من شأنه أن يقفز بضع أقدام في الهواء ثم ينفجر على مستوى الرأس أو الصدر، ويبعثر الشظايا بقوة غير قابلة للتصديق. وهذه الألغام كانت شديد الفعالية في عمليات الهجوم على قطعات المشاة حيث يكون الناس محتشدين.

مارسْنا عمليات زرع حقول الألغام التي هي عمليات لا تترك أي مجال لأي نوع من أنواع اللامبالاة. أولاً، كنا نرسم خارطة حقل الألغام بإحداثيات بالغة الدقة. ثم كنا نزرع الألغام. وبعد بضعة أيام كان سيتعين علينا أن نعود إلى الموقع والعثور عليها. كنا نعرف أن علينا أن نرسم خرائطنا بعناية فائقة، وأن نزرع الألغام في الإحداثيات الصحيحة تماماً وبدقة. وإذا انحرف أي مجاهد في أي من المرحلتين، فإن احتمال تعرضه للنسف باللغم الذي زرعه بيده يكون وارداً بقوة.

بالفعل كنت استمتع بالتدرب على المتفجرات. كنت أعشق الدقة المطلوبة في التعامل معها، جنباً إلى جنب مع التركيز الشديد المطلوب أيضاً في إنجاز كل شيء بشكلٍ صحيح مئة بالمئة. كنت أتسمَّر في مكاني لدى رؤية الوميض المبهر الذي كان يومض لأجزاء بالألْف من الثانية قبل الانفجار وسماع الدوي الهائل الذي كان يظل يتردد لانهائياً على جداري الصدع العميق.

لن أنسى ما نسيت اليوم الأول الذي سمح فيه أبو يحيى لمجموعتنا أن تحدث انفجاراً حقيقياً. أمضينا بعد الظهر ونحن نحفر خمسة عشر ثقباً في

فضاء مكشوف خلف المعسكر ونحوشها بمادة السمتكس. ربطناها بفتيل صاعق من النوع الذي يستعمله المهندسون في علميات النسف الخاضعة للتحكم. ملأنا الثقوب بالتراب ثم قادنا أبو يحيى إلى إحدى القمم العالية.

حين أصبحنا جميعاً جالسين على حافة الجرف، قام أبو يحيى بإدارة ذراع صندوق الجحيم لتوليد شحنة كهربائية. ثم ضغط المقبض بعنف لإدخال الشحنة في الفتيل الصاعق. بعد ثوانٍ قليلة ثمة كان بريق أزرق. وبعده بريق أزرق ثان، فثالث. خمس عشرة ومضة متلاحقة على فترات أقل من أجزاء الثانية، مثل سهام بريق منبثقة من باطن الأرض. وأخيراً بوم بوم بوم مع تفجر السمتكس. خمس عشرة صفعة رعد من قاع الوادي. يا للسحر الآسر!

يوماً خلال فترة تدريبنا على المتفجرات، كُلفنا بحل مشكلة عملية في المعسكر. كانت الهطولات المطرية الغزيرة قد دامت عدداً من الأيام، وكانت أعداد من الكتل الصخرية الكبيرة قد تدحرجت من قمة الجبل إلى قلب النهر أمام المعسكر. كانت الصخور تعيق التدفق ويتجمع الماء وراءها.

أخذنا أبو همام في ذلك اليوم لإزاحة الصخور بالتي إن تي. بجانب الكتل الصخرية زرعنا خمساً وعشرين كيلوغراماً من التي إن تي، كمية أكبر بكثير من أي كمية سبق لنا أن استعملناها من قبل. كانت الكمية أكبر بكثير مما هو مطلوب، غير أن أبا همام أراد أن يمتعنا برؤية انفجار حقيقي.

إعداداً للتفجير، أدخلنا الفتيل الصاعق في كمية صغيرة من السمتكس وربطناه بالتي ان تي. ثم وصلنا الشبكة كلها بكبل كهربائي كَرَرْناه مسافة ثلاثين متراً تقريباً إلى صخرة عملاقة في أعلى النهر.

احتشدنا جميعاً خلف الصخرة. طلب أبو همام منا ألا نسد آذاننا. كان يتعين علينا أن نتدرب على مقاومة جَلَبَة هذه التفجيرات في أرض المعركة. ثم

أمرنا بأن نوصل الكبل بالبطارية. تلفَّتَ مرة أخرى للتأكد من أن أحداً لم يكن قريباً من التي ان تي، وأمرنا بالتفجير.

بدأ أحد الشباب الشيشان يدير ذراع صندوق الجحيم. كنا جميعاً منتظرين قاطعين التنفس؛ كان الآخرون يستمتعون بالتفجيرات مثلي تقريباً، وكان من شأن هذا أن يشكل التفجير الأكبر الذي سبق لنا أن كنا قد رأيناه. بعد ثوانٍ قليلة ضغط الشيشاني على المقبض بقوة.

و... لا شيء. لا انفجار. وقفنا، مسحورين، نظرنا نحو أسفل النهر لنرى ما كان قد حدث. كانت مادة التي ان تي لا تزال هناك. قام أبو همام بمعاينة الكابلات ونظر إلى البطارية في صندوق جهنم. كل شيء كان على الوجه الصحيح. أخذ الذراع بيده هو وراح يديرها. انبطحنا جميعاً وقبعنا ننتظر الانفجار. ضغط أبو همام المقبض، مرة أخرى، لا شيء.

بدا أبو همام في حيرة. وقف وتوجه نحونا، سأل مازحاً: 'إذن، من منكم يريد أن يصبح شهيداً؟' من منا كان يريد أن يتطوع لتفكيك التفجير عن طريق سحب الصاعق. تبادلنا النظرات وابتسمنا ابتسامات عصبية. كنا في مواجهة سؤال جدي.

رفعتُ يدي. قلت: 'أنا سأفعل ذلك.' إذا كان أحد سيغدو شهيداً فأنا هو. راح الشباب الشيشان يتبادلون النظرات، ثم ينظرون إلي؛ كانوا في حال من الذهول. حتى أبو همام بدا مندهشاً. غير أنه هز كتفيه قليلاً وذكّرني بوجوب التحلي بالحذر في التعامل مع الصاعق؛ لقد كان مشحوناً، وأكثر خطراً بما لا يقاس مما هو في العادة. وبطبيعة الحال كنت أعرف ذلك. إذا لمسته بطريقة خاطئة، فقد كان من شأنه أن يشعل التي ان تي. كان من المحتمل أن أتفجر نُتَفاً.

حين انتهى أبو همام، درت نحو الآخرين، حَيَّيْتُ الجميع، قلت: 'السلام عليكم.'

ردوا: 'عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.' نعم السلام والرحمة؛ كان هذا طبيعياً. أما بركات الله، فماذا عنها؟ بدت لي نوعاً من الدعاء قبل الموت.

درت ومشيت مع مجرى النهر عبر الصخور نحو الكتل الصخرية الكبيرة والتي ان تي. في الحقيقة لم أكن أفكر في تلك اللحظة. كنت على ما يشبه اليقين بأنني كنت سأموت، ومسلِّماً بالأمر. ومع ذلك كان ثمة جزء صغير من كياني مقتنعاً بأن هذا لم يكن قَدَري الحقيقي. كنت سأعود يوماً إلى أوروبا. أجلي لم يكن قد جاء بعد.

لم يكن لدي سوى ثوانٍ قليلة لأفكر ملياً بهذا كله قبل أن أجد نفسي أمام الصخور الكبيرة، راكعاً بجانب مادة التي ان تي. كانت المادة صماء، مسالمة في تلك اللحظة. كنت أنا بعيداً عن المعسكر كما عن الجماعة، ولم يكن ثمة أي أصوات على الإطلاق، باستثناء خرير الماء اللطيف. كنت أدرك أن من الممكن أن أموت في أي ثانية، أن موتي بدا محتملاً. إلا أن الرعب لم يتملكني.

ملت إلى الأمام، وبطرفي اثنتين من أصابعي سحبتُ الصاعق بقدرٍ كبير من الانتباه. كان كاوياً بحرارته. حملته برهة في يدي ثم وضعته برفق على صخرة قريبة ليبرد. رفعت يدي وأبلغت الآخرين بالإشارة أن الوضع بات آمناً.

مازلت عاجزاً عن تفسير سبب تطوعي في ذلك اليوم. في الحقيقة، تطوعت دون تفكير. في تلك اللحظة، شعرت بأن الأمر كان حاسماً بالنسبة إلى مهمتي، رسالتي. ولكن أي رسالة؟ رسالتي بوصفي مجاهداً؟ أم رسالتي بوصفي جاسوساً؟ بالنسبة إلى الرسالتين، كلتيهما، كما أفترض.

كنت قد أصبحت شديد الالتصاق بإخواني في الجماعة في هذه المرحلة، وكنت قد أمضيت أشهراً متحدثاً عن، ومفكراً بمتطلبات الجهاد. شعرت أن من

واجبي بوصفي مجاهداً أن أُضحي بنفسي لله من أجل مساعدة إخواني. لم يكن ثمة أي خيار آخر، ولم أكن أخاف الموت. غير أنني كنت في الوقت نفسه، أدرك، بطبيعة الحال، أن من شأن إقدامي على نزع الصاعق أن يزيل أي شكوك محتملة لدى أي شخص في المعسكر حول التزامي.

رسالتاي، جاسوساً ومجاهداً، باتتا الآن واحدة ومجسِّدتين للرسالة ذاتها. كنت قد أذَبْتُ نفسي كلياً في بوتقة دَوْري. غير أن ذلك هو ما يجب على أي جاسوس أن يفعله كي ينجح. ما من أحد يستطيع أن يعيش حياة مزدوجة طويلاً ويتوقع الفوز والاستمرار دون انكشاف. كان لابد لي من أن أغطس منخرطاً مئة بالمئة.

ومع ذلك فإن الأمر كان شديد البساطة بالنسبة إلي. لحظة حطَّتْ الطائرة في كراتشي كنت قد توجهتُ مباشرةً إلى المسجد كما لو كنت قد درجت على أداء صلواتي الخمس في اليوم حياتي كلها. هنا في خالدان كثيراً ما كنت قد حلمت بالعودة إلى بلاد الشيشان مع أعضاء مجموعتي وتوظيف ما كنت قد تعلمته لإفناء الغزاة الروس.

أي رسالة كانت هي إذن؟ هل كنت جاسوساً ناجحاً لأنني استطعت أن أذيب نفسي تماماً في بوتقة دوري بوصفي مجاهداً؟ أم كنت مجاهداً صالحاً لم يصبح جاسوساً إلا بالصدفة؟

التكتيكات

بعد انتهائنا من المتفجرات، انتقلنا إلى التدريب التكتيكي الذي دام عدداً من الأشهر. وفي هذا التدريب تعلمنا كيف نقاتل في أوضاع واقعية من صميم الحياة. تعلمنا كيف نشغِّل أجهزة البث اللاسلكي وشيفرة المورس. تعلمنا كيف نعطي إشارات ليلية باستخدام الضوء. تعلمنا كيف نجمع المعلومات عن خطط

obeikandl.com

العدو، وكيف ننشر معلومات زائفة عن خططنا نحن. تعلمنا كيف ننصب كميناً في المدن وبين الجبال. تعلمنا كيف نرد لدى الوقوع في كمين نصبه العدو. تعلمنا كيف ننسق بين مجموعات متعددة تمهيداً لأي هجوم. تعلمنا كيف نوظف أسلوب التمويه من أجل الاقتراب من أحد الأهداف. تعلمنا كيف نسعف إخواننا في الميدان، وكيف نرحِّلهم ونخليهم من الميدان عند الضرورة. تعلمنا كيف نداهم بيتاً وكيف ندافع عنه. تعلمنا كيف نختطف ونغتال، وكيف نقتل بأيدينا.

تعلمنا مهارات متباينة من مدربين مختلفين. كان المدربون يتنقلون بين المجموعات من مجموعة إلى الأخرى. وأحياناً كان المدربون يغيبون أسابيع دفعة واحدة. وأحياناً أخرى كان مدربون يأتون من معسكرات أخرى للبقاء مدة أسبوعين فقط أو نحوها. في أوقات معينة كانت مجموعات كاملة تُرَحَّل إلى معسكرات أخرى، ثم تعود بعد بضعة أسابيع. لم نكن نعرف، بالمطلق، أين كانت تذهب، لأن طرح الأسئلة كان محظوراً.

مرة غادرت مجموعة مؤلفة من سبعة شيشان المعسكر. وبعد ستة أسابيع عاد خمسة منهم. أحدهم كان يعاني من حروق في كل جسده. أيٌّ منهم لم يقل كلمة واحدة عما كان قد حدث، وما من أحد سأل إلا أنه كان واضحاً أنهم كانوا يتبعون دورة متقدمة في دراسة المتفجرات وأن اثنين منهم كانا قد تفجرا.

كان ابن الشيخ قد جاء إلى المعسكر قبل مغادرة أبي بكر وأبي سهيل إلى طاجكستان ببضعة أيام، وتولى تدريب مجموعتنا على الاغتيال. كنا نتدرب في الحقل المكشوف الممتد أمام المعسكر. نظمنا مسارات معقدة لتقليد حالات واقعية قد نجد أنفسنا فيها بعد عودتنا إلى أوطاننا. ففي أحد المواقف، مثلاً، تعلمنا كيف نغتال أحدهم في مقهى رصيفي على أحد الشوارع المزدحمة. كنت سأجلس خلف أحد الشيشان على دراجة نارية يقودها باتجاه الهدف. ومع اقترابنا من الأخير كان سيبطئ وأنا سأقفز عن الدراجة إلى الأرض ثم اندفع باتجاه الهدف

فأتوقف لأطلق النار من رشاشي ثم أقفز لامتطاء الدراجة النارية من جديد لتأخذني بعيداً. كان من الصعب ضبط التوقيت بدقة وقد تدربنا على العملية مرات عديدة.

بل وقد كان الوضع أكثر صعوبة لدى كون الرامي والهدف، كليهما، متحركين. كانت ثمة أشرطة مشدودة عبر الحقل، وعليها أهداف قابلة للتحريك بالشد من جهة إلى أخرى. كنا نتدرب على إطلاق النار عليها من داخل شاحنة متحركة، أو من المعقد الخلفي لدراجة نارية. حتى قبل البدء بالتجربة، أمضى ابن الشيخ ساعات طويلة معنا في غرفة الصف وهو يعلّمنا فنون حساب سائر المتغيرات: سرعة الطلقة، المسافة بين الرامي والهدف، سرعة كل من العربتين أو الجسمين المتحركين.

كانت هناك سلسلة لها أول وليس لها آخر من المتغيرات، وقد تَدَرَّبْنا على كل منها. حقاً كنتُ مستمتعاً بالتحدي الذي ينطوي عليه الأمر، وعشقتُ الإحساس المرافق للوصول آخر المطاف إلى مستوى إتقان العملية بعد عددٍ من الاختبارات والمحاولات المتكررة. كذلك كنت في الحقيقة أحب العمل مع الشيشان. كنت شديد الإعجاب بهم. على الرغم من أنهم كانوا أصغر مني سناً بكثير، فقد وجدتهم مكرِّسين أنفسهم كلياً لتعلم كل شيء يستطيعون تعلُّمه.

مع مرور الزمن، تعلَّمْنا كيف نعمل كفريق. على الدوام كنا نعرف غريزياً أمكنة وجود إخواننا، وتعلمنا تنسيق حركاتنا بدقة. أحياناً كان يسود شعور كما لو كنا جسماً واحداً يتحرك معاً، جسماً أحادياً قاتلاً.

ومما فاجأني أن الشيشان كانوا أسرع مني في تعلم أشياء كثيرة. كنت قد قضيت أعواماً وأنا أتدرب على السلاح عندما كنت أعيش مع إدوار، في حين كانوا قد بدؤوا لتوِّهم. وقد كانوا صغاراً جداً في السن؛ ربما لم يكن أكبرهم سناً

قد تجاوز الثامنة عشرة. غير أنني ما لبثت أن بدأت أرى أنهم متفوقون علي ارتباطاً عاطفياً بوطنهم. بدوا شديدي التوق للعودة إلى مسقط الرأس لقتل الروس.

بالطبع، لم أطرح عليهم قط أي أسئلة، كما لم يسألوني أي سؤال. إلا أنهم أماطوا اللثام عن أنفسهم شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت. جميعاً كانوا مسكونين بأشياء كانوا قد رأوها في بلدهم. قدم كل منهم، بطريقته الخاصة، وَصْفاً لحضور الموت الدائم في قريته، بل في عائلته بالذات على الأغلب. تحدث بعضهم عن المعركة الرهيبة التي جرت في غروزني شتاء العام الماضي. تحدثوا عن القصف السجادي والتدمير والجثث الممددة في الشوارع.

لم يكن الشيشان يعرف بعضهم بعضاً منذ وقتٍ طويل. التقوا في إسلام أباد. أرسلتهم أسرهم التي أرادتْ إبقاءهم بعيدين عن الحرب. غير أن أياً منهم لم يكن راغباً في أن ينأى بنفسه عن هذه الحرب. ما إن وصلوا إلى الجامعة في إسلام أباد حتى جُندوا للمجيء إلى المعسكرات. كانوا ممنونين لأنهم جُلبوا إلى هنا، وشديدي الغضب والسخط على أولياء أمورهم الذين حاولوا إبقاءهم بعيدين عن الجبهة. بعد أن شرحوا هذا لي، فهمت ذلك التوتر المرعب الذي كنت شاهداً عليه في مركز التبليغ بين الأب الشيشاني وابنه.

أصغر الصبية، ذلك الصغير جداً، الذي كان أوّل مطلقي النار من مدفع الدي اش كي، كان هو الأشرس بما لا يقاس. كان طفلاً عذب المنظر، أشقر الشعر، أبيض البشرة، وأزرق العينين الواسعتين. كان مختلفاً عن الآخرين، أكثر جدية. لم يكن يبتسم أو يضحك قط مع الآخرين. نادراً ما كان يتكلم، ولكنه إذا فعل فقد كان لئيماً. ففي حين كان الآخرون يتحدثون عن العودة إلى الوطن لقتل الجنود الروس، دأب هو على الكلام عن حز رقابهم.

شعرت بالأسف من أجل الصبي، وأردت مساعدته. حاولتُ قدر استطاعتي أن أساعده في أثناء التدريب، كما حاولت ملاطفته قليلاً خارج ساعات التدريب. ومع ذلك فإنه لم يطّلعني على قصته إلا بعد عددٍ من الأشهر. كان الروس قد اجتاحوا قريته ونشبت معركة رهيبة. وفي أحد الأيام قصف الروس بيته بقذيفة مورتار. جميع من في البيت قتلوا فوراً، أفراد عائلته جميعاً. لم يقتصر الأمر على أبويه وإخوته وأخواته. كان شاملاً للعائلة كلها. كان شاملاً لخمس عشرة شخصاً.

مدربون مختلفون كثيرون جاؤوا من معسكرات أخرى لإكسابنا مهارات محددة. طوال أسبوعين، اتبعنا دورة تدريبية رياضية متخصصة بقيادة جزائري يدعى أسد الله. كان ضخماً. وبعينيه الخضراوين وشعره الأحمر، بدا أشبه بلاعب رَغْبي(*) إيرلندي.

وفي مرة أخرى جاءنا مدرب لمدة ثلاثة أسابيع ليعلمنا فن القتال بالأيدي. كان الإخوان في المعسكر يتهامسون بأنه كان كولونيلاً (عقيداً) في الجيش المصري، فرقة الوحدات الخاصة. وقد علمنا أشياء كثيرة. علّمنا فن مراوغة الاعتقال، فن الهرب بعد الاعتقال، فن تحويل حاجيات صغيرة إلى أسلحة قاتلة، فن تجريد العدو من سلاحه فاستخدام هذا السلاح ضده.

علّمنا كيف نقتل شخصاً بصمت عن طريق الاقتراب منه من الخلف وغرز السكين في المكان المناسب تماماً لتفجير الرئتين كي يتم الاختناق آنياً. علمنا كيف نقتل دون أسلحة بالمطلق، باليدين أو القدمين العاريتين فقط. كنا نتبادل ممارسة هذا كله، وكان هناك عدد كبير من الإصابات خلال هذه الأسابيع.

(*) الرغبي هو أحد أشكال كرة القدم، وهو شائع في البلدان الانجلو - سكسونية.

obeikandl.com

قضينا أياماً في تعلم تكتيكات المراقبة والرصد. تعلَّمنا كيف نراقب مبنى تمهيداً لنسفه. كان يتعين علينا أن نعرف ما إذا كان ثمة حُراس أو كاميرات فيديو، طبيعة مواد البناء، النقاط الأضعف في الهيكل، الأمكنة الأكثر كثافة في المبنى وفي أي أوقات من اليوم.

تعلمنا أيضاً كيف نراقب أهدافاً بشرية، لأن المراقبة جزء أساسي من عملية التخطيط لأي اختطاف أو اغتيال. مرة، زُوِّدنا باسم أحد الإخوان في المعسكر وطُلب منا أن نخضعه للمراقبة أياماً، مسجلين ملاحظاتنا عن كل من حركاته وفي أي وقت. لم يكن مسموحاً أن نمكّن الأخ من الغياب عن أعيننا، غير أننا كنا ملزمين أيضاً بألا نمكِّن أحداً من اكتشافنا. دَلَّنا أبو يحيى على نبات تنمو على الوجوه السفلية من أوراقه فطور صالحة للأكل، كنا نستطيع تناولها لسد الجوع دون أن نمكّن الهدف من الخروج من دائرة الرؤية.

علَّمنا أبو يحيى كيف نوظف مهارات المراقبة والرصد لدينا من أجل تنفيذ أي عملية اختطاف. وقد بين أنه من الأفضل دائماً خطف الشخص من بيته بالذات كي لا يكون ثمة أي شهود. غير أن من الجوهري بادئ ذي بدء اكتشاف ما هو جارٍ داخل البيت. لابد من معرفة أولئك الذين يعيش الهدف معهم. متى يغادر المنزل صباحاً ومتى يعود؟ متى يكون سهران ومتى يكون نائماً؟ كيف يتحرك داخل البيت؟ هل يملك سلاحاً، أي سلاح، أم لا؟ تعلَّمْنا كيف نرصد منزلاً للحصول على جملة هذه المعلومات، غير أن أبا يحيى أفادنا بأن أفضل وسائل جمع المعلومات الاستخباراتية الدقيقة تبقى على الدوام متمثلة برشْوَة بعض أفراد العائلة أو تهديدهم.

وبعد ذلك علَّمَنا أبو يحيى كيف ننظم عملية الاختطاف الفعلي. كيف نتسلق الجدران أو نتسلل عبر البوابات دون أن يرانا أحد. كيف نقتل الحُراس وندخل البيت. كيف نباغت الهدف من الخلف ونقيِّده، وكيف نخدِّره بتغطية وجهه بقطعة

قماش مبللة بالكلوروفورم. حذَّرَنا من ترك قطعة القماش على الوجه طويلاً، خشية تعرض الضحية للموت، فلا يعود ذا نفع.

علَّمَنا أبو يحيى هذا كله بالاستناد إلى دليل تعليمي عملاق. جميع المدربين كانوا يصطحبون الكتاب نفسه؛ كان الغلاف أخضر وأحمر مع رشاشي كلاشنكوف وكتابة بالأحرف العربية. كان الكتاب يضم بين دفتيه آلاف الصفحات ويحتوي على تعليمات حول كل نوع من أنواع العمليات العسكرية والفدائية، بدءاً بنزع فتيل لغم أرضي مفخخ وانتهاءً باستهداف طائرة بصاروخ أرض - جو.

كانت ثمة رسوم توضيحية في الدليل، وكان المدربون يطلعوننا عليها أحياناً لمساعدتنا على فهم بعض الجوانب. لم أكن أجيد التكلم بالعربية بعد، رغم أنني كنت أتحسَّن باطّراد، كما أن الشيشان لم يكونوا قادرين على التكلم بإنجليزية سليمة. وبالتالي فإن الرسوم كانت مفيدة جداً.

ذات يوم، طلب أبو يحيى منا أن نتحلق حوله لننظر إلى رسوم فصل الاختطاف، التي كانت تبين العملية خطوة خطوة. أمتعتني رؤية الرسوم التي عرضها علينا. كنت قد رأيتها من قبل: كانت هي نفسها رسوم الكتب التعليمية الأمريكية التي كان قد وقع اختياري عليها وأنزلتها عن الرفوف في البيت الآمن ببيشاور.

الأمير

بين الوقت الذي التقيت ابن الشيخ فيه ببيشاور ويوم وصوله إلى خالدان كنت قد عَرفت مزيداً من الأشياء الكثيرة عنه. فالجميع في المعسكر كانوا يتحدثون عن ابن الشيخ، على الرغم من أننا كنا ممنوعين من الثرثرة والقيل والقال. عرفت أنه أمير خالدان مع العديد من المعسكرات التدريبية الأخرى. عرفت أنه من ليبيا ومعروف باسم ابن الشيخ الليبي. عرفت أنه كان قد قاتل ضد الروس في ثمانينيات القرن العشرين.

بعد ذلك، واصل ابن الشيخ القتال ضد محمد نجيب الله الذي كان رئيساً لجمهورية أفغانستان خلال السنوات الأخيرة من الاحتلال السوفيتي، وكان السوفييت، حتى بعد انسحاب الجيش الأحمر، قد استمروا في دعمه. كان عديم الرحمة في جهوده الرامية إلى تحرير البلاد من المجاهدين الذين كانوا يكرهونه. أخيراً تم إجباره على التخلي عن الرئاسة في 1992، حين نجحت فرق المجاهدين المنافسة في السيطرة على كابول. سارع المجاهدون إلى اقتحام مخازن الأسلحة الحكومية الملأى بكميات هائلة من الأسلحة والذخائر فصاروا أكثر قدرةً على القتل.

كان ابن الشيخ بالغ القسوة والصرامة، مثل سائر المدرِّبين. كان الجميع، بمن فيهم أبو بكر، يجلّونه. كان ابن الشيخ هو الأقوى في المعسكر، إلا أنه كان أيضاً وديعاً في تعامله. مرة، حين كنت مريضاً، تولى رعايتي. في الصباح كان يسلق البيض ويجلبه لي إلى المهجع، وكان يأتي خلال النهار ليسأل عن حالي. جلب لي شوربة دجاج وأوضح أن الدجاج غني بالفيتامينات والمعادن ومن شأنه أن يساعدني على التعافي. لم يدم ذلك إلى الأبد بالطبع. بعد ثلاثة أيام أمرني بالشروع في التدريب من جديد. قلت له إنني كنت لا أزال شاعراً بالمرض، غير أنه لم يبالِ. بقي مصراً على أن من شأن الهواء النظيف أن يناسبني.

كان دقيقاً جداً في التدريب، إلا أنه لم يكن سادياً مثل أبي بكر. كان يطالبنا بأشياء كثيرة، غير أنه لم يكن يقول أي كلام نابٍ. وكان يتحدث عن الجهاد بطريقةٍ مغايرة لطرائق الآخرين. لم يكن يقول شيئاً عن القتال من أجل جماعة محددة أو ضد عدو بعينه. كان الجهاد، بنظره، قضية كوكبية. ما من شيء تفعله وما من قتال تخوضه، بصرف النظر عن المكان، إلا ويكون من أجل الأمة الإسلامية جمعاء.

كان حصول كل منا على كلاشنكوفه الخاص يتم خلال التدريب على التكتيكات. كان الأمر بالغ الإثارة. قام أبو همام بتسليمنا إياها، الشيشان وأنا، وأسمعنا محاضرة طويلة حول كيفية التعامل معها. وأوضح أن الرشاش كان أمانة، ملكية غير عائدة لنا، ولكننا مسؤولون عنها كلياً.

قال أبو همام: 'عليكم أن تحافظوا على بنادقكم مثل حفاظكم على حدقات عيونكم. إنها أشبه بقطع من أجسادكم. ستتعطل إذا أهملتموها. يجب عليكم أن تنظفوها وتمسحوها ليلياً. تذكَّروا أن البارودة هي حياة المجاهد. من يفقد سلاحه، يفقد حياته. إنه كل شيء. إنه ابنك، زوجك. حذار أن تنسى ذلك ولو للحظة.'

سرعان ما أصبح كلاشنكوفي جزءاً مني. صرت أنام معه في كيس النوم ليلاً وأصطحبه إلى المسجد عند الصلاة. كنت أعرف مكانه في أي ثانية من دقائق وساعات أي يوم. غير أنه لم يكن مذخَّراً على الإطلاق؛ ذلك هو القانون. تعين علينا أن نُبْقي الذخيرة منفصلة عن السلاح ما لم نكن في نوبة حراسة. وإلا فقد كان من المحتمل أن يجهز بعضنا على بعضنا الآخر.

ذات مساء، كنت جالساً بالقرب من الجامع متحدثاً مع ابن الشيخ وعدد من الآخرين. كل الوقت كنت ألعب بكلاشنكوفي، دائباً على تحريك مقبض التذخير: فوق وتحت برفق. غير أنني لم أكن منتبهاً، وفي إحدى المرات سحبْتُ مقبض التذخير إلى الخلف وأحدث الرشاش طَقْطَقة مسموعة. لم يحدث شيء؛ لم يكن ثمة أي ذخيرة في السلاح، ولو كان لتعين علي أن أشد على الزناد قبل أن تنطلق الرصاصة. غير أن ذلك لم يكن يهم. ما إن سمع ابن الشيخ النقرة حتى التفتَ إلي وقال بحزم: 'اسمع يا أبا إمام. ليست البارودة للعب.' ثم أمرني أن أجري نحو الجبل صعوداً ونزولاً.

سألته: 'كم مرة؟'

أجاب: 'إلى أن أوعز إليك بالتوقف.'

تابعت الجري صاعداً نازلاً مدة زادت على الساعة. كنت منهكاً أساساً من تدريبات ذلك الصباح، وبدوْت في حالة بائسة. ما لبثت أن سمعت أزيز طلقة وصفعة عالية لدى اصطدامها بصفحة إحدى الصخور على مسافة خمسة عشر متراً مني. انتهت العقوبة، عدت إلى المعسكر.

عوقبت كثيراً خلال الفترة التي أمضيتها في خالدان، أكثر من أي شخص آخر. خلافاً لحال المتدربين الآخرين لم أكن أخاف ابن الشيخ أو المدربين الآخرين. من البدايات ذاع صيتي بوصفي مهرِّجاً للصف. لدى قيامي بالترجمة من العربية إلى الإنجليزية للشيشان في أثناء التدريب، كنت أتعمد دائماً إقحام بعض النِّكات أو الطرائف الصغيرة. كان الشيشان يضحكون وكان المدربون ينزعجون. عنَّفَني ابن الشيخ على هذا، كما عنَّفَني على القيام بالشيء نفسه في أثناء المحاضرات المسائية. كان الشيشان يتفجرون ضحكاً في منتصف الدروس الدينية وكان ابن الشيخ يغضب مني. غير أنني لم أقلع عن عادتي، حتى قرر آخر المطاف، منعي من متابعة الترجمة في الدروس المسائية.

كنت مشاغباً من نواحٍ أخرى أيضاً، ولو على نحوٍ غير خطير في أي شيء. كنت أهتدي إلى طرق قصيرة مختصرة في أثناء تمارين الجري الصباحية، وكان ابن الشيخ يسائلني عنها ويعاقبني عليها. مرات كثيرة عاقبني هو ومدربون آخرون بالجري الإضافي وغيره من التمرينات الأخرى بغية تحسين سلوكي. وحين كان ابن الشيخ يصر على إلزامي الانضباط كان يقرِّب وجهه من وجهي كثيراً ويحدِّق في عيني مباشرة. كان ثمة نوع من التحدي؛ كان يريد أن يرى مدى قدرتي على الصمود. باستمرار كنت أردُّ بالقَدْر نفسه من التحديق ولم يسبق لي أن مكَّنْتُه من التقاط أي إشارة تشي بالارتباك.

في الأماسي، حين كان ابن الشيخ يوزع المهام، كان يتم، على نحوٍ شبه دائم، اختياري لمهمة الحراسة الليلية. كانت مهمة مرعبة؛ كان الجو بارداً جداً، وكان الأمر يعني عدم النوم الليل كله. جرى تكليفي بمهمة الحراسة الليلية على نحوٍ مبالغ فيه إلى درجة أن الأمر ما لبث، بعد شهرين، أن أصبح نوعاً من المزاح. حين كان ابن الشيخ يهم بإعلان أسماء المكلفين بالحراسة الليلية، كنت أتقدم إلى الأمام حتى قبل ورود اسمي. كان الإخوان يضحكون من ذلك أيضاً، الأمر الذي لم يفد إلا في مضاعفة غضب ابن الشيخ.

تمثَّلتْ المهمة الممتازة والمرغوبة الوحيدة في خالدان برفع الأذان، بالدعوة إلى الصلاة. فالمؤذن كان يستطيع البقاء في المعسكر طوال النهار ويسترخي فيما الآخرون يتدربون. لم أُكلف بالمهمة سوى مرة واحدة، غير أن الإخوان سارعوا إلى الاحتجاج على بشاعة صوتي. لم يعد يتم اختياري مؤذِّناً مرةً أخرى.

مرة بعد أخرى، دأب ابن الشيخ والآخرون على شرح مدى أهمية أن يكون كل واحد من الإخوان جزءاً لا يتجزأ من الجماعة. فالأخيرة جوهرية لأنها تجعل كلاً من الإخوان أقوى. من شأن غيابها أن يؤدي إلى عثارنا بسهولةفائقة.

كان ذلك صحيحاً بالطبع. وحين كنت مع الشيشان شعرت بنوع من الذوبان في بوتقة الجماعة. ومع أنني كنت أمزح أحياناً، فقد أعطيت كل ما كان عندي للجماعة ولتدريبنا. ومع تزايد اطلاعي على ما كانوا قد شهدوه من معاناة في بلاد الشيشان، تزايدت رغبتي في الذهاب معهم والانتقام. كان جهادهم قد أصبح يخصني.

ولكن من نواحٍ مهمة، لم أكن مثل الإخوان الآخرين. كنت قد نشأت وترعرعت في أوروبا، بكل ما ينطوي عليه ذلك من نزعة فردية. كنت مستقلاً في تفكيري ومستعداً لأن أرفع صوتي معترضاً حين لا أوافق على شيء ما. كنت حراً بطريقةٍ مختلفة عن الآخرين.

ذات يوم جمعة، مَلَلْتُ أخيراً من تنظيف التواليتات. كانت مقزِّزة للنفس على الدوام، إلا أنها ما لبثت، مع تزايد برودة الجو، أن أصبحت أسوأ وأشنع لأن الإخوان لم يعودوا ينزلون إلى النهر لتنظيف أنفسهم.

تلك الليلة، بعد انتهاء الصلاة، قررت أن أقول شيئاً. يجب أن يكون أبو بكر قد شعر بشيء من هذا، لأنه حين وقف ليسأل عما إذا كان لدى أحد منا أي أسئلة نظر إليّ مباشرة. رفعت يدي فوراً.

'هات يا أبا إمام! ما الذي تريد قوله؟' قال أبو بكر وهو يدحرج عينيه قليلاً، فيما راح بعض الإخوان يضحكون ضحكة مكتومة.

وقفت ودُرْتُ لأواجه الجماعة. قلت: 'باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.' مرتِّلاً بجدية زائفة. ثم اقتحمت الموضوع قائلاً: 'إخواني الأعزاء، هذه الليلة أريد أن أتحدث عن هذا الغائط الذي تتركونه لي كي أنظِّفَه وأغسله. يقول النبي إنكم تستطيعون استعمال الحصى لتنظيف أنفسكم إذا لم يكن الماء متوفراً. غير أن هناك ماء على مسافة خمسة أمتار من الحمامات! وما امتناعكم عن استعمال الماء إلا لأنه بارد جداً، فيتعين علي أنا كل يوم جمعة أن أغسل غائطكم عن أكوام الحصى.'

ساد الصمت وعدت أنا إلى الجلوس. نظرات الإخوان راحت تتنقل بين ابن الشيخ وأبي بكر، ذهاباً وإياباً، ومن ثم تعود إليَّ. لم يسبق لأحد أن تكلم بهذه اللغة من قبل في المعسكر، وكان الجميع ينتظرون رؤية العقاب الذي كنتُ سأناله هذه المرة. ولكن شيئاً لم يحصل. تبادل ابن الشيخ وأبو بكر نظرة خاطفة، ولكن أياً منهما لم ينبس ببنت شفة.

فيما بعد، قبيل مغادرتي لمعسكر خالدان، أخبرني أبو بكر أنهما، هو وابن الشيخ، كانا، بعد أن بقيا وحدهما تلك الليلة، قد كررا رواية القصة عدداً من

المرات. قال أبو بكر إنه لم يكن قد سبق له في حياته أن سمع ابن الشيخ يضحك بهذا الصخب والعمق.

طاجكستان

ذات يوم، وصل إلى المعسكر رجل وحده، بلا دليل. جميعاً كنا في المقصف حين وقف أمام المعسكر؛ تبادلنا النظرات دون كلام. قام ابن الشيخ من مقعده ومشى إلى الخارج، وتابعناه يتحدث مع الرجل الجديد لبضع دقائق. كان الرجل أفريقياً، لم يكن واضحاً أهو صومالي، أثيوبي، أم أريتيري. غير أني كنت أستطيع أن أرى من نظراته أنه كان يعاني من خلل ما.

ما برح اثنان من المدربين أن خرجا وراحا يكلمانه فيما عاد ابن الشيخ إلى المقصف. نبه ابن الشيخ من كان يحمل كلاشنكوفه منا أن يبقى يقظاً وأن يُبْقيَ سلاحه في متناول اليد.

خرجنا إلى التدريب بعد الغداء، وعند عودتنا كان الأفريقي قد رحل. علمنا أن أبا بكر كان قد بطحه أرضاً وقيده ثم جرى الاتصال لاسلكياً لطلب إحدى عربات الدفع الرباعي من أجل إعادته إلى الباكستان.

ذلك المساء شرح ابن الشيخ أن الرجل كان قد جاء بلا أوراق. كان قد سبق له أن تدرب في المعسكر، ولكنه كان قد عاد إلى الباكستان. والآن كان راغباً في العودة. فوجئت بأن يكون قد أعاد أخاً سبق له أن كان في المعسكر، وبهذه الطريقة المسرحية المثيرة، فسألت عن الأمر. بدايةً، أوضح ابن الشيخ أنه كان مُلْزَماً بالحذر، وعاجزاً عن قبول أي كان في المعسكر دون الأوراق السليمة. إلا أنه ما لبث أن أضاف أن الأفريقي كان يعاني من خلل معين، خلل في رأسه. وكان من المهم إبقاء أمثال هذا بعيدين عن المعسكر جراء احتمال انطوائهم على الخطر. كان قد رأى أخاً فقد عقله بَغْتةً جراء التعب من القتال. وذات يوم كان

ذلك الأخ قد حمل رشاشه ودخل المسجد وراح يطلق النار. قتل أربعة من الإخوان وجرح عشرة آخرين جروحاً بليغة. كان على ابن الشيخ أن يتحلى بقدرٍ كبير من الحذر.

كان التعب أو الإجهاد العصبي الناجم عن القتال واقعاً. أحياناً كان يفضي إلى الجنون، وأحياناً إلى مجرد اللامبالاة. في أحد الأيام حدد لي ابن الشيخ بقعة في ميدان التدريب الواقع خلف المعسكر. أخبرني أنه، قبل بضعة أشهر من وصولي، كانت جماعة شيشانية مؤلفة من سبعة تتدرب على مدافع المورتار. أحد أفراد الجماعة كان مصادفة قد حمل قذيفة مفخخة بدلاً من أخرى نظامية وما إن أدخلها في السبطانة حتى انفجرت وقتلت الجماعة كلها.

أحياناً كنت أظن أنني كنت، أنا أيضاً، موشكاً على فقدان عقلي. ذات يوم جمعة، بُعيد وصول ابن الشيخ إلى المعسكر، كنت آخُذُ غَفْوةً عند مدخل أحد الكهوف عندما رأيت حلماً بالغ الحيوية. حلمت بأنني كنت مستلقياً أمام الكهف نفسه، وكان أبو سهيل واقفاً عند رأسي مصوِّباً رشاشاً إلى جبهتي.

لحظة كان موشكاً على الضغط على الزناد، أَفَقْتُ من النوم. مضت ثوانٍ غير قليلة قبل أن أدرك أن أبا سهيل لم يكن هناك فعلاً - لم يكن واقفاً فوق رأسي، بل ولم يكن حتى في المعسكر. كان لا يزال في طاجكستان مع أبي بكر. لم يكن ما رأيته إلا كابوساً. غير أنني كنت أتصبب عرقاً، وكان قلبي ينبض بسرعة.

قبل عدد قليل من الأيام أخبرنا ابن الشيخ بأنه كان قد سمع من أبي بكر عبر اللاسلكي. يوم الجمعة السابق، كان أبو سهيل قد فقد عقله. خلال تنفيذ المهمة، تعين على الجماعة عبور نهر خطر. ثلاثة من الطاجيك كانوا قد غرقوا. وعلى الأثر كان أبو سهيل قد فقد عقله ولم يكن قد تعافى بعد.

صعقني أن يكون هذا كله قد حصل في اليوم الذي حلمت فيه بالذات، وأدهشني أيضاً أن يكون شيء شبه ملموس رابطاً إياي بهؤلاء الإخوان. أما فيما يخص أبا سهيل فلم أُفاجأ كلياً. تذكرت مدى حدة اهتمامه بنا في أثناء التدريب. كان مولعاً بنا جميعاً، ويريدنا أن ننجح. استطعت أن أتصور المشاعر التي كانت قد راودته بالضرورة حين قضى أولئك الطاجيك نَحْبَهم، الألم الشديد الذي كان ذلك قد سَبَّبَه. استطعت أن أرى أن ذلك كان كافياً لدفعه إلى الجنون.

لم يعد أبو بكر إلى المعسكر لمدة أسابيع بعد إصابة أبي سهيل بالجنون. وحين عاد، كان برفقة أبي سهيل. غير أن الأخير لم يبق في المعسكر إلا ساعات قليلة جرى إبعاده بعدها، وإرساله إلى الباكستان للمعالجة. لم أر أبا سهيل بعد ذلك قط.

كنت أعرف أن عبور أفغانستان برفقة أبي سهيل كان، بالضرورة، أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة إلى أبي بكر، لأن الأول كان قد بات عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. وهي رحلة بالغة الخطورة على أي حال مع بقاء نار الحرب الأهلية مستعرة في أفغانستان. كنت شديد الإعجاب بأبي بكر جراء ما أبداه من شجاعة ووفاء.

لم يبادر أبو بكر قط إلى أي كلام مباشر معي عما كان قد حدث في طاجكستان، إلا أنني سمعت، مع الزمن، قصصاً عن ذلك من الآخرين. بعد فقدان أبي سهيل لعقله، تركه أبو بكر لرعاية بعض الأفغان القريبين من الحدود المؤقتة. ثم انطلق مع الطاجيك لمساعدتهم في مهمتهم الأولى. كان قد قَتَل عدداً من الروس وهو هناك، وبعض الإخوان تهامسوا زاعمين أنه كان قد قطع رؤوسهم.

قام أبو بكر مرات كثيرة بمرافقة المجموعات الكشميرية والطاجيكية التي كان قد سبق له أن دَرَّبَها. كان يدرك أن التدريب في المعسكر لم يكن مثل الواقع

على أرض المعركة. أراد أن يتأكد من أن طلابه كانوا يتذكرون كل شيء سبق لهم أن تعلموه ويعرفون كيف يوظفون مهاراتهم على الجبهة. ومع مرور الزمن، اكتشفت أن هذه كانت طريقة أبي بكر للتعبير عن المحبة.

العرب

بعد نحو شهرين من وصولي إلى خالدان، رحل عبد الكريم. لم أودِّعه. عدت من التدريب ذات عصر وفوجئت بأن أشياءه لم تعد موجودة. ذلك هو ما حصل. لم يكن ثمة أي شيء خارق للعادة حول مغادرة عبد الكريم. فالناس كانوا يأتون ويذهبون باستمرار، ونادراً ما كنا نودِّع. لم يكن أحد مستاء من الأمر. ما من أحد منا إلا وكان يعرف بأنه هنا لسبب أو آخر.

متدربون كثيرون بقوا عدداً من الأشهر، مثلي أنا. غير أن آخرين كانوا يبقون أسبوعين فقط لاكتساب مهارات محددة جداً: كيفية الانقضاض على رتل أو نسف أحد الجسور. هذه المجموعات كانت عموماً من طاجكستان، أوزبكستان، قيرغيزستان، كشمير وبلاد الشيشان؛ أي من أمكنة قريبة، إلى حدٍّ ما، من المعسكرات. كانوا يتدربون بمعزل عن جميع الآخرين، إما مع أبي بكر أو ابن الشيخ، عادةً، ولم نكن إطلاقاً نرى ما كانوا يفعلونه. أحياناً، كانت المجموعة ذاتها ترحل ثم تعود من جديد لتتعلم شيئاً جديداً.

بعد رحيل عبد الكريم، صرت أقضي وقتاً أطول وأنا أتحدث مع إخوان من أمكنة أخرى. كنت مولعاً بالكشميريين. كانوا يتحدثون عن حربهم، ويصرون على وصف الهنود بعدو شرير لا يعرف معنى الرحمة. غير أنهم كانوا يحدثونني أكثر الأحيان عن أرضهم وعن مدى حبهم لها. لم يكن قد سبق لي أن سمعتُ أناساً من أي مكان يتكلمون بهذه الجدية والعمق عن جمال أرضهم - عن البحيرات والأنهار والجبال المُعانقة للسماء.

كذلك كان الكشميريون يتحدثون عن طريقهم إلى المعسكر. فهم لم يأتوا، كما فعلت أنا، عبر بيشاور. أولاً تلقوا التدريب في إحدى وحدات الجيش الباكستاني التي ما لبثت أن أوصلتهم إلى المعسكرات. كانت روايات الجميع متطابقة.

أما الطاجيك فكانوا يحاربون الاحتلال الروسي لوطنهم، كما لم يكونوا أقل من الشيشان حقداً على الروس. أحد أكثر الإخوان الذين التقيتهم في المعسكر حدةً كان طاجيكياً. كان يمارس تمارين زائدة وحده إضافةً إلى كل ما كان يتلقاه مع مجموعته. كان يدحرج الصخور ويتسلق الجروف والصدوع الخطرة يومياً ليكتسب مزيداً من القوة. يداه كانتا داميتين باستمرار لدى عودته إلى المعسكر لتناول العشاء.

لم يكن الطاجيكي يتجاوز الرابعة عشرة من العمر. أما الآخرون في مجموعته فكانوا في عشرينياتهم، مما أبقى الصبي وحده في أوقات الفراغ. ثمة كان نوع من ملعب التمارين السويدية المكشوف بالقرب من النهر والحمامات، وكنت أراه هناك وحده. ثمة كانت أثقال بديلة مصنوعة من قضبان معدنية على أطرافها كتل من الصخر مثبتة بالإسمنت. كنت أراه يرفعها ساعات طويلة. كانت الأثقال تبدو أثقل منه بكثير.

انجذبتُ إلى الصبي، وحزنت عليه؛ بدا وحيداً. حاولت التحدث معه وممازحته، إلا أنه بقي مخيف الجدية وعصياً على الابتسام. فيما بعد، فاتحت أحد أعضاء مجموعته وسألته عن سبب إصرار الصبي على التدرب المفرط. روى لي الطاجيكي قصة إجبار الروس للصبي على حضور عملية إعدام جميع أفراد أسرته رمياً بالرصاص عن قرب.

كنت فخوراً بالحَدَث الطاجيكي. كان قد أخذ مصيره بيديه. رفض الإذعان لمقتل عائلته. حتى في مثل هذه المرحلة المبكرة من العمر، فهم واجبه بوصفه

مسلماً. ومع ذلك لم أستطع قط أن أتآلف مع هذه القصص، مع هؤلاء الأطفال الذين كانوا قد عانوا هذه المعاناة كلها. لم أشعر بأي أسف بالنسبة إلى المجاهدين الأكبر سناً، لأنهم كانوا، مثلي أنا، مستعدين لأن يموتوا. كانوا قد حددوا خيارهم. إلا أن قلبي كان ينفطر إزاء إجبار هؤلاء الأطفال على التضحية بأرواحهم في هذه السن المبكرة، قبل أن تتاح لهم فرصة تناول قرن من الآيس كريم أو تقبيل فتاة.

الصبي الطاجيكي لم أودِّعه قط أيضاً. غادر ذات يوم مع باقي أفراد المجموعة. ومثل كثيرين ممن التقيتهم في خالدان، من المحتمل أن يكون في عداد الأموات.

بعض المجاهدين العرب مروا بالمعسكر في طريق عودتهم من الحرب في البوسنة. خلال الصيف كله، ظللنا نتابع تقارير إخبارية عن البوسنة عبر الإذاعة الفرنسية الأولى (RFI) وهيئة البي بي سي (BBC) العالمية. غير أن الإذاعتين كانتا تركزان أكثر الأحيان على جملة المساعي الدبلوماسية المبذولة في كل من واشنطن، باريس، لندن، وغيرها.

أما العرب العائدون من الجبهة فكانوا يتحدثون عن الواقع على الأرض. سمعنا عن المذبحة في سيربرينيتسا، حيث قام الصرب بطرد عشرات آلاف البوشناق من بيوتهم. سمعنا عن جملة الفظاعات التي أعقبت ذلك في بوتوكاري، حيث كان اللاجئون قد هربوا ولحق بهم الصرب. سمعنا عن عمليات الاغتصاب والقتل وشحنات الرجال الذين فُصلوا عن عوائلهم، أُعدموا، ودُفنوا في قبور جماعية. سمعنا كيف أن الصرب جمعوا الرجال وحشروهم في مبانٍ ثم ضربوهم بالقنابل اليدوية لقتلهم جميعاً دفعة واحدة. سمعنا عن الرجال الذين نجوا عن طريق الجري أياماً عبر الغابات، عن وصولهم إلى المناطق الآمنة مسربلين بالدم فاقدين عقولهم تماماً جراء الأهوال التي كانوا قد تعرضوا لها.

obeikandl.com

سمعنا أن القوات الدولية لم تفعل شيئاً لحماية البوشناق. سمعنا أن قائد قوات حفظ السلام الهولندية شوهد وهو يتناول الطعام والشراب مع الجنرال الصربي راتكوملاديتش. سمعنا أن الجميع تخلَّوا عن المسلمين وسمحوا بالإجهاز عليهم.

غير أن العرب لم يكونوا أيضاً معجبين حقاً بالبوشناق رغم كرههم للصرب. كانوا يقولون العديد من الأشياء ذاتها عن مسلمي البوسنة، تلك الأشياء التي كنت قد سمعتُها من أمين وياسين. كانوا يقولون إن البوشناق لم يكونوا مسلمين حقيقيين لأنهم يشربون الخمر ويسمعون الموسيقا ولأن نساءهم لا يقمن بتغطية رؤوسهن.

مع تسلل الصيف إلى عباءة الخريف، مزيد من العرب جاؤوا إلى المعسكرات مشحونين غضباً من البوشناق. فهؤلاء كانوا قد غدروا بالمجاهدين. كانت حفيظة العرب ثائرة لأن إخوانهم البوشناق بدؤوا يطردونهم من البلاد أو يعتقلونهم بعد أن كانوا قد قدموا أرواحهم دفاعاً عن هؤلاء الإخوان. بل وثمة قلة روت قصصاً عن قيام بوشناق بقتل عرب ممن قاتلوا في صفهم.

غير أن عمليات الاغتصاب كانت في الحقيقة هي الأكثر إزعاجاً للعرب. قيل إن الصرب اغتصبوا الآلاف والآلاف من البوشناقيات، وأعداد كبيرة منهن غدون حوامل. لم يكن الرجال البوشناق مستعدين للمسهن. كانوا شديدي الحقد على الصرب إلى درجة أنه بدا من المستحيل أن يتصوروا تنشئة أطفال أنصاف أعداء. إلا أن العرب كانوا مقتنعين بأن من واجبهم الزواج من هؤلاء النساء وتنشئة أولادهن ليصبحوا مجاهدين قادرين على نحر الصرب، أشقائهم بالدم.

خلال رياضة الجري الصباحية في أحد الأيام وجدتني منخرطاً في حوار مع أحد العرب العائدين من البوسنة. كلانا كنا في مؤخرة الرتل خلال فترة

الجري، ومع الانتهاء من الجري كنا قد أصبحنا بعيدين وغير قادرين على رؤية الإخوان. قررنا أن نقطع المسافة الباقية مشياً بدلاً من الجري، وفي أثناء المشي حدثني عن أنه كان قد رأى شيئاً جديداً في ساحة المعركة. كان الشيء نوعاً من البوصلة التي تستخدم الأقمار الصناعية توخياً للدقة؛ كان العرب يستخدمونها للتسديد. بدا الأمر مفيداً حقاً، وسألته عن سبب عدم اصطحابه واحدة لنستخدمها في المعسكر. ابتسم وقال إنه كان سيرسل واحدة فور حصوله على الفيزا والسماح له بالعودة إلى الوطن.

نسيت كل شيء عن ذلك الحوار، وفوجئت حين جاء ابن الشيخ بعد ثلاثة أشهر ومعه طرد من العربي آنف الذكر. سألني ابن الشيخ رافعاً الطرد: 'أتعرف ما هذا؟'

أجبت: 'نعم أعرف بالطبع. حدثني عنه العربي. إنه جهاز يدعى جي بي اس (GBS)' كنت مسروراً جداً لمعرفتي شيئاً لم يكن ابن الشيخ يعرفه. التمعت عينا ابن الشيخ، وشكرني على التفكير بالطلب من العربي أن يرسل الجهاز.

في اليوم التالي رأيت عبد الحق يعبث بالجهاز، وثارت حفيظتي. كان مصحوباً بدليل باللغة الإنجليزية، وكان يحاول تعلم طريقة الاستخدام. رأيت ذلك بعيداً كلياً عن الإنصاف. لم يكن حصولنا على الجهاز إلا بسببي أنا، آخر المطاف. كان يجب على ابن الشيخ أن يمكِّنني أنا من استخدامه أولاً.

بعد بضعة أيام، اكتشفت السبب. كان الجهاز معروفاً باسم جي بي اس (GPS)، لا جي بي اس (GBS). وابن الشيخ كان يمتحنني وسقطتُ في الامتحان.

كان هناك عرب آخرون كثيرون بالطبع، من سائر أجزاء شمال أفريقيا والشرق الأوسط. غير أن السعوديين كانوا الأبرز. ثمة مجموعات سعودية كانت

تأتي إلى خالدان لتبقى فترات قصيرة؛ كانوا مختلفين عن الجميع هناك. كانوا أكبر سناً، في أربعينياتهم وخمسينياتهم، وأقل خشونة.

كان يتضح مباشرةً أن هؤلاء كانوا أغنياء. فهم لم يأتوا في الحقيقة للتدريب كما كان الجميع يفعلون. كانوا يأتون في رحلات سياحية. لم يكونوا مطالبين بالجري معنا في الصباح، إذ كان أكثرهم يبقون نائمين ولا يخرجون من المهاجع إلا عصراً للَّعِب بالبنادق.

لم نكن ننزعج بوجودهم - على العكس من ذلك تماماً. فوجودهم كان يفضي إلى تحسين الطعام كثيراً، يجعله خالياً من الحشرات الموجودة عادةً. كنا نحصل على الزبدة والعسل مع الخبز، وهو ما لم يكن يحصل على الإطلاق دونهم. في بعض الأيام كنا نحصل حتى على اللحم.

لم يكونوا مجاهدين، إلا أنهم كانوا على الدوام يبدون ودودين ولطفاء جداً. ذات ليلة عانيت من حمى شديدة. كنت جالساً خارج الجامع في وضع مرعب حين رأتني حفنة من السعوديين. جلسوا معي مباشرةً وراحوا يرعونني. جلبوا لي ماء وطمأنوني إلى أنني كنت لن ألبث أن أتحسن بسرعة. ثم وضع أحدهم يده على جبهتي. وبيده الأخرى فتح القرآن وراح يقرأ. شعرت بكثير من الراحة جراء برودة يده ونعومة صوته المردد للكلمات التي كنت قد سمعتها مرات لا تُعد ولا تُحصى من قبل.

بعد فترة بدأ أفراد الجماعة يقومون ليذهبوا إلى النوم. أنهى الرجل قراءة السورة القرآنية، أغلق المصحف، ورفع يده عن جبهتي. غريزياً قلت له: 'لا من فضلك. أرجوك أن تبقى وتعيد يدك على جبهتي. إنها عظيمة.' كنت أشبه بمن يتوسل. مع ذهاب أصدقائه إلى مهجعهم الليلي، عاد الرجل إلى الجلوس بهدوء، مد يده، وراح يقرأ من جديد.

obeikandl.com

هذان هما الشيئان اللذان افتقدتهما بالنسبة إلى خالدان بعد الرحيل: الشفقة والإحساس بالألفة. جميعاً كنا إخوة، كنا نفعل ما نستطيعه لبعضنا البعض. كان اليقين بأن كلاً من الإخوة كان مستعداً للتضحية بحياته من أجلي، تماماً كما كنت أنا سأفعل، رائعاً. لم يكن قد سبق لي أن شعرت مغموراً بمثل هذا الفيض من الحب، محاطاً بهذا القدر من العناية في حياتي. أنا أيضاً أردت أن أرعاهم بالمقابل. ذات مرة، أعطيت ابن الشيخ بعض المال لشراء ذبيحة نأكلها في المعسكر. أوصيته ألا يشي بمصدر الذبيحة، لأنني لم أكن أريد إشاعة ذلك. وبعد بضعة أيام كانت رؤية الإخوان بالغي السعادة بعد الإجهاز على اللحم رائعة. لاحقاً صرت أعطي ابن الشيخ مبالغ لشراء ما كان بحاجة إليه من طعام، ذخائر، مؤن أخرى.

في الصيف، كنا جميعاً نذهب للسباحة في إحدى برك النهر. كنا نبدو سخيفين حقاً. كثيرون من الإخوان كانوا يسبحون مرتدين ملابسهم، ونحن الآخرين كنا نغطي أجسادنا من السرة إلى الركبتين غير أنني كنت أعشق الماء مع ذلك كما كنت قد درجت على أن أفعل وأنا طفل في بلجيكا، وكنت سعيداً فيه. كان الآخرون ينظرون إليَّ باحترام لأني كنت قوياً وقادراً على القفز إلى الماء من صخور عالية فوق النهر.

كل ما كنا نفعله في خالدان كان متركزاً على هدف وحيد: الاستعداد للجهاد. لذا فإننا كنا نتدرب حتى ونحن نمارس رياضة السباحة. كنتُ السبّاح الأفضل ودَرَجْتُ على التباهي بنقل كتل ثقيلة من الصخر عبر النهر في أعمق نقاطه. كان الآخرون يحاولون تقليدي، غير أنهم لم يكونوا متمتعين بما يكفي من القوة مما كان يضطرهم دائماً إلى إلقاء الصخور في الماء قبل الوصول إلى الضفة الأخرى.

غير أن الإخوان ما لبثوا أن انزعجوا مني وراحوا يحاولون أن يتفوقوا علي. غير أنني كنت قادراً على أن أكون أسرع منهم في السباحة، ولم يستطيعوا قط

أن يمسكوا بي. خَطَرَتْ لأحد الشيشان فكرة أفضل: غَطَس في الماء وحاول أن يشدني إلى الأسفل من تحت. أحسست بيده على كاحلي وفقدت توازني. سَقَطَتْ الصخرة في النهر وبدأ جسمي يغطس.

لم يدم الأمر كله سوى بضع ثوانٍ، غير أن ما أذهلني كثيراً هو مدى تحلي الأخ بالمهارة في سحبي إلى الأسفل والمسارعة بعد ذلك إلى تحرير ساقي فور نزول رأسي إلى ما تحت الماء. لم يكن يحاول إيذائي؛ أراد فقط أن يُفْهمني أنه قادر على فعل شيء. تأثرتُ كثيراً بما حصل، ولاسيما حين فكرت بأشقائي. حين كنا نذهب معاً إلى المسبح خلال عطلنا الصيفية في المغرب، كانوا يحاولون إقحامي في الماء وإغراقي وكنت أنا أرد عليهم بالمثل. ما أكثر ما كنا نبالغ!

صحيح أننا لم نكن أسرة في خالدان. كنا شيئاً أفضل بكثير.

بلاد الشيشان

كان ابن الشيخ ألمعياً في جميع المجالات. سبق له أن كان قائداً في الحرب ضد الروس، وكان يعرف كل ما يمكن أن يُعرف عن الأسلحة والقتال. غير أنه كان مثقفاً في الوقت نفسه؛ من الواضح أنه كان واسع الاطلاع وعميقه. كان يتحدث بقدرٍ أكبر من الذكاء والبلاغة مقارنة بجميع الآخرين في المعسكر. وكان صاحب كاريزما خارقة للعادة. حين كان يتكلم كان جميع الإخوان يصغون إليه مشدوهين.

خلال نقاشاتنا في الأماسي كان ابن الشيخ يكثر من الكلام عن الجهاد، وواجب المسلمين في طول العالم وعرضه. كان يشرح الفرق بين فريضة الجهاد وكفاية الجهاد . بين الجهاد الإلزامي أو الدفاعي والجهاد الهجومي أو الاستباقي. جميعاً كنا، برأيه، نخوض فريضة الجهاد، معركة استرجاع أراضي الخلافة (الإسلامية) من الكفار. وحده الخليفة كان يستطيع إعلان كفاية الجهاد فيوعز إلى المسلمين بشن الهجوم على الكفار في البلدان غير المسلمة، لإجبار أولئك

على الاختيار بين الموت والاهتداء إلى الإسلام. غير أن الخلافة كانت قد انتهت مع انهيار الإمبراطورية العثمانية، فلم يبق أي خليفة يمكنه أن يصدر مثل هذا الإيعاز. كان ابن الشيخ يقول لنا إن كل معركة نخوضها لم تكن إلا جزءاً من معركة أكبر لاستعادة الخلافة.

إن معركة استعادة أرض فلسطين من إسرائيل كانت المعركة الأهم التي كان أي مجاهد يستطيع أن يخوضها في حياته. فالقدس قلب الإسلام. وحين يتعرض أي إنسان للخطر فإنه يسارع أولاً إلى حماية قلبه؛ فقط بعد ذلك يبادر إلى حماية باقي أعضاء الجسد. لم تكن فلسطين قضية الجهاد الوحيدة، بالطبع، غير أنها بقيت الأكثر حسماً وأهمية.

كان الجهاد ضد الهندوس في كشمير حيوياً أيضاً. فالهندوس وثنيون. إنهم يعبدون البقرة، تماماً مثل هارون وأتباعه الذين أداروا ظهورهم إلى موسى وراحوا يعبدون العجل الذهبي. لم يكن الهندوس أولئك سوى أحفاد قبيلة يهودية ارتحلت إلى الهند قبل قرون عديدة.

لقد كنت أعتقد أن الشيعة لم يكونوا إلا جماعة كبيرة أخرى من الأعداء. إنهم أصحاب بِدْعَة، أسوأ الذنوب في الإسلام. ليس ثمة أي تجديد، أي ابتداع أو بدعة في الإسلام. ليس هناك سوى القرآن، السنة. ذلك هو السبب الكامن وراء إتقان كل طفل مسلم فن لفظ كلمات القرآن صوتياً (فونَتيكياً). ذلك هو السبب الكامن وراء تولّي قوانين السنة إملاء سلوك كل مسلم. تبقى إيران عدوة أساسية للإسلام، عدوة أخطر من أمريكا أو روسيا أو حتى إسرائيل. الآخرون كَفَرة، أما الشيعة فأخطر بكثير. إنهم دائبون على العمل لتدمير الإسلام وتخريبه من الداخل.

البوسنة، بلاد الشيشان، أوزبكستان، طاجكستان - كلها أساسية وجوهرية. في جميع هذه الحالات كان المجاهدون مشتبكين مع الكفار بغية استعادة

السيطرة على الأراضي الإسلامية. بدا هذا واضحاً للجميع. وما بدا حتى أكثر وضوحاً من ذلك هو مدى أهمية إطاحة أنظمة الحكم العلمانية في العالم الإسلامي. فنظام الحكم الديني هو الشكل المقبول الوحيد للحكم بالنسبة إلى أي دولة مسلمة. أما الآن فلم يكن هناك أي نظام حُكْم ديني إلا في إيران بالطبع، وكون الأخيرة شيعية لم يكن يشكل أي عزاء. أما سائر البلدان الأخرى - من المغرب إلى الجزائر، إلى تونس، إلى ليبيا، إلى الأردن، إلى مصر.... - فكانت خاضعة لحكم الكُفّار لأنها كانت محكومة من قبل البشر بدلاً من الله.

غير أنني كنت أظن أن أنظمة الحكم هذه معادية للإسلام لسبب آخر أيضاً. ما من أحد إلا ويعرف أن هؤلاء الحكام ليسوا إلا دُمى بأيدي قوى أخرى: روسيا، أمريكا، فرنسا، إنجلترا. قوى فارضة نفوذها على العالم الإسلامي كله، منصِّبةً قيادات دُمى لخدمة مصالحها. والجهاد ضد جملة هذه الأنظمة العلمانية لم يكن، في سائر الحالات، إلا حَمْلة صليبية، حرباً مقدسة، ضد النفوذ الأجنبي.

ذات ليلة، سأل أحد الإخوان عن مسرح الجهاد التالي المحتمل. أشار ابن الشيخ دون تردد إلى العراق. فهو غني نفطياً، وحكومته ضعيفة. إن حرب الخليج والعقوبات كانتا قد شلّتا صدام حسين. بات الشعب مستعداً للثورة لأنه عانى طويلاً من الاضطهاد في ظل صدام. كان ثمة سبب آخر لاستهداف العراق: إذا نجح المجاهدون في كسب العراق، فإن إيران سكون قد حوصرت. يا لها من فرصة داهمة بإلحاح شديد!

ومع ذلك فقد كان هناك بَلَدان مسلمان بقينا حريصين على تجنب مناقشتهما بالمطلق، أعني أفغانستان وباكستان. كنا ضيوفاً في كليهما. دأبنا على تسمية أفغانستان بـ 'أرض الجهاد' لأنها كانت قد رحَّبَتْ بنا ومكّنتنا من الإقامة والتدريب استعداداً لمعاركنا في أرجاء العالم. والباكستان كانت حليفة أيضاً؛ فالعديد منا جاؤوا عبر الباكستان وحصلوا على مساعدة الباكستانيين في

الطريق. يضاف إلى ذلك بالطبع أن الكشميريين كانوا قد دُربوا من قبل الجيش الباكستاني.

لم تكن ثمة أي حكومة في أفغانستان. كان رئيس الجمهورية وزعيم تحالف الشمال برهان الدين رباني متشبثاً بأظافره بالسلطة، فيما أحزاب متنافسة كانت تفرض حصاراً على كابول. أما نحن فكنا حريصين على عدم توجيه أي انتقاد إلى الحكومة الباكستانية أيضاً. الشخصية الوحيدة التي كنا نتحدث عنها تمثلت ببناظير بوتو ـ كنا نحتقرها. لم نكن نذكرها باسمها 'بوتو' حين نتحدث عنها؛ كنا نقول: 'العاهرة بوتو.' كان سبب كرهنا الشديد لها متمثلاً بكونها داعية غربية بنظرنا؛ كانت قد عاشَتْ في أمريكا وتعلمت هناك. وهي الآن ألعوبة بيد الحكومة الأمريكية. إلا أنني اعتقد أن حقيقة كونها امرأة هي التي جعلتنا نشعر بأننا أحرار في مهاجمتها.

بالطبع كنا نتحدث عن أمريكا، لأنها كانت الشيطان الأكبر. جميعاً كنا نعرف تلك الحقيقة. غير أن أمريكا لم تكن أمريكا في الحقيقة؛ كانت خاضعة لتحكم إسرائيل. ذلك أيضاً كان واضحاً للجميع. كل ما كانت أمريكا تفعله لم يكن يكتسب معنى إلا من هذا المنطلق، منطلق دعم إسرائيل، بالطبع ولكن إضافةً أيضاً إلى نمط سلوكها في باقي أجزاء العالم. كان الأمريكيون عازمين على شل البوشناق تماماً، فمكّنوا الصرب من قتل أعداد كبيرة منهم ومحاصرتهم. فقط بعد ذلك، بعد أن بات البوشناق بلا أي حول أو قوة، بادرت أمريكا إلى مساعدتهم مقابل التزام البوشناق بطرد جميع المجاهدين العرب الذين كانوا حماتَهم الوحيدين أو اعتقالهم. من الواضح أن الخيوط كانت بأيدي اليهود.

كنت أعلم أن فلسطين كانت قضية الجهاد الأهم، غير أنني لم أكن أريد الذهاب إلى هناك. كنت راغباً في أن أواصل القتال طويلاً، وكنت أعلم أنني لن

أستمر طويلاً في القتال إذا ما ذهبت إلى الشرق الأوسط. كنت سأثبِّتُ قنبلة على صدري وأفجر نفسي فينتهي كل شيء.

لم يكن ذلك لعدم اهتمامي بفلسطين ـ لعل العكس هو الصحيح. فقبل كل شيء آخر ـ قبل الغزو السوفيتي لأفغانستان، قبل انقضاض الصرب على البوسنة، قبل اجتياح الروس لبلاد الشيشان ـ كانت ثمة إسرائيل. إحدى ذكرياتي الأولى هي مشاهدة أشرطة الأخبار مع أبي حين نجح الجيش المصري في دحر القوات الإسرائيلية للسيطرة على قناة السويس في 1973. فرح والدي كثيراً حتى أنه قذف الوسادة إلى الهواء.

ثم كانت الحرب اللانهائية في لبنان. مثل جميع الآخرين، أرعبني حصار بيروت في 1982. كان الإسرائيليون همجيين. هاجموا براً، هاجموا جواً، هاجموا بحراً. قتلوا ما يزيد على عشرة آلاف مدني في سعيهم إلى اقتلاع منظمة التحرير الفلسطينية.

قامت إسرائيل بتدمير بيروت، إلا أن ذلك لم يكْفِ. ثم جاء الأمريكيون وأجهزوا على ما بقي من منظمة التحرير الفلسطينية، غير أن ذلك، هو الآخر، لم يكف. بعد شهر واحد، قامت إسرائيل بعزل مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في بيروت الغربية. سلَّحَتْ المسيحيين، الكتائب اللبنانية، وأطلقت يدهم في المخيم مع أوامر قضت بقتل كل من في الطريق. زعمت الكتائب أنها كانت تبحث عن منظمة التحرير الفلسطينية، ولكنها لم تكن، في الحقيقة، إلا دائبة على قتل المسلمين. وقد فعلت: قتلت النساء، الأطفال، الجميع. قتلتهم بالرصاص والبلطات والسكاكين.

بقي الإسرائيليون عند محيط المخيم وأطلقوا القنابل الضوئية لتمكين الكتائب من مواصلة الذبح في الليل. وحين انتهى كل شيء سارع الإسرائيليون إلى إرسال الجرافات لطمر مئات الجثث المنشورة في الشوارع.

في البداية كان مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية أبطالاً بنظري؛ كانوا يقاتلون لاسترداد أرض إسلامية. غير أن عرفات ما لبث أن غَدَر بالإسلام وخانه في مؤتمر مدريد سنة 1991، ولاحقاً عبر اتفاقات أوسلو في 1993. بعد ذلك خبا بريق منظمة التحرير الفلسطينية في عيني. وخلال الصيف الذي أمضيته في باريس، كنت قد شاهدت فلماً وثائقياً عن الحرب وتبين لي أن مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية لم يكونوا يشبهون المجاهدين في شيء. فمنظمة التحرير الفلسطينية لم تكن إلا حزباً سياسياً مسلحاً. لم تكن تقاتل في سبيل الأمة الإسلامية. كانت تقاتل لأغراض سياسية فقط.

كلما كنت أشاهد شريطاً عن منظمة التحرير الفلسطينية في مركز بومبيدو، كان ثمة موسيقا تصويرية مصاحبة. حتى المسيحيون بدوا أكثر تقوى. كثيرون منهم كانوا يحملون صلباناً صغيرة مثبتة على أعقاب مدافعهم الرشاشة. أما منظمة التحرير الفلسطينية فكانت مشغولة بالإصغاء إلى الموسيقا. لا، مستحيل، هؤلاء لم يكونوا مجاهدين.

جل الإخوان كانوا يعرفون الأمكنة التي كانوا سيتوجهون إليها بعد مغادرة المعسكر؛ كانوا سيعودون إلى الأمكنة التي جاؤوا منها لمباشرة جهادهم. أما أنا فلم أكن قد جئت من أي مكان، أو مع أي جماعة. كنت قادراً على اختيار جهادي الخاص. كنت أستطيع أن أقاتل حيثما أشاء.

وهكذا لم يتعين علي أن أفكر ولو لثانية واحدة حين سألني ابن الشيخ، ذات ليلة، عن المكان الذي كنت أرغب في التوجه إليه بعد مغادرة خالدان، قبل أن أجيب: 'بلاد الشيشان. أريد الذهاب إلى بلاد الشيشان.'

حراس الليل

في إحدى الليالي أيقظني صوت إطلاق النار. كان الصوت قريباً جداً من المعسكر. جلست في كيس النوم ومددت يدي إلى بارودتي. طارتْ.

بام. بام. بام. تات ـ تات ـ تات ـ تات. انفجارات ومزيد من إطلاق النار. كان الظلام دامساً، لم يكن ثمة إلا القليل من النور القَمَري الفضي. تلمَّسْت حولي في الجهات كلها بحثاً عن كلاشنكوفي، إلا أنني لم أجده في أي مكان. تملَّكَني الرعب. إذا فقدت سلاحي فستكون لي مشكلة رهيبة مع الأمير.

ثم انتزعت نفسي من الحالة. بام. بام. بام. تات ـ تات ـ تات ـ تات. بام. الرشاشات كانت تقترب أكثر فأكثر. سواء أكنت سأقع في مشكلة أم لا، فإننا كنا بصدد مشكلة أكبر. كان المعسكر متعرضاً للهجوم، وأنا كنت بلا سلاح. ثم تبين أن جميع الإخوان في الغرفة كانوا أيضاً بلا أسلحة. أحدهم كان قد دخل ونحن نيام وأخذها جميعاً. كنا عزّلاً بلا دفاع.

فجأة اقتحم شخص الغرفة. كانت عيناي قد تطابقتا مع الظلام وحاولت النظر إلى وجهه غير أنني لم أر شيئاً. كان الرجل مقنَّعاً. كان محتملاً أن يكون أمريكياً، أحد عناصر الطالبان، أي شخص آخر.

دون أن ينبس ببنت شفة غافل المقنعُ أحدَ الإخوان وألقى بشيء فوق رأسه. وبحركة واحدة طوق فريسته بذراعه. حمل الأخ عن الأرض وجره إلى الخارج. قبل أن أتمكن من الرد، كانا قد اختفيا. رُحْتُ أنا والأخوة الباقون نتبادل النظرات في صمت صاعق. لم تكن العملية كلها قد استغرقت أكثر من بضع ثوانٍ.

استمر إطلاق النار دقيقة أخرى، ثم توقف. صمت مخيف خيم على المعسكر. تبادلنا النظرات، غير أن أحداً لم يكن يعرف ما العمل. ثم أطل أحد المدربين من الباب قائلاً: 'هيا تحركوا الآن. لقد أخذوا أسلحتنا. لابد لنا من الحصول على بواريد جديدة.'

جباهنا جميعاً كادت تلامس الأرض مذلة ونحن نجري باندفاع عبر المعسكر نحو مستودع الأسلحة. جُل الإخوان كانوا موجودين، باستثناء الحراس الليليين مع

عدد قليل من الآخرين الذين كانوا غائبين، بمن فيهم أبو بكر. بعض الرجال بدوا مبهورين تماماً، وآخرون كانوا يفركون عيونهم. كان العدو قد استخدم رمانات مدوِّخة لإعمائهم في أثناء الهجوم.

بهدوء، وبأقصى سرعة ممكنة، تسلَّقْنا الجبال للتفكير بتحركنا التالي. لم تكن العودة إلى المعسكر آمنة بعد الآن، في عتمة الليل. كنا سننتظر حتى بزوغ الفجر.

صباح اليوم التالي عرفنا أن العملية كلها لم تكن إلا حيلة. تَعَلُّم كيفية تنظيم عملية إغارة كان جزءاً من التدريب، والباقي منا كانوا بحاجة إلى معرفة ما ينبغي فعله إذا ما تعرض معسكرنا للحصار. وهكذا فإن إحدى المجموعات الشيشانية كانت قد ابتعدت مدة يومين من أجل التخطيط للهجوم. ما إن أصبحوا جاهزين حتى بادر المدربون إلى نزع الأزناد من كلاشنكوفات الحراس الليليين كي لا يقتلوا أحداً. وما إن نمنا نحن الباقين. حتى جاؤوا وسطَوا على بنادقنا أيضاً.

خلال الهجوم كانوا قد أخذوا الحراس وبعض الإخوان رهائن. جروهم إلى أحد الكهوف وقاموا باستجوابهم الليل كله. أخذ الرهائن والاستجواب كانا أيضاً اثنين من أجزاء التدريب.

صباح اليوم التالي، شرح لنا أبو بكر كيف كانوا قد حاولوا كسر مقاومة أحد الإخوان، وكان صبياً في السابعة عشرة فقط. كان مناوباً بوصفه حارساً ليلياً حين تعرض المعسكر للهجوم. أراد المهاجمون معرفة نوعيات الأسلحة المتوفرة في المعسكر، ولكن الصبي لم يكن مستعداً للبوح بأي شيء. وَجَّهَ الشيشان فوهات بنادقهم إلى رأسه وصفعوه بقوة، إلا أنه بقي صامتاً. ثم أطلقوا عدداً من الرشات على مسافة سنتيمترات من قدميه وهددوه بالقتل إذا لم يتكلم. أخيراً، بدأ يتصدع.

قال: 'لدينا خمس وسبعون دبابة. وعندنا الآلاف والآلاف من البنادق. نتوفر على خمسين صاروخاً من طراز ستنغر. ثمة ما يزيد على ثلاث مئة مقاتل، والمنطقة المحيطة بالمعسكر كلها ملغمة.'

ضحك أبو بكر وهو يروي القصة. كان الصبي قد فعل ما هو مطلوب تماماً: كان قد أعطى مستجوبيه أكثر مما كانوا راغبين في الحصول عليه، وجعل جيشه يبدو أقوى بكثير مما كان في الواقع.

ما أكثر ما كُلِّفْتُ بواجب الحراسة الليلية عقاباً! غير أنه تم في إحدى الليالي اختياري لتولي منصب رئيس الحرس. كان ذلك تكريماً، لأنه كان يعني اضطلاعي بمسؤولية التأكد من أداء الحراس لمهماتهم على نحوٍ صحيح.

كل ليلة، كان هناك أربعة حراس معينين في قطاعات مختلفة من المعسكر. كان رئيس الحرس يشرف على الجميع. تلك الليلة كان هناك شيشانيان، طاجيكي واحد وكردي مكلفون بواجب الحراسة. كنت أعرف الكردي قليلاً، وكنت معجباً به، مما شجعني على ممازحته. كان مكلفاً بحراسة واجهة المعسكر بدءاً بالنهر وحتى ما بعد المقصف مروراً بمدخل المعسكر وعمق المنطقة الواقعة خلف كوخ الطباخين.

انتظرت نحو ساعتين متيحاً للكردي فرصة التناغم مع دوريته. ثم اختبأت خلف المقصف منتظراً اقترابه. ما إن سمعت صوت تنفسه حتى صرخت: 'دْرَشْ!' مطلقاً الكلمة التي تعني 'قف!' بالأفغانية - وهي كلمة كنا قد تعلمناها جميعاً لحظة وصولنا إلى المعسكر.

سمعت صراخ الكردي، واختلست النظر حول الزاوية فرأيته مصوِّباً بندقيته باتجاهي. بدا مرعوباً. من خلف المقصف نطقتُ كلمة السر التي كنا قد اعتمدناها، وأعلنت اسمي. ثم تقدمت نحوه ووقفْت أمامه. كان الكردي قد خفض سلاحه وراح ينظر إلي بغضب.

قلت ضاحكاً: 'أوقعتك في الفخ'.

رد مغمغماً: 'لن تستطيع مرة أخرى.' لم ير أيَّ شيء مضحك في الأمر. دار ومشى مبتعداً لاستئناف دوريته.

بالطبع لم يكن باستطاعتي ترك الأمر يقف عند هذا الحد. كان لابد لي من الإيقاع به من جديد. مشيت بعكس اتجاه النهر مسافة كيلومتر ونيف، بعيداً إلى عمق المعسكر. تسلقت السفح مسافة مئة متر تقريباً على الضفة اليمنى للنهر. دُرت إلى الوراء وتوجهت نحو المعسكر مع سفح الجبل وصولاً إلى حيث كوخ الطباخين تماماً، ثم نزلتُ متسللاً خِلْسةً. ثمة كانت كثرة من الشجيرات في كل مكان وكنت قادراً على الإحساس بأشواكها وهي تمزق قدمي.

أخيراً وصلت إلى ما خلف كوخ الطباخين مباشرةً. كان ذلك جزءاً غريباً من المعسكر، ولم يكن أحد يطرقه إلا أثناء الاضطلاع بواجب الحراسة. كان المكان مسكوناً (بالأرواح). لدى استخدام المجاهدين للمعسكر خلال الحرب ضد الروس، جعلوا التواليتات هناك لأن المكان كان الجزء الأكثر انخفاضاً من النهر. غير أن الروس كانوا في أحد الأيام قد أغاروا على المعسكر فيما كان عدد من المجاهدين مشغولين بالهدوء. كان الروس قد تسللوا من خلف الجبل الذي نَزَلْتُ عن سفحه للتو، فوصلوا بالتالي إلى التواليتات أولاً. قتلوا جميع من كانوا في المعسكر.

لم يكن سبب الخضة مقتصراً على كثرة عدد القتلة. فالمسلمون يؤمنون بأن الشياطين تسكن دورات المياه؛ بل وثمة دعاء معين لطردها. صحيح أن التواليتات قد زالت الآن. كانت قد نُقلت إلى الطرف الآخر من المعسكر؛ ولكن الشياطين كانت، مع ذلك، لا تزال تتردد على هذا المكان وتجوسها بصحبة أرواح المجاهدين المذبوحين. ما من أحد منا إلا وكان قد أحس بحضور هذه وتلك في هذا الوقت أو ذاك.

تسللت خلسة عبر الشجيرات وقطعت مسافة عدد من الدقائق إلى أن سمعت الكردي مقترباً. ببطء شديد، دون إحداث أي صوت، مشيت نحوه. واصل التحرك ـ لم يسمعني. أصبحت قريباً جداً منه، اقتربت أكثر. كانت المسافة بيني وبين وجهه أقل من خمسين سنتيمتراً حين صرخت: 'دُرَشْ!'

أطلق الكردي زَعْقة بأعلى ما توفر له من نَفَس في رئتيه. كاد يموت فَزَعاً؛ يجب أن يكون قد ظن أن الشيطان كان قد جاء ليختطفه. إلا أنه ما لبث، بعد برهة، أن أدرك أنني كنت أنا من كان يقف أمامه، فأمطرني بوابل من النظرات الغاضبة، الحانقة.

قلت له: 'يجب عليك، في الحقيقة، أن تتحلى بقدرٍ أكبر من الحذر. لو كنتُ عدواً لكنتَ أنت في عداد الأموات الآن.'

من الواضح أن الكردي لم يستسغ حصافتي. اكتفى بالتجهم.

قبل أن يدور على عقبه ويسير في الاتجاه المعاكس، قال: 'يا لك من زبون خطر!'

كان في المعسكر حارس متفرغ واحد، ولكن أحداً لم يكن يكلمه لأنه كان أفغانياً، وكنا جميعاً نعرف أن علينا ألا نتكلم مع الأفغان. خلال النهار كان ينام في مبنى صغير قريب جداً من كوخ الطباخين. لم يكن يخرج إلا في الليل حيث كان يجوس خلال المعسكر وحده ملقماً كلاشنكوفه.

كان معه ثلاثة كلاب في المعسكر: اثنان كبيران من كلاب الرعاة، أسود ورمادي، وكلبة بيضاء كانت أصغر قليلاً. كانت الكلاب تجول في المعسكر خلال النهار. لم يكن أحد يعرف أسماءها لأن أحداً لم يكن يتكلم مع الحارس. غير أن الإخوان ما لبثوا، مع مرور الزمن، أن أضفوا على الكلاب أسماء من عندهم. صرنا ننادي الأسْوَد: بوش، الرمادي: ريغان. أما البيضاء فكانت تاتشر.

الجاسوس

ذات يوم، بعد نحو شهر من وصولي إلى خالدان، كنا نتدرب على المتفجرات خلف المعسكر عندما شاهدنا أبا بكر وأحد المدربين الآخرين يصطحبان رجلاً ويسيران به باتجاه الكهوف. كان الرجل مقيد اليدين ومعصوب العينين.

وبعد يومين جرى تقديم الرجل نفسه إلينا بوصفه مجنداً جديداً. كان اسمه أبا حديفة، ومن العربية السعودية. في تلك الليلة، شرح لي عبد الكريم أنه كان قد أُخذ إلى الكهف لاستجوابه بسبب رسالة إذاعية من بيشاور. كان ابن الشيخ قد اكتشف نوعاً من الخلل في أوراق الرجل فبادر، قبل السماح له بدخول المعسكر، أن يتيقن مئة بالمئة من عدم كونه جاسوساً. من الواضح أن إفادات أبي حديفة كانت جميعاً مطمئنة وسليمة لأنه كان بيننا الآن. لم يطرح أحد أي سؤال.

بعد يومين، أوعز ابن الشيخ إلى أبي حديفة طالباً منه تعليمي التجويد، مما وفر لي فرصة قضاء فترة طويلة من الوقت معه. بدأت ألاحظ فيه أشياء أثارت شكوكي؛ أشياء صغيرة في البداية ولكنها بدأت تتراكم. لاحظت أنه كان ذا لياقة بدنية ممتازة، أفضل بكثير من سائر السعوديين الآخرين، بمن فيهم حتى الشباب، ممن كانوا يأتون إلى المعسكر. ثمة كان شيء ما رخو في السعوديين أو حولهم لأن حيواتهم كانت بالغة اليُسر. غير أن جسم أبي حديفة كان مجدولاً بالعضلات.

ومع مرور الزمن، بدأت أكتشف أن العديد من طباع أبي حديفة كانت هي الأخرى غريبة بعض الشيء. مثلاً، رأيته يوماً في مدخل مهجعه. كان أخ آخر خلفه مباشرة. سارع أبو حديفه إلى مسك الباب مفتوحاً من الداخل وسمح للأخ بالمرور قبله. لم تكن تلك سوى لفتة بسيطة، إلا أنها كانت حركة غريبة: أيُّ عربي حقيقي كان سيخرج من قبل، ثم يبادر إلى تثبيت الباب خلفه.

إلا أن الشيء الأكثر فضائحية في أبي حديفة كان متمثلاً بحذائه. الجميع في المعسكر كانوا ينتعلون أحذية جلدية. أما هو فقد كان حذاؤه من الكتان الضارب إلى الصفرة. كنت قد رأيت هذا النوع من الأحذية من قبل، وأعرف مصدرها. كانت أحذية خاصة بالجيش الأمريكي. في بداية حرب الخليج، كانت ثمة تقارير تلفزيونية كثيرة حول مدى معاناة الجنود الأمريكيين لانتعالهم جميعاً تلك الأحذية الريفية السوداء الثقيلة نفسها المصنوعة لتجهيز أفراد الجيش في فيتنام. كانت تلك مصممة لخوض الأنهار الموحلة والغابات ومرعبة في رمل الصحراء وقيظها. فالجلد الأسود كان يغدو كتلة نار في الشمس إضافةً إلى أن الأحذية لم تكن تتنفس على الإطلاق. لذا فإن الجيش كان قد سارع إلى التعاقد على تصنيع مئات الألوف من أزواج الأحذية الكتانية الصحراوية الخفيفة للجنود. كان أبو حديفة ينتعل زوجين من هذا النوع.

بدا لي واضحاً تماماً أن أبا حديفة جاسوس. إلا أنني لم أكن قادراً على فعل شيء بشأن ذلك. على الرغم من يقيني لم يكن لدي أي برهان. وما أكثر ما قيل لنا في خالدان أن المجاهدين لا يخمنون، لا يضربون أخماساً بأسداس، على الإطلاق، بل يصدرون أحكاماً قاطعة فقط بالاستناد إلى ما يعرفونه لأن أحداً لا يستطيع أن يدخل في عقل شخص آخر. وهكذا التزمت الصمت بشأن أبي حديفة ولم أفاتح أحداً عنه على الرغم من هواجسي الملحة.

أحياناً، مع وصول جماعة من الإخوان إلى المرحلة الختامية من تدريبها، كانت هذه الجماعة تقدم عرضاً في الليل هناك في الساحة أمام المعسكر. كان أفراد الجماعة يستعرضون مهاراتهم في الرمي، يؤدون قتال التحام، ويصنعون حلقات أغصان يشعلونها ثم يقفزون عبر اللهيب. كانت العروض مثيرة دائماً لأنها كانت تبين مدى تناغم هؤلاء الإخوان، مدى إتقانهم لفن التحرك المتناسق كما لو كانوا جسداً واحداً. كانت النار قاطعة للأنفاس على خلفية السماء المظلمة وكانت

البنادق تقذف شرارات بدت أشبه بألعاب نارية صغيرة. كان المشهد نوعاً من أنواع السيرك.

في إحدى الأماسي، قررت أن أتابع التمثيل من مكان مرتفع على سفح الجبل. وحين انسحَبْتُ من الجماعة انتبه إلي أبو حديفة وسألني: 'إلى أين؟' صارحته، فقرر أن يرافقني.

تسلقنا علّوة وجلسنا نراقب الإخوان وهم يجرون ويقفزون ويتدحرجون تحتنا في الميدان. أي منا لم ينبس ببنت شفة خلال بضع دقائق، غير أنني ما لبثت أن التفتُّ إليه وقلت بهدوء: 'اسمع يا أبا حديفة.' دار نحوي وحدَّقْتُ في عينه مباشرة ثم تابعت: 'أنا أعرف من تكون. لا أملك أي دليل، وبالتالي لن أُخبر الآخرين. غير أنني أريدك أن تعرف أنني أعرف حقيقتك.'

استجاب لتحديقي ولكنه أحجم عن التعليق ولو بكلمة. ثم أدار رأسه وتابع مشاهدة العرض.

ما لبث الصمت الثقيل فيما بيننا أن قُطع بعد بضع دقائق، حين أزّت رصاصة مرت بنا واصطدمت بصفحة صخرة على مسافة نحو عشرة أمتار. ثم رصاصة أخرى. فثالثة. التفت أبو حديفة إلي؛ بدا قلقاً. نظر إلى الساحة في الأسفل ورأيت أن الإخوان كانوا يرمون مستهدفين صفحة صخرة إلى اليسار من المكان الذي كنا جالسين فيه. لم أبالِ بالأمر. كان الشباب قد قضوا أشهراً وهم يتدربون على الرمي، وكانوا، بالتالي، يعرفون ما كانوا يفعلونه.

غير أن أبا حديفة لم يكن على المستوى نفسه من الثقة. قال: 'يا أبا إمام، ألا تعتقد أن علينا أن ننزل الآن؟'

نظرت إليه وسألت: 'لماذا؟' كانت الطلقات تضرب الصخور باستمرار، مطلقة شرارات صغيرة.

'بسبب الطلقات يا أبا إمام. قد تصيبنا.' استطعت أن أقرأ في وجه أبي حديفة أنه كان مرعوباً.

قلت بهدوء: 'لا، أنا سأبقى هنا.' ثم ابتسمت وتابعت: 'جئت إلى هنا، في التحليل الأخير للجهاد. إذا أصابتني إحدى طلقاتهم في رأسي.' مشيراً إلى الإخوان هناك في الأسفل 'فسأكون شهيداً! كنت أداعب أبا حديفة، غير أنني لم أكن أمزح. كان يعرف ذلك.

حَدَّقَ أبو حديفة فيَّ مرة ثانية. ثم قام. ودون أي كلمة، استدار وبدأ يعدو منحدراً على سفح الجبل.

المصباح

كانت الطوبوغرافيا المرحلة الأخيرة من تدريبنا. في هذه الحلقة من الدورة التدريبية كنا نتعلم فن استهداف أشياء وأشخاص من مسافات طويلة. كنا ندرس خرائط طوبوغرافية ونتعلم معادلات رياضية معقدة كي نتمكن من تقدير زاوية الرمي الصحيحة. ثمة مدافع معينة تستطيع إصابة أي هدف بدقة من مسافة ثلاثة كيلومترات شرط التحلي بقدرٍ كبير من الدقة في الحسابات.

كانت الحسابات الرياضية صعبة لوجود عدد كبير من المتغيرات الواجب أخذها في الحسبان: الارتفاع، سرعة الريح، مدى حَتّ السبطانة، نمط شحنة الدفع، وما إلى ذلك. كنت قد درست الرياضيات في المرحلة الثانوية كلها ببلجيكا، مما مكّنني من الاستيعاب بسرعة. غير أن ما أثار إعجابي هو أن عدداً كبيراً من الإخوان الآخرين كانوا أيضاً يستوعبون الدروس بسرعة. كثيرون من العرب كانوا بالطبع جيدي التعليم؛ إلا أن الطاجيك، الأوزبك، والكشميريين عموماً لم يكونوا كذلك، وإن ظلوا على الدوام قادرين على المجاراة بطريقة ما. في الحقيقة كانوا في الغالب أفضل من الآخرين. بدوا فاهمين للعلوم غريزياً.

ذات يوم، بعد قضاء أسبوع كامل في غرفة الصف عاكفين على إجراء الحسابات، أخرجنا أبو همام للتدرب على الرمي. حملنا مدفع مورتار إلى ما خلف المعسكر وتسلقنا به الجبل. وعبر وادٍ عريض كان ثمة جبل آخر مكلل بكومة من الصخور. كان أحدهم قد راكمها هناك لتشكل هدفاً.

كنا قد أنجزنا الحسابات في غرفة الصف وكانت دفاترنا بأيدينا. حفرنا ثقباً صغيراً في الأرض لتثبيت قاعدة المورتار ثم نشرنا القوائم المزدوجة لتثبيت المدفع في مكانه. اصطففنا وراح كل منا بدوره يعدل زاوية سبطانة المورتار ويرمي الهدف.

جميعاً أخطأنا الهدف في الجولة الأولى، وطلب منا أبو همام ملاحظة الأمكنة التي سقطت فيها قذائفنا بالفعل كي نتمكن من تعديل حساباتنا. خَرْبَشْنا على أوراقنا واصطففنا في رتل من جديد. مرة أخرى، أخطأنا الهدف جميعاً. بدأنا نشعر بالإحباط. كنا قد تدربنا أشهراً طويلة، وتملكنا إحساس بالتفوق. ومع ذلك كنا في وضعٍ بائس. كنا قد أمضينا أسبوعاً كاملاً لمجرد الوصول إلى هذه اللحظة، ولا أحد فينا كان قادراً على إنجاز المهمة.

عدنا للقيام بمحاولة ثالثة؛ الأخوان الأولان أخطآ الهدف من جديد. قررت هذه المرة ألا أستخدم الورق، أن أكتفي بعدسة التسديد. كان مسار القذيفة قَطْعاً ناقصاً، وبما أن قذيفتي كانت قد أصابت نقطة فوق الهدف في المرة السابقة، فقد أدركت أن علي أن أرفع الفوهة قليلاً. أما سائر المتغيرات الأخرى فبقيت ثابتة، لم يكن ثمة ما يدعو إلى إعادة حساب كل شيء.

هذه المرة حطت القذيفة فوق الهدف. حين درت إلى الوراء، استطعت أن أرى أن الآخرين كانوا معجبين. إلا أنني ما لبثت أن رأيت ما لفت نظري: كان ابن الشيخ جالساً على قمة التلة فوقنا، يراقب. لم أكن قد رأيت أو سمعت أنه وصل

وفوجئت حين شاهدته هناك، عاكفاً على معاينتنا. حين التقتْ نظراتنا، أومأ إلي طالباً أن أذهب إليه. تسلَّقْت التلة وجلست بجانبه.

سأل: 'لماذا لم تستخدم دفترك؟' وقبل أن ينهي كلامه قام أحد الشيشان بالإطلاق. قذيفته سقطت على بعد خمسين متراً إلى يسار الهدف.

أجبت قائلاً: 'إنه مثل رمي أي حجر. ليس المرء بحاجة إلى أي حسابات.' حين بدأت الكلام وضع ابن الشيخ إصبعه على شفتيه ملمحاً إلى وجوب خفض الصوت. افترضت أنه لم يكن يريد تشتيت أذهان الآخرين. فتابعت همساً: 'يستطيع المرء أن يُدخل التعديلات عن طريق القذف أقوى أو أضعف أو من خلال القذف أعلى أو أخفض. يعمل المدفع بالمبدأ نفسه.'

ابتسم ابن الشيخ لي بمودة ولطف، ثم همس في أذني قائلاً: 'جيد جداً يا أبا إمام. ولكن لا تخبر الآخرين. أريد أن أرى ما إذا كانوا يستطيعون إدراك ذلك بأنفسهم.'

صدمني تعليقه إذ وجدته شديد الغرابة. ما أكثر ما كان ابن الشيخ أن أوصانا بتقاسم كل ما لدينا مع إخواننا، بمساعدتهم عند كل فرصة مناسبة! بوصفنا جماعة كنا أكثر من مجرد حاصل جمع أجزائنا لأن كلاً من الإخوان كان يساهم بمهارات مختلفة ومعارف خاصة. كنا نعلِّم بعضنا البعض أشياء جديدة الوقت كله.

نهض ابن الشيخ ومشى نحو الإخوان الذين واصلوا الإطلاق على الهدف دون إصابته كل مرة. رحت أتساءل عن السبب الذي جعل ابن الشيخ يطلب مني أن أحتفظ باكتشافي لنفسي.

ذات ليلة، جاء ابن الشيخ إلى باب غرفتنا بعد ساعة أو اثنتين فقط من ذهابنا إلى النوم. أمرنا بالاجتماع أمام المسجد. طلب منا أن نكون حفاة ودون سترات. ونبه إلى أن من شأن من يجلب معه مصباحاً أن ينال عقاباً قاسياً.

لحظة خروجي من الباب، لاحظت أن السماء كانت سوداء فاحمة. لم يكن ثمة أي قمر في تلك الليلة، بل ولا أي نجوم. عدت إلى الغرفة قلَّبْتُ حوائجي في الكيس إلى أن اهتديت إلى مصباح الجيب الصغير الذي كنت قد اشتريته في مطار استانبول. دسَسْتُه في سروالي وتلمست طريقي فوق الصخور إلى المسجد. لم أكن قادراً على رؤية أي شيء على الإطلاق، غير أنني كنت أستطيع سماع بعض الأصوات. سمعت إخواناً ورائي، واستطعت أن أستنتج أن بعضهم كان يتعثر ويسقط وهو يتلمس طريقه بيديه عبر الظلام. تمكنت من أن أسمع أصواتاً كثيرة تتحدث أمامي، فعرفت أنني كنت سائراً في الاتجاه الصحيح.

ما إن تحررت من بين الصخور وشعرت بالأرض المستوية أمامي، حتى أدركت أنني قريب من المسجد. بدأت الأصوات تعلو أكثر، فمددت يدي أمامي. وإذا بيدي تلامس وجه أحد الإخوان فأتأكد من أنني في المكان الصحيح.

وفيما نحن واقفون هناك بانتظار وصول الجميع لنتمكن من تلقي أوامرنا، أدركت أنني كنت أرتجف. كان الخريف قد قطع شوطاً. باتت النهارات أبرد، أما الليالي فغدا تحملها شبه متعذر. وما إن اكتمل اجتماعنا حتى بادر ابن الشيخ إلى الكلام. أمرنا بأن نصطف رتلاً الواحد خلف الآخر وأن نضع أيدينا على أكتاف من هم أمامنا من الإخوان. لم أكن أستطيع رؤية حتى نقرة (رقبة) الأخ الذي كان أمامي، غير أنني تصورتُنا أفعى مؤلفة من نحو مئة مجاهد. كنت قريباً من الذيل مع عدد قليل من الإخوان ورائي.

بدأنا المشي. لا أحد منا كان قادراً على رؤية المكان الذي كنا فيه، غير أنني كنت أستطيع أن أشعر بحدوث انقلاب مثير في درجات زاوية الانحدار بعد المئات القليلة الأولى من الأمتار. كنا بادئين بتسلق أحد الجبال. لم أكن أستطيع أن أعرف شيئاً سوى ما كنت أحس به تحت قدمي، حيث لم أكن أشعر إلا بالصخور. وقد كانت مؤلمة جداً لراحَتيّ قدميَ لأنني لم أكن أستطيع النظر إلى الأمام قبل التخطيط لكل خطوة جديدة.

يجب أن نكون قد مشينا ثلاث ساعات بهذه الطريقة. في البداية كنا متوجهين غرباً؛ عرفت ذلك من الجهة التي توجهنا إليها عند مغادرتنا للمعسكر. إلا أنني، بعد فترة، فقدت أثر حتى ذلك؛ كان الحفاظ على الإحساس بالتوجه دون أي نقاط علام متعذراً. كنت أعرف أننا كنا نتسلق مكاناً عالياً جداً، لأن الطريق كان شديد الانحدار والرياح تزداد قوة باطراد وتخترق قميصي الرقيق.

بعد مدة، صارت حواسي الأخرى تعوض عن افتقاري إلى الرؤية. كنت أستطيع سماع حفيف الألبسة في الريح، والتمييز بقدرٍ أكبر من الوضوح بين الصخور تحت قدمي. بعضها كان أقسى وبعضها انعم. كانت لكل منها درجة حرارة مختلفة قليلاً. كان جسمي قد اكتسب قدراً من الدفء بفضل الحركة، واستطعت أن أحس بيدي ترتخيان على كتفي الأخ الذي كان أمامي بعد تطابقي مع وتيرة مسيرتنا العجيبة، العمياء، المتوغلة في الجبال.

فجأة، انهد جسمي على الأخ الذي كان أمامي، ومال الأخ الذي كان ورائي على ظهري. كان الشريط قد توقف. في البداية لم أستطع فهم ما حصل، إلا أنني ما لبثت أن سمعت حفيفاً خفيفاً منبعثاً من أمامي. ظننت أنه الريح، إلا أنني أدركت، مع تصاعد الحفيف، أن الصوت كان همساً. كان الإخوان يتكلمون أحدهم مع الآخر، ممررين رسالة إلى حلقات السلسلة. لم أستطع سماع ما كان يقال إلى أن استدار الكشميري الذي كان أمامي وهمس قائلاً: 'ابن الشيخ يطلب أبا إمام إلى مقدمة الرتل.'

اضطربت، غير أنني كنت قد تلقيت أوامري. مستخدماً قدمي تحسست حولي من الطرفين. استطعت أن اكتشف أن الانحدار كان نزولاً عن يميني، فخطوت على يسار الإخوان ورحت أمسح بيدي كلاً من الإخوان وأنا أتلمس طريقي ببطء فوق الصخور نحو مقدمة الرتل.

بعد بضع دقائق وصلت إلى رأس الأفعى. سمعت صوت ابن الشيخ، رغم أني لم أره. 'هات مصباحك يا أبا إمام!'

يا للعنة! أَكَلْتُها. كيف عرف باصطحابي لمصباحي؟ بدأت أدوخ وأنا أتذكر ما كان قد قاله من قبل: كل من يتم اكتشاف مصباح معه سيعاقَب بشدة. كان ابن الشيخ قد عاقبني عدداً غير قليل من المرات، ولم يكن عقابه لطيفاً على الإطلاق. ما الذي كان يعنيه بالعقوبة الشديدة؟

لم يكن ثمة أي شيء أستطيع فعله. دسست يدي في سروالي وسحبت المصباح. تلمست طريقي نحو صوت ابن الشيخ، وحين أصبحت أمامه تحسست بحثاً عن يده ووضعت المصباح في راحته.

على الفور أضاء ابن الشيخ المصباح ووجَّهَه نزولاً إلى يمين الجماعة. فهمت مباشرةً: كان أحد الإخوان قد سقط. كنا ماشين على حافة هاوية سحيقة جداً، هاوية شديدة الانحدار، وكان الأخ قد هوى نحو خمسة عشر متراً إلى الأسفل. كان محظوظاً: صخرتان كبيرتان كانتا قد قطعتا مسار سقوطه. علق جسمه بينهما.

بعضنا في مقدمة الرتل انحدر بسرعة لنجدته. كان ابن الشيخ يتولى القيادة، والمصباح بيده. حين وصلنا إلى الشخص رأيت أنه أحد الشيشان. لا أحد أفراد مجموعتي، بل أحد الأشخاص الأكبر سناً ممكن كنت قد التقيتهم في المسجد في اليوم الأول من وصولي إلى المعسكر. كان الدم يغطيه وكان يصدر أنيناً خفيفاً. لم يكن يتحرك على الإطلاق.

سارعنا إلى تشكيل نقالة من بعض الأغصان السائبة، خلعنا قمصاننا واستخدمناها لوصل الأغصان ببعضها. مدّدنا الشيشاني على النقّالة، وبقيادة ابن الشيخ وبيده المصباح، انطلقنا مسرعين على طريق العودة إلى المعسكر.

كان الفجر موشكاً على البزوغ حين كان الجميع قد اندلقوا نازلين من الجبل. أقمنا صلاة الفجر ثم توجهنا إلى المقصف لتناول الفطور. بعد بضع دقائق، جاءنا أحد المدربين ليخبرنا أن الأخ كان قد كسر ذراعاً وساقاً. كانوا سينقلونه إلى مشفى في خوست.

ونحن موشكون على الانتهاء من الفطور دخل ابن الشيخ المقصف. وحين بدأ يتقدم نحوي، هبط قلبي. أعددت نفسي لعقوبة مرعبة؛ كنت قد خالفت أوامره الصريحة. صمت الجميع أيضاً. كانوا أيضاً ينتظرون سماع ما كان سيقوله.

ما لبث ابن الشيخ أن فعل شيئاً غير متوقع: ناولني المصباح. قال: 'شكراً يا أبا إمام. شكراً! أعرتني مصباحك.'

لم يكن الآخرون أقل مني اندهاشاً. استطعت أن أرى نظراتهم متقافزة من شخص إلى آخر وهم يحاولون استيعاب ما كان قد حصل للتو. إلا أن ابن الشيخ لم يقدِّم أي تفسير إضافي. فقط جلس وبدأ يتناول فطوره.

الطالبان

كنا معزولين عن باقي العالم في خالدان، وكنت أنا مسروراً بذلك. ونحن هناك كنا بعيدين عن سائر ضغوط الحياة الطبيعية ومشاغلها. لم يكن لدينا سوى هم واحد: أن نصبح مجاهدين.

غير أننا كنا متوفرين على أجهزة راديو. وخلسة، في ساعة متأخرة من الليل، كنت أحياناً أحاول الاهتداء إلى شيء من الموسيقا. نتف عجيبة كانت تتسلل عبر الأثير من الصين، من الهند، ومن أمكنة أخرى. كان هناك كثير من التشويش على الدوام، مما كان يجعل السماع صعباً. عادةً كان الصوت يختفي بالسرعة التي انبثق بها. فقط مرة واحدة سمعت إحدى الأغاني من البداية إلى النهاية: 'زومبي' لفرقة كرانبري.

غير أننا كنا نستطيع سماع الأخبار دائماً. كانت إذاعتا البي بي سي (BBC) والآر اف واحد (RFI) تصلان دائماً واضحتين، وكنا، الإخوان وأنا، تواقين لسماع ما كان يحصل في أوطاننا. ففي صيف وخريف 1995 كان ثمة فيض دائم من الأنباء عن أفغانستان أيضاً. في تلك الفترة كان رباني رئيساً للجمهورية. كان هو وأحمد شاه مسعود، قائده العسكري، مسيطرين على العاصمة: كابول. ولكن عليها وحدها؛ لأن المدينة كانت في حالة حصار دائم. بدعم الجهاز السري الباكستاني كانت حركة الطالبان تتقدم عبر البلاد متحركة باتجاه كابول. كان غلب الدين حكمتيار وحزبه الإسلامي يخوضان حرباً ضد رباني وشاه مسعود منذ سنوات، وكانا الآن يحاربان الطالبان أيضاً.

لم يكن أحد في المعسكر معجباً بالطالبان. لم نكن نتحدث عن ذلك صراحة، لأننا كنا نتلقى النصح بألا نتحدث عن سياسة البلد المضيف. غير أن الهمس كان، بالطبع، متواصلاً مصحوباً ببعض التعليقات المرتجلة. كان المدربون والإخوان يقولون كثيراً من الأشياء نفسها التي كنت قد سمعتها سابقاً من أمين وياسين: الطالبان مبالغون في تطبيق الشريعة؛ مفرطون في التشدد؛ أهل بدعة. كنت أكره الطالبان. وأنا في بلجيكا كنت قد قرأت عنهم ورأيتهم على شاشة التلفزيون. كانوا أشراراً، بعيدين كلياً عن الحضارة والمدنية. كنت أتقزز من الإعدامات وعمليات قطع الرؤوس، ومن نشرهم للخوف في أرجاء البلاد. كذلك كنت أكره الطالبان لأنهم كانوا أعداء شاه مسعود، الذي كان لا يزال بَطَلي ومَثَلي الأعلى، ذلك المجاهد النبيل الذي كان حائزاً على احترام حتى أعدائه.

لم أكن، بالطبع، أتحدث عن هذا مطلقاً. لا أحد منا كان يفعل. كانت حركة الطالبان قد استولت على مساحات شاسعة من أفغانستان، ونحن كنا بحاجةٍ إلى أفغانستان، أرض الجهاد. كنا بحاجة إليها للإقامة والتدريب.

في أحد الأيام، ونحن نغادر المسجد بعد صلاة العشاء، أقبل علينا أحد المدربين مسرعاً. طلب منا أن نترك بنادقنا في المسجد. أعدنا البواريد إلى المسجد وخرجنا إلى الساحة الواقعة أمام المعسكر متلهفين لرؤية ما كان حاصلاً. كان ابن الشيخ يتحدث مع أحد الأفغان من أهالي القرية. كانا يتكلمان بصوتٍ منخفض؛ من الواضح أن خللاً ما كان قد حصل. ثم دار ابن الشيخ ومشى إلى داخل المقصف بسرعة.

فجأة سمعنا جلبة محرك. شاحنة رباعية الدفع كانت تتقدم ببطء منحدرة عن سفح الجبل باتجاه المعسكر. وخلف الشاحنة، استطعت أن أرى مجموعة صغيرة من الرجال متجهة نحونا سيراً على الأقدام. بعد بضع دقائق وصلت الشاحنة إلى المعسكر وتوقفت. نزل منها ستة رجال. كانوا متنكبين رشاشات الكلاشنكوف ومدافع الآر بي جي (RPG). بعد قليل مشى تسعة آخرون باتجاه المعسكر.

كانت مجموعة غير عادية، غير شبيهة في شيء بالطالب الشاب الذي كنا قد التقيناه في طريقنا إلى المعسكر. هؤلاء الرجال كانوا أكبر سناً، في أواخر عشرينياتهم على الأقل. وقد بدوا مثل زبانية جهنم. ملابسهم كانت قذرة ووجوههم مغطاة بالقذارات والتجاعيد. وجدتني متقززاً منهم على الفور.

كان المشهد غريباً، جميعاً كنا واقفين هناك دون رشاشاتنا في مواجهة هذه العصبة من المرتزقة المخضرمين. لا أحد من الإخوان أبدى أي عواطف. كان الفضول سيد الموقف. ومن الجدير ذكره أيضاً أن الطلاب لم يكونوا عدوانيين حين اقتربوا. ثلاثة منهم ابتسموا؛ من الواضح أنهم كانوا قادة. أما الآخرون فظلوا متجهمين.

مع خروج المدربين للترحيب بهم، التفتُّ لأنظر إلى داخل المقصف. كان ابن الشيخ يستعجل الإعداد لاستقبالهم، فسألته عما إذا كنت قادراً على مد يد

المساعدة. بدا ممتناً، وتعاوننا على نشر سجادة كبيرة من الفرو وصففنا أطباقاً للعشاء.

غادرت مع شروع الطلاب في ولوج المقصف. خرج ابن الشيخ للحظات ليبلغ الإخوان بعدم وجود عشاء لهم تلك الليلة. ترنَّحْنا لحظات قليلة، ثم مشينا مبتعدين. غير أنني حرصت، قبل المغادرة، على إلقاء نظرة سريعة إلى داخل المقصف. كان ابن الشيخ جالساً في صدر حلقة الطلاب وإلى جانبه أبو بكر. ثمة أمر فاجأني: كان أبو بكر لا يزال مصطحباً بندقيته.

ذلك المساء، فيما كنا جالسين بانتظار رؤية ما كان سيحدث، قال لي أحد المدربين إن الطالبان كانوا قد جاؤوا مرة من قبل، قبل نحو ستة أشهر. لم يكونوا قد وصلوا إلى المعسكر في تلك المرة لأن أحد القرويين كان قد جاء لتنبيه ابن الشيخ إلى أنهم في الطريق. ومع بعض القرويين كان ابن الشيخ قد خرج للقائهم.

كان الطالبان يأتون لغرض واحد: كانوا يريدون أسلحة. كانوا دائبين على مسح أفغانستان الجنوبية متنقلين من معسكر إلى آخر، مطالبين الأمراء بتسليم كل ما كان بحوزتهم من سلاح. وكانوا يحصلون عليها، لأن الأمراء كانوا خائفين. غير أنهم لم يصلوا تلك الليلة إلى خالدان لأن ابن الشيخ قطع الطريق عليهم. حدثني المدرب عن أن ابن الشيح كان قد أمضى ست ساعات في الحوار مع الطالبان، مستعيناً بترجمة أحد القرويين. آخر المطاف، كان قد أقنعهم بترك خالدان وشانه. فهذا المعسكر لم يكن يدرِّب أحداً للقتال في أفغانستان، كما شرح ابن الشيخ لهم. كان فقط عاكفاً على تدريب مجاهدين للقتال في باقي العالم. إن الإخوان في المعسكر كانوا يخوضون الجهاد نفسه الذي كانت حركة الطالبان تخوضه، ولكن في أمكنة مختلفة.

بعد بضع ساعات رحل الطالبان. لم يبح بما يجري في تلك الليلة أي من ابن الشيخ أو أبي بكر. إلا أن أحد الإخوان ما لبث أن أقْدَم، يوم الجمعة، على سؤال ابن الشيخ عما إذا كان جهاد الطالبان شرعياً. صمت ابن الشيخ قليلاً، ثم أجاب باقتضاب قائلاً: 'لم يأت أي منكم إلى هنا ليقاتل مع الطالبان. انتم هنا لتتدربوا كي تقاتلوا في أوطانكم.'

ألح الأخ من جديد، فخطا ابن الشيخ خطوة إضافية. من الواضح أنه كان يختار كلماته بعناية. قال إن الطالبان لم يكونوا جيدي التعليم مثلنا، بمعنى عدم استيعابهم الشريعة كما نستوعبها نحن. إلا أن رباني كان يريد نشر الديمقراطية في أفغانستان في حين كان الطالبان يريدون جعل أفغانستان دولة إسلامية. لهذا السبب بالذات كان الطالبان جديرين بشيء من الدعم.

وأفاد ابن الشيخ: 'إذا اختار أي منكم أن يقاتل في صف الطالبان يوماً، فلن يكون اختياره خطأ.' أخذ نفساً قبل أن يتابع قائلاً: 'ولكن من الأفضل بما لا يقاس أن تخوضوا جهادكم ضد محتلي القدس أو قتلة الشيشان.'

المستوصف

في أحد أيام الخريف كنت ماشياً بالقرب من المسجد حين استوقفني ابن الشيخ. ناداني وطلب مني الجلوس معه. وما إن استقرينا حتى بدأ يتكلم: 'أنت يا أبا إمام لن تذهب إلى بلاد الشيشان مع الإخوان. نحن بحاجة إليك في أمور أخرى.'

صُعقت. لم أكن أتوقع هذا على الإطلاق. طوال أشهر، كنت قد عكفْتُ على التدرب مع الشيشان حالماً بالذهاب معهم، بعد الانتهاء من التدريب، إلى بلاد الشيشان. كنا، جميعاً، قد تحدثنا عن ذلك. كنت قد أدمنت على كره الروس منذ سماعي لما كانوا قد فعلوه للإخوان في مجموعتي. ما أكثر ما حلمت بان أصبح

obeikandl.com

مجاهداً! كلما أطلقت رصاصة أو فَجَّرت لغماً أو مارست تدبيراً تكتيكياً معيناً، كنت أفعل ما أفعله متوقعاً قرب احتمال توظيف مهاراتي ضد الغزاة الروس. كنت مؤمناً بالحرب الشيشانية.

لم أكن، مع ذلك قادراً على أن أفعل شيئاً. صحيح أنني كنت على الدوام قادراً على معارضة أي أمر يطرحه ابن الشيخ إذا بقي ملتبساً، أو أخفقتُ أنا في فهم ما كان يفعله. أما هذا فقد جاء بصيغة أمر مباشر وصريح، مما اضطرني لالتزام الصمت. فقط أومأت ومشيت إلى المهجع.

عصر ذلك اليوم، خرجت إلى الجبال وحدي. ظل عقلي شغّالاً. كنت مسحوقاً ومرتبكاً. تابعت التسلق أعلى فأعلى حتى كاد المعسكر يخرج من ساحة الرؤية، ثم جلست فوق بعض الصخور ورحت أحدق في الشمس الغاربة. لفتت نفسي بذراعي اتقاء لبرودة ريح الخريف. ومن ثم بدأت أناجي الله: 'لماذا، يا الله، لا تمكّنني من الذهاب إلى بلاد الشيشان؟ لماذا لا تريدني أن أصبح شهيداً؟'

بالطبع، لم يأتني أي جواب. لم يكن ثمة سوى لحن الرياح العازفة عبر الوديان. تابعت المناجاة: 'إذا لم تمكّنني من الذهاب إلى بلاد الشيشان، فمكّنني، اللهم، إذن، من أن أعيش حياة طبيعية. مكّنني من أن أغدو زوجاً. مكّنني من أن أصبح أباً لطفل. مكّنني من امتلاك بيت.'

تخدَّر وجهي من البرد. اكتشفتُ أنني كنت أبكي وأن الدموع كانت تتجمد على وجنتي. ومن ثم رأيتها، أمامي مباشرة. امرأة جميلة مشرقة ذات شعر خرنوبي طويل وابتسامة وديعة. لقد سمعني الله واستجاب لدعائي. ولكنها ما لبثت، وبالسرعة نفسها، أن تلاشت واختفت وبقيتُ وحدي.

في اليوم التالي أبلغني ابن الشيخ بأنني كنت سأتولى إدارة المستوصف. أخ أثيوبي كان قد أداره خلال الأشهر الماضية القليلة، إلا أنه كان مغادراً فصار

تأمين البديل مطلوباً. لم يسبق لي أن حصلت على أي تدريب في المجال الطبي، ولكنهم ربما ظنوا أن لدي خبرة لأنني كنت قد حقنتُ أبا بكر.

كان المستوصف قريباً من المسجد، أمام أحد الكهوف. لم يكن كبيراً، إلا أنه كان مملوءاً بسائر أنواع الأدوية، الضمادات، مضادات الحشرات، وأدوات الجراحة. ثمة كان أيضاً عدد من الكتب والنشرات التعليمية بالإنجليزية الشارحة لأشكال معالجة أصناف الإصابات والأمراض المختلفة.

كنت قد توقفت عن التدرب مع الشيشان فأصبحت بداية متوفراً على الكثير من الوقت في المستوصف. صحيح أنني كنت لا أزال أمارس الرياضة مع الإخوان في الصباح، إلا أن الجزء الأكبر من بعد الظهر كان قد أصبح مُلْكاً لي. رحت أكرس هذا الوقت على تنظيم جميع المؤن الطبية على الرفوف، وقراء الكتب.

غير أن المرضى ما لبثوا أن بدؤوا يترددون. إخوان كثيرون أصيبوا بداء الملاريا في المعسكر، إضافةً إلى أن سائر أنواع الأمراض الجلدية كانت موجودة. كذلك كان أفغان من القرية القريبة يأتون للاستطباب، جراء المعاناة من مشكلات هضمية بسبب تلوث مياه الشرب.

أحياناً كان عدد المرضى النائمين ليلاً في المستوصف يصل إلى خمسة، وكنت أنا مسؤولاً عن رعايتهم. لم يكن ذلك صعباً؛ كنت قد قضيت كثيراً من الوقت في المشافي وأنا صغير مما جعلني محصَّناً ضد الانزعاج من مرافقة المرضى. إذا لم أعرف ما هم بحاجة إليه، كنت أستطيع الرجوع إلى الكتب. إلا أنني افتقدت ساعات التدرُّب مع الشيشان وصرت أشعر بالملل.

كنت في المقصف عصر أحد الأيام حين قام أحد المدربين باقتحام المكان وطلب مني أن أذهب إلى المستوصف. قال إن ابن الشيخ كان هناك بانتظاري. حين وصلت إلى المستوصف رأيت أحد الطباخين الأفغان، ذلك القادر على

الكلام، واقفاً مع ابن الشيخ وصبيين من القرية. أحدهما كان في نحو الثانية عشرة وحاملاً صبياً أصغر بكثير على ذراعيه. لم يكن الصغير يتجاوز السادسة أو السابعة.

كان رأس الصبي الأصغر مغطى بقطعة قماش، وحين قام الصبي الأكبر بنزع الغطاء شاهدت فجاً كبيراً في الجمجمة. كان الصبي الأكبر سناً يحاول شرح ما كان قد حصل، في حين كان الطباخ يترجم. كان الصبي الصغير قد سقط على صخرة فَجَّتْ رأسَه.

أجلست المفجوج على كرسي قرب مدخل المستوصف لأحصل على ما يكفي من الضوء لمعاينته. الفج كان عميقاً جداً. رأيت نتفاً من جمجمته. كان الدم يتدفق من الجرح. كانت بقع الدم تغطي الصبيين كليهما، ثم ما لبثت أن غطتني أنا أيضاً.

كان الصبي منهكاً تماماً. عيناه كانتا غائمتين جراء الصدمة ورأسه ظل يتدحرج من جهة إلى أخرى. تعين علي أن أثبّت رأسه بيدي كي أتمكن من معاينة الجرح. بدا صغيراً بين يدي.

تدخل ابن الشيخ ليقول: 'ستكون بحاجة إلى خياطة الجرح يا أبا إمام.'

تلقيت الأمر، غير أنني لم أكن أعرف شيئاً عما كان يجب فعله. لم أكن قد فعلت ما هو أكثر من إعطاء المهدئات وصرف مبيدات الحشرات حتى تلك اللحظة. من المؤكد أنه لم يكن قد سبق لي أن مارست الجراحة. لعل الشيء الوحيد الذي كان قد سبق لي أن خِطْتُه في حياتي كان ثقباً في سروالي الجينز.

كان لابد لي من أن أفكر بسرعة. تذكرت أنني كنت قد وقعت عن الدراجة وأُصبت بجرح بليغ في ساقي في إحدى العطل الصيفية بالمغرب. نقلتني أمي إلى

المستشفى. بذلت كل ما استطعتُ بذله من جهد لأتذكر ما كان قد حصل هناك بدقة. كنت اعرف أن التدبير الأول الذي اتخذه الأطباء تمثل بإعطائي إبرة كزاز في البطن مباشرة. هرعت إلى رفوف الأدوية وانقضضت على الكزاز وعلى إحدى الحقن. حقنت الصبي في البطن، تماماً كما كان الأطباء قد فعلوا معي. فكرتُ لثانية فتذكرت ما كان بعد إبرة الكزاز: كان لابد من تنظيف الجرح. اختطفت قارورة ماء مقطر ورحت أغسل الجرح وامسح الدم والتراب عن جلدة الرأس.

ولكن الصبي بدأ يزعق بقوة حين لمست رأسه. طلبت من الطباخ أن يوعز إلى الصبي الأكبر سناً بتهدئة المفجوج، غير أن هذا أيضاً لم يفد. تعين علي أن أعطي الولد مسكناً للألم. هرعت إلى الداخل واختطفت زجاجة ليدوكائين عن الرف، جنباً إلى جنب مع إبرة. كنت قد استعملت الليدوكائين من قبل لمعالجة أخ يعاني من الطفح الجلدي، غير أنني لم أكن قادراً على تقدير الكمية التي كان يتعين عليَّ إعطاؤها لطفل.

لم أكن أعلم ما إذا كان مسموحاً زَرْق الليدوكائين في جرح مفتوح، غير أنني كنت ملزماً بأن أفعل شيئاً. كان الولد يصرخ من الألم ولم أكن حتى قد بدأت بتثبيت القطب. فزرقت قليلاً من المادة مباشرةً في رأس الصبي عند أحد طرفي الجرح. انتظرت بضع ثوانٍ لأرى ما إذا كان رد فعله سلبياً، غير أن الوضع بدا على ما يرام، فَزَرقْتُ المزيد في الطرف الآخر.

بعد نحو دقيقة توقف الصبي عن الزعيق. صحيح أن رأسه ظل يتدحرج من جهة إلى أخرى، كما كان يفعل من قبل، إلا أن عينيه كانتا ذابلتين قليلاً الآن، ونهنهاته أقرب إلى النشيج. مددْتُه على طاولة. جملة المواد - الإبر والخيوط - كانت موجودة في الخزنة، غير أنني لم أكن أعرف ما أفعله بها. أتيت بأحد الكتب الموضوعة على الرف. كان فيه عدد كبير من الصور بما في ذلك سلسلة

كاملة من الصور الموضحة خطوات خياطة أي جرح. وضعت الكتاب مفتوحاً على الصور ذات العلاقة ووضعته على الطاولة بجانب الصبي ورحت أتبع التعليمات.

في البداية، حاولت تقليد ما رأيته في الصور بدقة، لأن الكتاب كان يؤكد أهمية استخدام نوع خاص من القطب كي لا يبقى أي أثر. غير أنني لم أستطع أن أتقيد بالطريقة لأنها كانت تستغرق وقتاً طويلاً مما جعلني اكتفي بالقُطَب المباشرة التي كنتُ استخدمها لخياطة ثقوب سروالي.

كنت شاعراً بحمّى. مع أن الجو في الخارج كان جليدياً، فقد كان العرق يتصبب من جبهتي. أوعزت للطباخ بالإشارة أن يمسح جبيني بقطعة قماش. لم أكن أريد لعرقي أن يلوث جرح الصبي أو يغبش عيني وأنا عاكف على إجراء العملية.

حين ضغط الأفغاني بقطعة القماش على جبيني مرت بخاطري صورة غريبة. كانت تلك صورة سبق لي أن كنت قد رأيتها مرة بعد مرة على شاشات التلفزيونات الأوروبية: صورة طبيب أنيق عاكف على إجراء عملية جراحية محاط بباقة من الممرضات الجذّابات. كُنَّ يمسحْن جبينه ويفعلن كل ما يطلبه منهن. بدا المشهد كله سوريالياً جداً في تلك اللحظة. ما أبعد الثرى من الثريا! وما أبعد الطباخ الأفغاني من الممرضة الجذابة!

بعد ثوانٍ، انتفض الصبي وراح يزعق من جديد. بدأ يستعيد الوعي وأنا في منتصف عملية إغلاق الجرح. صار يضرب يميناً وشمالاً على الطاولة وكان الصبي الأكبر يجد صعوبة في تثبيته. حملت زجاجة الليدوكائين وملأت الإبرة. لم أعيّر الكمية هذه المرة، لم أكن مبالياً. كنت مرعوباً.

دسست الإبرة مباشرة في جلدة الرأس، تماماً كما من قبل. في أقل من دقيقة توقف الزعيق. بدا بارداً؛ جسمه الصغير هدأ تماماً. تدلى رأسه إلى جهة وامتد لسانه إلى خارج فمه.

نظر الصبي الأكبر إليّ بعينين فزعتين. شعرت بالرعب؛ كنت قد أعطيت الصبي كمية أكثر مما ينبغي من مادة التخدير. أو ربما كان قد نزف كثيراً فغاب عن الوعي. انحنيت فوقه لأرى ما إذا كان لا يزال يتنفس. وجدته يفعل فأكملت الخياطة بأقصى سرعة ممكنة. الوقت كله ظللت أصلي داعياً الله ألا يموت الصبي.

بعد الانتهاء، نظرت ثانيةً إليه. كان الوجه شاحباً تماماً. العينان مفتوحتان قليلاً، إلا أنهما كانتا تبدوان متدحرجتين في المحجرين دون رؤية. قمت بتنظيف جلدة الرأس بمادة البيتادين Betadine لتطهيرها وغطيتها بضماد. ثم رحت أنتظر وأنا أصلي.

بعد خمس عشرة دقيقة أفاق الصبي قليلاً. كان لا يزال شديد الضعف على ما بدا، وعيناه لم تكونا متركزتين على أي شيء. إلا أنه كان موشكاً على الشروع في النشيج من جديد مما جعلني أطمئن. استدعيت الصبي الأكبر، ومعه الطباخ الأفغاني. حملت زجاجة مضادات حيوية عن الرف وشرحت للطباخ أن على الصبي أن يتجرعها يومياً لمدة أسبوعين، ثم يأتي إلى المستوصف للمعاينة. أومأ الصبي الأكبر باحترام.

انتظرنا بضع ساعات إلى أن كان الصبي قد استعاد ما يكفي من القوة للجلوس. ثم حمله الصبي الأكبر بين ذراعيه وخرج به من المستوصف إلى قلب الليل البارد. لم تعد نبضات قلبي سريعة كما كانت من قبل، غير أن الرعب كان لا يزال يتملكني.

حين دخلت المقصف بعد بضع دقائق، نظر إلي ابن الشيخ نظرة ترقب وسأل: 'هل سيكون بخير؟'

أجبت: 'إن شاء الله!'

كانت الأيام القليلة التالية هي الأكثر إجهاداً في حياتي. كنت شديد الخوف من أن أكون قد قتلت الصبي. كان بالغ الضآلة والهشاشة. ما الذي كنت قد فعلته؟

ثم، ذات يوم، وأنا جالس في المستوصف دخل علي وهو يقفز مع الصبي الأكبر. كانت الفترة منذ إجراء العملية أقل من أسبوعين. استدعيت الطباخ الأفغاني للترجمة. أفاد الصبي الأكبر بأن المفجوج كان بخير: كان ينام ويأكل جيداً دون أي مشكلات على ما بدا.

أزَلْتُ الضماد ورأيت أن الجرح كان يلتئم. عقّمت مقصاً وأزلت القطب. لم يبدُ الصبي متألماً على الإطلاق. بعد الانتهاء لففت الجرح بضماد جديد. ثم قلت للصبيين أن يعودا للمعاينة قريباً. ابتسما وخرجا عدواً من المستوصف وهرعا عبر الحقول إلى القرية. مازلت قادراً على سماع صدى ضحكاتهما وهما يغيبان في الغسق. كان ذلك أحد أسعد أيام حياتي.

بعد ذلك بنحو أسبوعين رحل الشيشان. خرجت مع أبي همام ذات عصر لتنفيذ عملية تدريبية خاصة، وحين عدت كان الشيشان قد ذهبوا. لم أودِّعْهم قط. ليتني أعرف ما إذا كان أحد منهم لا يزال على قيد الحياة!

أسامة

في أحد الأيام وصل إلى المعسكر صَبيّان. كانا حتى أصغر سناً من الشيشاني الأصغر في مجموعتي، أو الطفل الطاجيكي بالغ الحدة. كان الصبي الأكبر دون الثانية عشرة، والأصغر في نحو العاشرة.

وقف ابن الشيخ لتقديمهما في المسجد ذلك السماء. قال: 'هيا من فضلكم رحبوا بأخَوَيْكم الجديدَيْن. هذا حمزة' مشيراً إلى الأكبر، 'وهذا أسامة' مشيراً إلى الأصغر. حين التفتُّ تذكرتهما فوراً: كانا الصبيين اللذين كانا قد سلّما على

دليلي في مسجد حياة أباد ببيشاور. كان الدليل قد عنَّفَهما حين سألا عما إذا كان مكلفاً بإيصالي إلى المدرسة.

مع مبادرتنا جميعاً إلى الترحيب بحمزة وأسامة، لاحظت أن التحية كانت محاطة بقدرٍ أكبر من التبجيل مقارنةً بما كان مألوفاً. كان الصبيان يبدءان تدريباتهما في سن مبكرة جداً وكانت آيات الإعجاب بادية على وجوه الإخوان.

لم يتم ضم حمزة وأسامة إلى أي مجموعة مثل غيرهما من الإخوان. أغلب الأحيان، كانا يمضيان ساعات بعد الظهر مع مدربهما عاكفين على إتقان فنون استعمال الأسلحة الخفيفة من مسدسات ورشاشات. غير أنهما كانا، في أوقات أخرى، يلتحقان بي أنا. كنت قد أنجزت كل تدريباتي في هذه المرحلة، إلا أن أبا همام كان، في أيام معينة، يصطحبني إلى الحقول للمزيد من التدريب، على المتفجرات عادة. كنت أتحدث مع الصبيين بالإنجليزية، ولاحظت أن لديهما كليهما لكنة أمريكية قوية. غير أنني لم أعرف كثيراً عنهما في البداية، لأن كلاً منهما كان يكره الآخر وكانا في حالة حرب دائمة؛ لا في حالة مجرد شجار و'مناقرة' كما يحصل بين الإخوة والأشقاء عادةً، بل في حالة حرب حقيقية.

ذات يوم كانت مجموعة منا جالسة فوق تلة قريبة من المعسكر. كان حمزة وأسامة يتدربان في حقل الرمي مع أحد المدربين. كان حمزة يطلق النار ببارودة كلاشنكوف وكان أسامة يتدرب. على رشاش بي كي (PK). كلاهما كانا بائسين، من الواضح أنهما لم يكونا يعرفان شيئاً عن الأسلحة. بدا واضحاً أنهما كانا قد نسيا كل ما كانا قد تعلماه في غرفة الصف.

وكالعادة كانا أقل اهتماماً بالتدريب منهما بالتشاجر فيما بينهما. وبعد بضع دقائق توقفا عن إطلاق النار على الأهداف واستدار كل منهما نحو الآخر. ومع أننا كنا بعيدين، استطعنا أن نسمعهما يصرخان. فجأة حمل أسامة رشاشه البي كي (PK) ووجهه نحو أخيه. وسارع حمزة على الفور إلى تسديد كلاشنكوفه على

أخيه بالمقابل. صُدمْنا جميعاً. لم يسبق لأي منا أن وجَّه سلاحه نحو غيره من المجموعة بهذه الطريقة. كان الصبيان يتصايحان بأصوات أعلى فأعلى. إصبعاهما كانا على زنادي رشاشيهما.

أقدِّر أن الجميع على التلة اعتقدوا أن الصبيين كانا موشكين فعلاً على قتل كل منهما الآخر. وربما كانا قد فعلا لو لم يكن المدرب قد سارع إلى القفز للوقوف بينهما والمبادرة إلى إبعاد كل منهما عن الآخر. ما إن انتهى الفلم الكابوسي حتى تبادلنا النظرات المفعمة رعباً. لم يكن قد سبق لنا أن رأينا شيئاً كهذا في المعسكر. كان الولدان قد انتهكا جميع القواعد والأصول التي كنا قد تَلَقَّنّاها وحفظناها عن ظهر قلب منذ اليوم الأول للتدريب. بعد قليل، عدنا نضحك ورحنا نعلّق مازحين على ما كان قد حدث، على الرغم من أنه لم يكن مثيراً للسخرية على الإطلاق. أدى المشهد إلى استنفار أعصابنا.

ذات يوم، جاء والد الصبيين إلى خالدان. لم تدم زيارته سوى بضع ساعات. جاء مستقلاً سيارة رباعية الدفع مع بضعة رجال، ولكن ابن الشيخ أبعدهم بسرعة إلى داخل مخبر المتفجرات قبل أن تتوفر لي فرصة معاينتهم.

ما من أحد كان يتحدث عن مخبر المتفجرات الذي كان خلف المسجد. بالقرب من مدخل كهوف الذخيرة. كنا ممنوعين منعاً باتاً من الدخول. في الحقيقة لم نكن مخوَّلين حتى النظر إليه. غير أن المبنى كان مجهزاً بنوافذ زجاجية وكانت رؤية المعدات ميسَّرة ـ الأكواب الصيدلانية الكبيرة ـ أنابيب الاختبار، كل شيء، تماماً مثل أي مخبر مدرسي.

الشخص الآخر الوحيد الذي سبق لي أن رأيته داخلاً إلى المخبر كان أسد الله، ذلك المدرب الجزائري أحمر الشعر الذي جاء إلى خالدان لمدة أسبوعين. رأيته يدخل المخبر مع ابن الشيخ عدداً من المرات. وفيما عدا ذلك أدمنّا على مجرد التظاهر بأن المخبر لم يكن موجوداً.

كان الصبيان دائمي إلحاق الأذى كل منهما بالآخر، مما جعلهما يكثران من المجيء إلى المستوصف. كانا شديدي الاختلاف. فأسامة كان مفرط النشاط؛ كان دائم النَّطْوَطة وكثير الكلام، في حين كان أخوه أهدأ، وأكثر تحفظاً.

بعد قليل، بدأ أسامة يحدثني عن أهله. علمت أن والد الصبيين، مصري، وعالم. والولدان كانا قد ترعرعا معظم الوقت في كندا، غير أنهما كانا يعيشان الآن في بيشاور. كانا مع والدهما في خوست سنة 1991، خلال المعارك الشرسة والعنيفة التي تمخضت عن إطاحة نجيب الله وإخراجه من السلطة.

كان أسامة دائم التباهي بأبيه الذي كان، برأيه، شخصاً مهماً على معرفة بكثير من الناس. قال لي: 'أبي هو أحد أقرب أصدقاء زبيدة.'

سألت: 'ومن يكون زبيدة هذا؟' لم أكن قد سمعت بالاسم من قبل.

نظر إليَّ أسامة مستغرباً. سأل: 'ألم تلتقه حين كنت في بيشاور؟'

أجبت: 'لا أعلم. ما شكله؟'

مع شروع أسامة في وصفه، أدركت الشخص الذي كان يشير إليه: إنه الرجل الذي كنت قد بقيت معه في ليلتي الأخيرة بالباكستان، في ذلك البيت المظلم، العجيب. ذلك الذي كان قد زوَّدَني بالسروال والقميص العتيقين، وسلَّمني إلى الدليل الذي جاء بي إلى أفغانستان.

أضاف الصبي مثرثراً: 'إن زبيدة مهم جداً. إنه الذي يتولى نقل جميع العرب إلى المعسكرات ومنها.'

في أحد الأيام سأل أسامة عن شخص آخر. قال: 'هل تعرف أسامة؟'

أجبت: 'أعرفه بالطبع. أنت أسامة.'

'لا، لم أقصد أنا. أسألك عن أسامة الآخر.'

obeikandl.com

سألته: 'ومن يكون؟' كنت واثقاً من أن الصبي كان راغباً في إخباري.

قال: 'إنه بالغ الأهمية. هو أحد أفضل أصدقاء أبي. هو من يدفع قيمة كل الطعام هنا.'

مع مرور الزمن، كنت سأعرف نتفاً إضافية عن أسامة. عرفت أنه بالغ الغنى، كان قد شق طرقاً في سائر أرجاء أفغانستان بعد انتهاء الحرب الأهلية.

وذات يوم سألت: 'من أين هو أسامة هذا؟'

بدأ الصبي يقول شيئاً، ثم ما لبث أن منع نفسه. بدأ وجهه يحمر وهو يقول: 'أعتقد أنه من الإمارات... لا أعرف. لا أستطيع أن أتذكر. قد أكون مخطئاً...'

كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها يحاول إخفاء شيء. كان فاشلاً جداً في ذلك. إلا أنني كنت قد سجلت أن من الضروري أن يكون أسامة شخصاً مهماً نظراً لمحاولة الصبي حجب المعلومات. كان لابد من انقضاء عامين آخرين قبل أن أكتشف السبب.

أما حمزة فنادراً ما كان يتكلم. لعله لم يجد أي فرصة ليفعل، فأخوه لم يكن يكف عن الثرثرة. إلا أن ابن الشيخ أمر في إحدى الليالي بنقله إلى المستوصف جراء إصابته بالحمى ومعاناته من آلام في المعدة. تعين على حمزة أن يقضي الليل في المستوصف، وكنت معه.

تلك هي المناسبة التي أخبرني فيها ما كان قد رآه خلال المعركة في خوست. ليلة بعد أخرى كان يرى السماء مشتعلة بقذائف المورتار والصواريخ. مرة، سَقَطَتْ قنبلة في مكان قريب من المكان الذي كان، مع أبيه، واقفاً فيه في الساحة العامة. غير أن القنبلة لم تنفجر. تنحى الجميع بضع دقائق منتظرين حصول شيء، إلا أن شيئاً لم يحصل. بقيتْ القنبلة هامدة حيث هي.

قال ما إن اتضح أن القنبلة لم تكن موشكة على الانفجار، حتى اندفع حشد من الأفغان لإنقاذ المعدن مع ما فيه من مادة متفجرة. كان الناس شديدي الفقر ودائبين على إعالة أنفسهم عبر بيع نتف من الذخائر وغيرها من المواد إلى المجاهدين.

تحلق الأفغان حول القذيفة، وراح أحدهم يضربها بمطرقة لفتحها من أجل الحصول على المواد الموجودة بداخلها. انفجرت القذيفة. كانت ثمة كرة نار عملاقة، وبعد انقشاع الدخان تبين أن جميع الأفغان كانوا جثثاً هامدة. كانت الأطراف وقطع الملابس مبعثرة في أرجاء الساحة كلها.

ابتسم حمزة وهو ينهي رواية القصة ويقول هازاً رأسه ضاحكاً: 'أليس ذلك غباء؟ إن الأفغان شديدو الغباء.' غير أنني استطعت أن أقرأ في عينيه ما يشي بأن القصة كانت ما تزال تُؤرِّقه وتُحزنه، رغم انقضاء خمس سنوات على وقوع أحداثها.

ممر خيبر

وبعد ذلك ما لبث أن جاء دوري أنا للرحيل عن خالدان في أحد الأيام. لم يكن أي إنذار مسبق. أتى أحد المدربين إلى المستوصف ليبلغني بأن ابن الشيخ كان يريد أن يكلمني، فمشيت إلى كوخه. كان واقفاً أمام أفغاني لم يكن قد سبق لي أن رأيته من قبل. حَيّاني ابن الشيخ، ثم تكلم وقال: 'اذهب وهات حوائجك. ستغادر في ساعة.' ناولني رسالة مختومة. 'أنت ذاهب إلى معسكر آخر، حيث ستتلقى تدريباً متقدماً في المتفجرات. بعد أن تصل إلى بيشاور سلّم هذه الرسالة إلى أبي زبيدة، وهو سيتولى الباقي.'

أخذت الرسالة وعدت إلى المهجع للملمة أشيائي. لم يكن لدي أي وقت للتفكير بما كان حاصلاً. الآخرون جميعاً في حقول التدريب. ولم يكن ثمة،

بالتالي، من أودّعه. حملت كيسي وخرجت به إلى أمام المعسكر حيث كان ابن الشيخ وأبو بكر ينتظرانني مع الدليل. تبادلنا التحية، وقال أبو بكر: 'صَلِّ من أجلنا أيها الأخ!' كان وجهه مفعماً بالدفء والمودة.

في تلك اللحظة، غمرني إحساس بأنني كنت سأراهما، كليهما، مرة أخرى، فقلت: 'سأعود إليكما، إن شاء الله!'

أعادني الدليل إلى الباكستان، وإن سلكنا طريقاً مغايرة هذه المرة. بعد وصولنا إلى بيشاور ذهبنا لأداء الصلاة في الجامع نفسه الذي كنت قد رأيت فيه كلاً من أسامة وحمزة قبل بضعة أشهر.

ما إن انتهينا من الصلاة حتى استقلينا سيارة أجرة أوصلتنا إلى حي بيشاوري لم يكن قد سبق لي أن رأيته. كان فاخراً، مثل حياة أباد. ما لبث الدليل أن أوقف السائق، ثم انتظر اختفاءه. وبعد ذلك مشينا بضع مئات من الأمتار إلى أن وصلنا إلى بوابة دارة (فيلا) كبيرة. قام الدليل بقرع الجرس، وسرعان ما جاء رجل يحمل كلاشنكوفاً ليُدخلنا. مشينا نحن الثلاثة عبر حديقة ندية ومنعشة وصولاً إلى داخل المنزل. كان المكان جميلاً من الداخل، مفرطاً في أوروبيته، أشبه بصور كنت قد رأيتها لقصور ومزارع في الريف البريطاني. كان ثمة عدد من الرجال يجوسون المكان حاملين بنادق رشاشة.

تسلّقنا السلّم المفضي إلى غرفة كبيرة حيث كان رجلان جالسين على وسادتين على الأرض يحتسيان الشاي. الحارس الذي كان قد أدخلنا طلب مني أن أجلس وانتظر. ثم رافق الدليل الأفغاني إلى خارج الغرفة.

بعد بضع دقائق دخل رجل أشقر. كان أبيض البشرة أزرق العينين. في البداية ظننته ألمانياً، إلا أنه ما لبث أن قدم نفسه قائلاً: 'السلام عليكم! أنا أبو سعيد الكردي.' كان الرجل كردياً. قدمتُ نفسي وطلب مني أن أحمل كيسي وأتبعه.

استأجرنا تكسي أوصلنا إلى أحد مواقف الحافلات، حيث استقلّينا الحافلة التي أوصلتنا إلى مخيم اللاجئين. أعادني أبو سعيد إلى نفس البيت الآمن الذي كنت قد أمضيت فيه ليلتي الأولى في مخيم اللاجئين، وطلب مني أن أترك حوائجي هناك. غادرنا البيت وذهبنا إلى حي المخيم الذي كان أبو أنس قد دلني فيه، في يومي الأول هناك، على البيوت الكبيرة العائدة للمقاتلين العرب وعائلاتهم. كانت البيوت مفصولة قليلاً عن باقي المخيم، وأجمل بما لا يقاس. أكبر ومبنية بالطوب.

توقفنا أمام أحد البيوت وقرع أبو أنس الجرس. أدخلنا أحد الحراس. في الداخل، في غرفة الجلوس، رأيت الرجل الذي كنت قد أمضيت معه ليلتي الأخيرة في الباكستان قبل الذهاب إلى خالدان. الرجل ذو النظارات واللحية القصيرة (السكسوكة). عرفت من أسامة وحمزة أن هذا كان أبا زبيدة.

اقتادني أبو زبيدة إلى داخل مكتبه، تاركاً أبا سعيد في غرفة الجلوس. وما إن أغلق الباب، حتى مررت إليه الرسالة التي كان ابن الشيخ قد أعطاني إياها. بعد أن قرأ وضع يده على كتفي وابتسم لي ثم قال: 'ما شاء الله! لقد أبليت بلاءً حسناً في خالدان. أنا فخور بك. غداً أنت ذاهب إلى معسكر جديد قريب من جلال أباد، حيث ستبدأ التدرب على المتفجرات.'

أبو سعيد وأنا بقينا في البيت الآمن تلك الليلة. كان ثمة عدد غير قليل من الرجال، إلا أنني لم أتذكر أياً منهم من زيارتي الأولى.

صباح اليوم التالي استأجرنا، أبو سعيد وأنا، سيارة أجرة رباعية الدفع تسلقت بنا الجبال، نحو ممر خيبر. كانت دَهْشَتي تتزايد باطّراد. كنت أعاني من السأم خلال أسابيعي الأخيرة في خالدان، وكنت أتطلع بلهفة إلى القيام بشيء جديد. أضف إلى ذلك أنني كنت تواقاً لتعلم المزيد عن المتفجرات التي كانت مادتي المفضَّلة في الدورة التدريبية التي جرت في خالدان.

مع تسلقنا متوغلين في عمق ممر خيبر زاد المشهد جلالاً ومهابة على نحوٍ مطرد. قمم الصخور على جانبي الطريق كانت على ارتفاع مئات الأمتار، معانقة للسماء، وكان ثمة حشد من القلاع وأطلال الحصون في كل مكان. رحت أتطلع بشوقٍ ولهفة إلى مغامرتي الجديدة.

ما أكثر ما كنتُ قد قرأتُ عن ممر خيبر! وكم أحسست بأنني في شيء أشبه بالحلم الذي لا علاقة له بالواقع وأنا هناك! أعظم الجيوش في التاريخ مرت من هنا. كان داريوس قد عبر عصفاً على رأس قواته الفارسية، وبعده كان الاسكندر الأكبر وجنكيزخان. ثم جاءت جيوش المغول، التتار، الأتراك، المُغُل والأفغان جميعاً. وبعد كل ذلك أتى البريطانيون. وأنا أنظر محدقاً عبر النافذة، تصورت أجيال المقاتلين المتعاقبة الزاحفة عبر هذه الأرض الجافة التي لا تعرف معنى الغفران والصفح.

اختطفني أبو سعيد من أحلامي اليقظة مع اقترابنا من المعبر الحدودي. أبلغني بأن عليّ ألا أرد على الحراس إذا أوقفوني. كان يجب، بدلاً من ذلك، أن أتظاهر بالجنون. أن أقلِّب رأسي من جهة إلى جهة. أن أبدو كما لو كنت في نوبة صرع. ينبغي ألا أتفوه ولو بكلمة عربية واحدة مهما حصل. كان هو سيتولى كل شيء بالمعالجة.

عندما وصلنا إلى الحدود، استطعت أن أرى أن هذا كان من شأنه أن يكون أخطر بكثير من عبوري الحدودي الأول إلى داخل أفغانستان. ثمة كانت حشود من الناس، السيارات، والشاحنات في كل مكان، مع أعداد كبيرة جداً من رجال الشرطة. وكان هناك مكتب جمركي حيث كان مطلوباً مني، ربما، أن أبرز أوراقي. لم أكن قد رأيت جواز سفري منذ يوم وصولي إلى خالدان، حيث تركته مع أبي بكر. بالطبع لم يكن سيفيدني في شيء. لعل العكس كان هو الصحيح. كنت في

زي أفغاني في حين كان جواز سفري مغربياً، إضافةً إلى أن إقامتي كانت قد انتهت قبل أشْهُر.

وقفت في الصف الطويل الممتد خلف مبنى الجمارك. كان الحشد يزحف ببطء عبر البوابة. ومع اقترابي من الحراس استطعت أن أرى أن هؤلاء كانوا عموماً يوقفون الناس لمجرد التفتيش على الأسلحة والمهربات. كانوا يوقفون بعض الأشخاص لمدة أطول من أجل تدقيق الوثائق.

عندما أصبحت أمام الحارس رفعت ذراعي ليتمكن من تفتيشي كما كان قد فعل مع الآخرين. انتظرت أن يقول شيئاً، غير أن دفعة من الخلف قذفتني إلى الأمام قبل أن يفتح فمه. أحدهم كان يصرخ جرفني السيل البشري المتدفق إلى الأمام.

سرعان ما وجدتني متجاوزاً نقطة الحراسة. لم أفهم ما كان قد حدث، غير أنني عرفت أنني كنت محظوظاً، وتابعت المشي. حين التفتُّ إلى الخلف شاهدت أبا سعيد صارخاً في وجه الحرس بلغة لم أفهمها. أدركت أنه كان قد أخرج الفلم كله.

ما إن أصبحنا، كلانا، على الجانب الأفغاني من الحدود حتى استأجرنا، أبو سعيد وأنا، سيارة أجرة أخرى. توقفنا في جلال أباد لفترة وجيزة كي يتمكن أبو سعيد من التزود ببعض المؤن. كانت جلال أباد مدينة تجارية صاخبة، وكانت الشوارع محاطة من الجانبين بصفوف من المحلات التي تبيع مختلف أصناف البضائع. فوجئت برؤية سائر أنواع الأجهزة الإلكترونية المعروضة للبيع - تلفزيونات، آلات تسجيل ستيريو. سألت أبا سعيد عن سبب إحجام الطالبان عن وضع حد لهذا فشرح لي أن جلال أباد كانت أشبه بنوع من الأرض المحرَّمة في الحرب الأهلية. لم تكن خاضعة لأي من الأطراف المتقاتلة؛ لا لرباني ولا لحكمتيار ولا للطالبان.

وبعد أن انتهى أبو سعيد من التزود بما كان بحاجة إليه، ركبنا سيارة أجرة أخرى رباعية الدفع وانطلقنا لقطع مسافة بضعة كيلومترات أخرى، حتى وصلنا إلى قرية صغيرة. أفادني أبو سعيد بأن القرية كانت تدعى دارونتا، وهو الاسم الذي كان يطلق أيضاً على المعسكر الذي كنا متوجهين إليه.

أنزلتنا السيارة هناك، ثم تقدمنا سيراً على الأقدام عبر القرية. أمامنا ما لبثت الطريق أن غابت في ثنايا أحد الجبال العالية. قال أبو سعيد: 'تلك هي الطريق المفضية إلى كابول.' واصلنا المشي. كان ثمة نهر ناحية اليمين، ثم ما لبثنا أن وصلنا إلى جسر. سرعان ما أدركنا من الضجيج أنه كان في الحقيقة رأس أحد السدود، وحين نظرت إلى الخلف رأيت خزاناً كبيراً.

كان هناك حارسان عند مدخل الجسر. حَدَجانا بنظرة خاطفة ولكنهما لم يفعلا شيئاً. في الطرف الآخر من الجسر كانت ثمة طريق ترابية ضيقة. ومع متابعة السير على هذه الطريق الترابية شاهدت المخلفات الصدئة لجميع أنواع العربات العسكرية السوفيتية المبعثرة بين التلال. وبعد مسافة، رأيت ما بدا أشبه ببيتين كبيرين. غير أنني ما لبثت، مع اقترابنا أكثر وبروز الهيكلين على نحوٍ أوضح، أن أدركت أنهما لم يكونا بيتين بل دبابتين عملاقتين. كانتا نقطة للتفتيش أو حاجزاً.

كان الحاجز محروساً بعدد من الأفغان. بدأ أبو سعيد يكلمهم، وكان واضحاً أن الجميع كانوا يعرفون بعضهم البعض. وفيما كنت واقفاً أنتظر فراغهم من الكلام، عاينت العربتين المدرعتين. رأيت أنهما كانتا من نمطين، كنت قد درستهما، كليهما، في خالدان، وإن لم أكن قد رأيت أياً منهما فعلياً. إحداهما كانت من طراز بي ام بي - 1 (BMP-1) عربة مشاة سوفيتية تطلق صواريخ مضادة للدروع شديدة الانفجار. أما الثانية فكانت من طراز زد اس يو - 23 - 4 ZSU-23-4، معروفة باسم شيلكا. وهي أكبر حتى من البي ام بي - 1 (BMP-1) ومجهزة بمنظومة دفاع جوي موجهة رادارياً.

شعرت بالاعتزاز وأنا أقف هناك أمام العربتين المدرعتين. كنت قد تخرجت من (أكاديمية) خالدان وكنت الآن موشكاً على البدء بشيء أكبر. العربتان المدرعتان كانتا شاهدتين على صحة توقعاتي: كنا قريبين جداً من خطوط جبهات الحرب الأهلية. من الواضح أن كل ما كان خلف الحاجز كان جديراً بالحراسة.

دارونتا

مع متابعة السير صعوداً، راح أبو سعيد يوضح أن دارونتا كانت مؤلفة فعلياً من عدد من المعسكرات المتمايزة لمجموعات جهادية مختلفة. ثمة كان معسكر يديره العرب؛ آخر يديره الكشميريون. ونحن كنا متوجهين إلى معسكر الحزب الإسلامي الذي هو الفريق الموالي لحكمتيار.

كانت الشمس موشكة على الغروب لدى اقترابنا من المعسكرات، فتوقفنا أولاً في المعسكر العربي لأداء الصلاة. أفهمني أبو سعيد أن هذا لم يكن المعسكر الذي كنت سأتدرب فيه. كنا سنغادر بعد انتهائنا من الصلاة. أوصاني بالحذر، وبعدم قول أي شيء عن نفسي للإخوان في المعسكر.

توجهنا مباشرةً إلى المسجد للصلاة، وبعد الانتهاء من الصلاة ابتسم المتدربون العرب لنا مرحبين بنا. من الواضح أنهم تعرّفوا على أبي سعيد. جميعاً كانوا شباباً في مقتبل العمر؛ ذكّروني بالمجندين الجدد الذين كانوا يصلون إلى معسكر خالدان.

اصطحبني أبو سعيد إلى داخل المبنى الرئيسي لمقابلة أمير المعسكر. جلسنا وشربنا الشاي معه، وتحدث هو وأبو سعيد باللغة العربية. لم أفهم كل ما كانا يقولانه فتركت عقلي يجوس المكان برفقة عيني.

بدأت أدرس هؤلاء المجاهدين. جميعاً كانوا فتياناً. حاولت أن أتصور آفاقهم

المستقبلية. تصورتهم ينسفون السفارات، يختطفون الرسميين، يسطون على الطائرات.

لم يسبق لي أن نظرت إلى أحد في خالدان من هذا المنظار على الرغم من أن أولئك كانوا بالطبع، فتياناً مثل هؤلاء تماماً وكانت لهم آفاق مستقبلية تنتظرهم. غير أننا كنا متركزين الوقت كله على تدريبنا، وحين لم نكن نفعل ذلك كنا أكثر تعباً وإجهاداً من أن نستطيع أن نفكر. لم يكن أي مجال ذي شأن يُترك للخيال.

كان الوضع مختلفاً في خالدان لسبب آخر أيضاً. هناك، لم أكن أفكر بنفسي بوصفي شخصاً منفصلاً عن الإخوان. كنت واحداً منهم. أما هنا، فوجدتُني خارج الحلبة. كنت أعرف أنني لن أتدرب مع هؤلاء الشباب. إذن كنت قادراً، للحظة واحدة، على رؤيتهم بعينَيْ جاسوس.

برَبْتَةٍ خفيفة على كتفي، أشار أبو سعيد أن وقت رحيلنا قد حل. ودَّعْنا الأمير ثم عُدنا القهقرى خارجين من المعسكر لمتابعة السير في الطريق النازلة. مرة، أشار أبو سعيد إلى دشمة قوية التحصين أمامنا. أفهمني أنها محطة بث تلفزيوني وإذاعي عائدة لحكميتار والحزب الإسلامي.

ومع دخولنا إلى معسكر الحزب الإسلامي، توقف أبو سعيد وكلَّمني شارحاً:

'هذا هو المكان الذي ستتدرب فيه. هذا المعسكر عائد للمقاتلين العرب في الحزب الإسلامي، وكثيرون من أولئك المقاتلين العرب يأتون إلى هنا من الجبهة للراحة. غير أنك لست واحداً منهم. أنت لست عضواً في جماعة حكمتيار. أنت هنا لسبب مختلف. لا سلطة لأمير المعسكر عليك، باستثناء تنظيم أعمال الطبخ والتنظيف والحراسة اليومية في المعسكر. فيما عدا ذلك تستطيع أن تفعل ما يحلو لك.'

بدت محاضرة أبي سعيد شديدة الغرابة بنظري. في خالدان، كانت كل دقيقة من وقتنا مخططة لنا، وكان الأمير مطلق السلطة والنفوذ. إن هذه النوعية من الحرية التي كان أبو سعيد يصفها بدت لي ملوِّبة، مسيلة للعاب المعنوي والفكري. تابع أبو سعيد محاضرته: 'لتوّي علمْتُ من الأمير هناك أن مدربك لن يكون هنا إلا بعد بضعة أسابيع أخرى. أصيب، وأُسعف إلى بيشاور للمعالجَة.' وجدتني شديد الارتباك. ما الذي كنت سأشغل نفسي به هنا، دون أمير فعلي ودون مدرب؟

نظرت إلى ما حولي ونحن نهم بالدخول إلى المعسكر. كانت ثمة صالات تخزين عند المدخل، ثم عدد من 'البراكيات' في الداخل. غير أن ما لفت نظري حقاً تمثل بعربة البي ام بي - 1(BMP-1) القابعة وسط المعسكر. وعلى مسافة خمسة عشر متراً رأيت دبابة تي - 55(T-55) وهي أيقونية. إذ كنت قد رأيت واحدة في أي من جُل أشرطة الفيديو الجهادية التي شاهدتها. بدأت أقدر أنني كنت، حتى دون وجود أي مدرب، سأجد أشياء كثيرة جديرة بأن تشغلني في دارونتا.

دَلَّني أبو سعيد على بناء صغير من الطوب وسط المعسكر. كان ذلك هو المسجد. كان هناك رجلان جالسان في الداخل، وقدمني أبو سعيد إليهما. أحدهما أبو موسى، كردي عراقي، والآخر أبو حميد، من الأردن. كلاهما كانا يعيشان في المعسكر. ربما كانا في أوائل ثلاثينياتهما، بالغي الود. نظرت من حولي داخل المسجد فوجدت المكان ملآن بالكتب. كان هناك جهاز تلفزيون أمام أحد الجدران.

غاب أبو سعيد دقيقة، وحين عاد كان معه رجلان. أحدهما أبو جهاد، أمير المعسكر. من الجزائر. والثاني كان مفاجئاً لي. صديقي من خالدان: عبد الكريم. من الواضح أنه فوجئ مثلي حين رآني، غير أن الأمير بدأ الكلام قبل أن تتاح لنا فرصة تبادل أي كلمة.

obeikandl.com

كرر أبو جهاد كثيراً من الأشياء التي كان أبو سعيد قد قالها لي: أن المعسكر عائد لحكمتيار، والإخوان من الجبهة آتون ذاهبون. مسؤوليات السخرة اليومية موزعة على الجميع. أما الآن فلم يكن في المعسكر سوانا نحن الخمسة: أبو موسى، أبو حميد، أبو سعيد، عبد الكريم، وأنا.

ثم توجه أبو جهاد إليّ مباشرةً وقال: 'ربما سمعت أن أسد الله، مدربك، أصيب اليوم. اتصلنا بإخواننا في بيشاور قبل بضع دقائق، وعلمنا، لسوء الحظ، أنه لن يستطيع العودة قبل شهر أو نحوه. يمكنك أن تقتل الوقت إلى أن يعود بالتدرب على الدبابات هنا، جنباً إلى جنب مع أي أسلحة تحظى باهتمامك.'

ضحكت بين وبين نفسي. بدا وكأن عطلة صيفية بادئة: لا دروس طوال شهر كامل وجميع الأسلحة المدهشة للعب بها. وكذلك فإن عبد الكريم كان هنا، بما كان يمكنني من أن أتكلم بالفرنسية من جديد. من شأن هذا أن يكون أكثر انطواءً على المتعة والتسلية بما لا يقاس من العمل في صيدلية خالدان.

وقفنا حين أنهى الأمير كلامه. أقبل عبد الكريم علي راسماً ابتسامة عريضة على وجهه: 'الحمد لله أنك هنا أيها الأخ!' ثم قادني إلى مطبخ مشاة نقال في وسط المعسكر. ثمة كان سخان في الداخل، والطاقة الكهربائية مأخوذة من السد الذي مشيت فوق جسمه في طريقي إلى هنا. ونحن نتبادل الكلام، قام عبد الكريم بغلي الماء وأعد لنا فنجانين من النسكافه.

صيد السمك

عبد الكريم وأنا تكلمنا عدداً من الساعات في تلك الليلة الأولى. حدثني الأخ عن أسد الله، مدرب المتفجرات، الذي كان قد عَرَّض نفسه للإصابة في وقتٍ سابق من اليوم لدى إعداد الآر دي إكس (RDX). سألته عما إذا كان هذا أسد الله نفسه الذي كان قد جاء إلى خالدان، ذلك المدرب الجزائري الذي كان قد أمضى فترات طويلة جداً من الوقت في مخبر المتفجرات. فقال إنه هو.

استأنفنا من حيث انتهينا في لقائنا الأخير. أخبرني عبد الكريم أنه كان، بعد مغادرة خالدان، قد أقام في بيشاور مدة شهرين عاكفاً على إتقان فن تزوير الوثائق - جوازات السفر، بطاقات الاعتماد (المصرفية)، تذاكر الهوية. كان قد وصل إلى دارونتا قبلي بشهر تقريباً. ومن ذلك الوقت كان دائباً على الدراسة مع أبي موسى، الكردي العراقي الذي كنت قد التقيته في المسجد. كان يتعلم فن تركيب أجهزة تحكّم عن بعد لتفجير العبوات الناسفة.

شاءت الأقدار أن ننام عبد الكريم وأنا في الغرفة نفسها بدارونتا. كانت هي غرفة أسد الله أيضاً، غير أن متسعاً إضافياً بات متوفراً بعد غياب الأخير.

خلال الأسابيع التالية، كنت أحياناً سأحضر مع عبد الكريم الدروس التي كان الأخير يتلقاها من أبي موسى في مجال الأجهزة الإلكترونية. في خالدان كنا قد تعلمنا أموراً أساسية جداً مثل كيفية تفجير عبوة باستخدام ساعة أو هاتف خليوي. أما عبد الكريم فكان يتعلم شيئاً أصعب بكثير. كان يتعلم فن تركيب أجهزة تفجير عن بعد من الصفر. كانت ثمة سائر أنواع المكوِّنات: المعالجات الصُّغْرية، لوحات المفاتيح. غير أن العمل نفسه كان شاقاً ومتطلباً لقدرٍ هائل من التركيز. ومع ذلك فإن عبد الكريم كان تواقاً للتعلم. كان بحوزته كتاب مدرسي ضخم، وكان يبقى منكباً عليه إلى ساعات متأخرة من الليالي.

سائر أصناف الأسلحة كانت متوافرة في دارونتا، وقطع كثيرة منها كانت أكثر تعقيداً بما لا يقاس من تلك التي تعاملنا معها في خالدان. كانت موجودة في كل الأمكنة. صالتا التخزين عند المدخل كانتا مملوءتين بالأسلحة، كما كانت ثمة مستودعات تموين أخرى كثيرة خلف المسجد ملأى بمختلف أنواع البنادق، الألغام، والقنابل اليدوية (الرمانات).

دَرَّبَني الأمير أبو جهاد على عدد كبير من الأسلحة الجديدة خلال هذه الأسابيع الأولى. تعلمت كيفية استخدام حنفية الايه تي - 4 (AT-4 Spigot)،

وهي سلاح مضاد للدروع ضخم يتطلب مجرد نقله ثلاثة عناصر. ينبطح الرامي مائلاً للإطلاق وتندفع القذيفة الصاروخية بسرعة فائقة. ما إن تنطلق حتى تسير بسرعة تصل إلى نحو مئتي متر في الثانية. ثمة سلك طويل يصل القذيفة بالراصد مما يمكنهما من التواصل. فالقاذف يستطيع توجيه القذيفة الصاروخية بدقة فائقة نحو أهداف على بعد اثنين من الكيلومترات.

كذلك تدربتُ على الاس بي جي - 9 (SPG-9). وهو رشاش روسي يطلق صواريخ مضادة للدروع، تماماً مثل البي ام بي - 1 (BMP-1). الذي كنت قد رأيته أمام المعسكر. أحدث السلاح دوياً مخيفاً عندما أطلقته، غير أنني لم أكن متوفراً على أي شيء أسد به أذني. تعين علي أن أتعود عليها.

ومع ذلك فإن بواريد القنص كانت هي المفضلة عندي. لم أكن قد أطلقت من أي واحدة منها في خالدان؛ لعل بارودة القنص التي كنت قد اقتربت منها كثيراً هي تلك التي كنت قد رايتها في غرفة أبي بكر يوم زرته لإعطائه إبرة. أما هنا في دارونتا فكانت ثمة أعداد كبيرة من بواريد القناصة من طراز دراغونوف. كنت شديد الفرح لتمكني أخيراً من استخدام واحدة منها. كنت قد اشتريت أعداداً من بواريد الدراغونوف لياسين في بلجيكا، غير أنها، على الدوام، كانت مفككة حين كان لوران يسلمني إياها. كانت بارودة الدراغونوف سلاح الهدّاف، الرامي الماهر، وكنت عاشقاً لدقتها.

لم نكن نعاني من أي نقص ذخيرة في دارونتا. ثمة كان رصيد لا نهائي في المستودعات وكان أبو جهاد سخياً جداً معنا، يسمح لنا أن نستخدم ما نريد وبمقدار ما نشاء. ولم نكن نقصّر في الاستفادة من هذين السخاء والوفرة. لم يكن ثمة أشياء أخرى يمكننا أن نفعلها.

في إحدى الليالي، قررنا عبد الكريم وأنا، أن نصطاد السمك بقنبلة يدوية. ذهبنا إلى البحيرة وقذفناها في الماء. غير أن توقيتنا كان خاطئاً. كانت الرمانة

معيرة على أن تنفجر بعد عشر ثواني، إلا أننا بكّرنا في قذفها وكانت قد أصبحت بعيدة عن السطح عندما انفجرت. في المرة الثانية قررنا استخدام السمتكس. استعملنا صاعقاً متفجراً وكانت النتيجة ممتازة. مئات فراخ السمك طفت على السطح، وسارعنا، عبد الكريم وأنا، إلى السباحة نحو وسط البحيرة ومعنا سطلان لالتقاط عشائنا.

في إحدى المرات استخدمنا بارودة الدراغونوف لصيد البط. كانت العملية ناجحة بمعنى واحد: كنا قادرين على قتل البط بسهولة. غير أننا كنا قد وقعنا في خطأ استخدام طلقات خارقة للدروع، وحين ذهبنا لالتقاط البط وجدناها ممزقة أشلاء. ما كنا لنستطيع أن نستسيغ تناولها وهي كذلك.

على الرغم من أننا كنا نلهو معاً، فإنني أستطيع أن أقول إن شيئاً كان قد تغير بالنسبة إلى عبد الكريم. بات أهدأ مما كان في خالدان، ولكن أكثر حزناً أيضاً. كثيراً ما كنت أعود إلى غرفتنا فأجده مخربشاً خربشات عابثة على هوامش كتابه التعليمي بدلاً من أن يكون عاكفاً على الدراسة.

كان عبد الكريم فناناً رائعاً. كان يرسم صوراً تفصيلية بالغة الروعة للأشخاص. كان استثنائي الولع برسم محاربي العصور القديمة مثل تلك التي كنت قد رأيتها في المتحف ببروكسل: صور أوائل المجاهدين بملابسهم الحربية الكاملة. غير أن صفة مشتركة كانت جامعة لسائر رسومه؛ كانت بلا وجوه.

مرات كثيرة سألت عبد الكريم عما إذا كان ثمة خلل. عادة كان يراوغني. غير أنه ذات ليلة أقر بأنه كان مكتئباً لأن الجبهة الإسلامية المسلحة في فرنسا كانت قد أوفدته إلى معسكرات التدريب كي يصبح مجاهداً. قال إنه كان شديد التوق لأن يصبح شهيداً. غير أن أمراً واحداً كان يمنعه: أمر ابنته. إذا ما قضى فإن مطلَّقَتَه، وهي من الطواغيت، كانت ستتولى تربية ابنته. لن يبقى من يقوم بتنشئة الطفلة نشأة مسلمة.

أبو جهاد

كان عبد الكريم خبيراً بجغرافية المعسكر، فأطلعني على مختلف الأجزاء والأقسام. على أحد أطراف المعسكر ثمة كان عدد من المستودعات المحفورة بعمق. كانت ملأى بأجزاء مكوِّنة للمتفجرات. وهذه الأجزاء كانت تخزن في صناديق منفصلة لمنعها من التفاعل. وداخل المستودعات كان كُلٌّ صندوق معنوناً بعناية: آسيتون، حمض آزوت، حمض كبريت، أمونيوم، سيليلوز، مسحوق الألمنيوم، وما إليها.

كانت المخابر على بعد نحو خمسين متراً من المستودعات، بالقرب من طرف المعسكر. أحدها كان مخصصاً للتدريب على المتفجرات، وآخر على السموم. وخلف المخابر كانت هناك زريبة صغيرة ملأى بالأرانب.

غير أنه لم يكن هناك أحد في دارونتا يستطيع تدريبنا على المتفجرات، مما أبقى معظم وقتنا ملكاً لنا. أحياناً كنا نذهب إلى جلال أباد، ونزور السوق. وفي أوقات أخرى، كنا نشاهد أفلاماً في المسجد. كان هناك حشد هائل من أشرطة الفيديو الدعائية التي كنا نستطيع مشاهدتها في أي وقت. على الدوام كنت من عشاق الأفلام، وقد تذكرت أنني كنت قد افتقدت متابعة البرامج التلفزيونية وأنا في خالدان. أمضيت كثيراً من الوقت في المسجد خلال تلك الأسابيع الأولى عاكفاً على استعراض المجموعة الكبيرة من الأفلام عن المجاهدين خلال الحرب السوفيتية ـ الأفغانية.

ذات يوم وجدت نفسي في المسجد مع أبي موسى، ذلك الكردي العراقي. كنا نشاهد فلماً كان قد سبق لي أن رايته من قبل في مركز بومبيدو، فلْم ذلك المجاهد المسرحي المثير الواقف على برج إحدى الدبابات هاتفاً: 'الله أكبر!' وهو يرفع كلاشنكوفه فوق رأسه. قلت لأبي موسى إنه كان أحد أفلامي المفضلة.

وافقني الرأي: 'نعم، إنه فلم عظيم. تلك الدبابة مدهشة.' غير أن أبا موسى كان يضحك وهو يقول هذا، فسألته عن السبب ورد علي بسؤال: 'ألم تتعرف عليها؟ إنها دبابتي!'

عندئذ أدركت ما عناه: كانت الدبابة هي التي - 55 (T-55). الواقفة قرب واجهة المعسكر. أخبرني أنه كان قد استولى عليها خلال إحدى المعارك في كابول، وأنه كان يسوقها لدى تصوير الفلم. ذُهلت. هذه الصورة كانت قد انغرست في عقلي قبل عقد من الزمن، مما جعلني أبادر إلى انتهاز الفرصة حين سألني أبو موسى عما إذا كنت راغباً في تعلم فن استخدام هذه الدبابة.

علمني أبو موسى كل ما يمكن تعلُّمَه عن التي - 55 (T-55). القيادة، تدوير المحرك، تشغيل المدفع. وحين اقتنع بأنني أصبحت جاهزاً، سمح لي بأن أخرج فيها وحدي. سقتها إلى فسحة مستوية قريبة من المعسكر وهو يراقب. كانت الدبابة ثقيلة جداً وصعبة المناورة. ثم ما لبثتُ أن وجدت نفسي متسلقاً سفح التلة، متجهاً نحو معسكر الكشميريين. بطرف عيني رأيت أبا موسى دائباً بعصبية على الإيعاز إلي بالإشارة طالباً مني أن أتوقف. ضغطت على المكابح بأقصى سرعة استطعتها. حين وصل أبو موسى، شرح لي أن سفح التلة كان مدروزاً بالألغام التي تركها السوفييت وراءهم. عَرَّضْتُ نفسي لخطر النسف.

فيما بعد، عَزَّيْت نفسي. رأيت احتمال لومي على الخروج عن المسار الصحيح غير وارد لحداثتي في امتلاك إجازة السوق التي لم أحصل عليها إلا قبل أشهر.

على امتداد عدد غير قليل من الأسابيع، كنا، عبد الكريم وأنا، المتدربَيْن العربيين الوحيدين في المعسكر. أما الآخرون الذين كنا نراهم فكانوا من مقاتلي الحزب الإسلامي الذين كانوا يأتون من الجبهة لقضاء بضعة أيام. كنا نتجنب

التحدث معهم بعد أن قيل لنا إننا لم نكن متبنين رسالتهم وإنَّ من الضروري ألا ندس أنوفنا في سياستهم.

كان مقاتلو الحزب الإسلامي يتناولون الطعام معنا ويصلّون معنا في المسجد وبالتالي فقد كنا، بطبيعة الحال، نسمع ما كانوا يتحدثون عنه. أكثر الأحيان كانوا يتحدثون عن الطالبان. كنا في أواخر خريف 1995، وكنا نسمع عبر الراديو عن معركة كابول العنيفة. مع أن رباني ومسعود كانا صامدين فإن الطالبان كانوا قد حققوا مكاسب كبيرة. غير أن كثيرين ظلوا مقتنعين باستحالة فوز الطالبان بالعاصمة وحدهم، بأن عليهم أن يتحالفوا إما مع حكمتيار وقواته أو مع أمير الحرب الأوزبكي الجنرال رشيد دوستم، اللذين كانا لا يزالان يسيطران على قطاعات واسعة من البلاد.

كان جميع مقاتلي الحزب الإسلامي مقتنعين بأن على حكمتيار أن يقف في صف الطالبان. كانوا يكرهون الرباني، ويرون التحالف (مع الطالبان) فرصة للخلاص منه مرة وإلى الأبد. غير أنهم، جميعاً، كانوا يعرفون أن أبا جهاد، أمير المعسكر، كان ضد الفكرة. كان كامل الولاء لحكمتيار الذي لم يكن راغباً في التحالف مع الطالبان.

بطبيعة الحال كنا، عبد الكريم وأنا، في صف الأمير. كنا نعرف أن الطالبان أهل بدعة. غير أننا لم نكن على علاقة بحكمتيار مما دفعنا إلى أن نكتم آراءنا. أما أبو موسى وأبو حميد، الأردني، فلم يكونا، على ما بدا، مُبالِيَيْن بأي من الطرفين.

ما لبث التوتر أن تفجر. قرر المقاتلون تنصيب أمير جديد بدلاً من أبي جهاد. طرحوا الأمر على التصويت، ولكنهم اختلفوا لأن التصويت لم يكن بالإجماع. بعضنا لم يُدْلِ بصوته فانزعجوا. غير أن أي مشكلة لم تنشأ لأن أبا جهاد سرعان

ما كان قد اكتشف تفاصيل العملية. لم يكن غاضباً؛ اكتفى بلزوم فراشه. بقي في غرفته وكانت وجباته تصله إلى حيث هو. أعلن للملأ أنه كان مريضاً.

بعد بضعة أيام، عُدْناه، عبد الكريم وأنا، للسؤال عن صحته. حين دخل غرفته تبين بوضوح أن أبا جهاد لم يكن يعاني من أي علة. فقط كان مستاء من انقلاب الإخوان عليه. لم يفهم سبب عدم حبهم له، وكان متأثراً عاطفياً. استمر الوضع أسبوعاً، حتى أولئك المعارضون للأمير بدؤوا يقلقون. لم يكن أبو جهاد قد أزيح من منصبه؛ كان لا يزال أمير المعسكر، وكان لابد لشخص ما من أن يكون مسؤولاً. وهكذا فإن مجموعة من مقاتلي الحزب الإسلامي عقدت اجتماعاً وقررت زيارته في غرفته. قال له أفراد المجموعة إنهم كانوا شديدي الرغبة في أن يكون أميراً، ورجوه أن يعود إلى الإمارة.

بعد بضع ساعات، عاد أبو جهاد إلى الظهور، فعادت المياه إلى مجاريها. انتهت المسرحية الدرامية. غير أني لم أستطع إلا أن أرى أن هذا كان تصرفاً غريباً بالنسبة إلى أي أمير، ولاسيما بالنسبة إلى أمير على بعد بضعة كيلومترات فقط من منطقة تدور فيها رحى الحرب.

بعد صلاة ظهر أحد الأيام أبلغنا أبو جهاد بعزمه على الانتقال إلى المعسكر الكشميري. سألَنا عما إذا كان أحد منا يريد إيصال رسالة إلى بيشاور أو المعسكرات الأخرى، أو عما إذا كان أي منا راغباً في مرافقته. راودني الفضول؛ قررت الذهاب معه.

مع أن المعسكر الكشميري لم يكن يبعد سوى نحو أربع مئة متر، فقد تعين علينا أن نلف بالسيارة حول المعسكر العربي، وصولاً إلى الطريق ومن العودة إلى تسلق التلة حيث كان موقع المعسكر الكشميري. كانت المساحة الفاصلة بين معسكرنا ومعسكرهم مدروزة بالألغام، ولم نكن نستطيع الاقتراب منها.

استقبلنا قائد المعسكر لدى وصولنا، وتقدمنا رجوعاً باتجاه مبنى صغير مجهز بجهاز اتصال إذاعي. اتصل أبو جهاد مع بيشاور ومن ثم مع معسكرات أخرى في ساروبي وخوست. وفيما كنت جالساً أصغي، كشميري شاب جاء بالحلويات والشاي. وبعد ذلك اتصل أبو جهاد مع ابن الشيخ تبادلا الكلام عدداً من الدقائق، ثم ناولني السماعة. قلت:

'السلام عليكم! كيف الأحوال عندكم؟'

'عليكم السلام! ماذا عن التدريب؟' بدا سعيداً بسماع صوتي. قلت له:

'نحن بانتظار عودة أسد الله.'

'مفهوم. أنت يا أبا إمام تركت لنا هنا مشكلة كبيرة.' استنفرت لثانية؛ كنت مدمناً على توبيخات ابن الشيخ. غير أنه تابع يقول: 'أنت مشهور في القرية. منذ إنقاذك للصبي، جميع أهل القرية يأتون إلى المعسكر طلباً للرعاية الطبية. ليس لدينا أحد يتولى علاجهم، باتوا موشكين على الإجهاز على كل مخزوننا من الأسبرين!'

سمعته يضحك على الطرف الآخر من الخط، فضحكت أيضاً. افتقدت ابن الشيخ.

ساروبي

كنا في المسجد أحد الأيام حين سألنا أبو جهاد عما إذا كنا راغبين في السفر معه إلى أعالي هضبة لاتاباند. دبابتان كانتا للتو قد سقطتا في أحد الوديان السحيقة حيث تم إجبار مسعود وجيشه على الانسحاب من موقعه جراء تقدم قوات الطالبان. كان أبو جهاد وأبو موسى ذاهبين لإنقاذ بعض التجهيزات من الدبابتين. كان ثمة جهاز تسديد بالأشعة تحت الحمراء أراده أبو موسى لنفسه كنا سنبقى بضعة أيام في معسكر الحزب الإسلامي في ساروبي.

كنت أستمع إلى الراديو، وكنت أعرف كل شيء عن ساروبي من خلال التقارير الإذاعية. كان المعسكر قاعدة حكمتيار الرئيسية، بسبب موقعه الاستراتيجي ذي الأهمية الاستثنائية. فساروبي كانت على مسافة نحو خمسة وسبعين كيلومتراً من كابول، إضافةً إلى كونها حاضنة سد عملاق كان يولد كل الطاقة الكهربائية المغذّية للعاصمة. معركة عنيفة كانت دائرة حول ساروبي خلال الخريف كله.

انقضضنا، عبد الكريم وأنا، على فرصة اللحاق بركب أبي جهاد؛ أردنا رؤية خطوط الجبهة. بدأنا الرحلة صباح اليوم التالي الباكر. كان أبو جهاد وراء مقود شاحنة بيك آب من طراز تويوتا، وكان أبو موسى جالساً معه في القمرة. أما عبد الكريم وأنا فكنا في الصندوق الخلفي المكشوف مع اثنين من محاربي الحزب الإسلامي.

لم يسبق لي في حياتي أن بردت كما فعلت وأنا في صندوق الشاحنة المكشوف. كان الوقت أواخر الخريف، وكان ثمة رياح عاتية بالغة الشراسة تعصف عبر الصدوع والوديان الانهدامية. والطرق كانت شديدة الوعورة. قطاعات كبيرة منها كانت مدمرة بالقنابل والألغام. ثمة كانت حواجز على الطريق، غير أن الحراس لم يكونوا يوقفوننا.

كنت أعرف هذه الطريق ـ الطريق من جلال أباد إلى ساروبي ـ من مطالعاتي ومن الأفلام الوثائقية. كانت بؤرة كمائن غير عادية خلال الحرب مع السوفييت. كنت أستطيع رؤية شواهد تلك المعارك في كل مكان. فالوادي السحيق تحت الطريق كان متروعاً بحطام الدبابات والمدافع السوفيتية. استطعت أن أتخيل المجاهدين منقضّين كالرعود على الغزاة السوفييت.

وصلنا إلى ساروبي في ساعة متأخرة من بعد الظهر وعبرنا القرية إلى المعسكر الواقع خلفها مباشرةً. كان ثمة أفغانيان يحرسان المدخل، طلبا منا

التوقف بالإشارة. تكلم معهما أبو جهاد لدقيقة، ثم فتحا البوابة وسمحا لنا بالدخول.

نبهنا أبو جهاد إلى احتمال وجود حكمتيار في المعسكر. وإذا كان، فإنه كان سيقابله. قال إن حكمتيار كان ينام في إحدى الدشم عند قاعدة السد حين كان هو - أبو جهاد - في ساروبي. ولكن ما كان أكثر إثارة من احتمال لقاء حكمتيار تمثل بالحشد غير العادي من الأسلحة والمدافع المنتشرة حولنا. ثمة كانت دبابات مثل التي - 55 (T-55) والتي - 64 (T-64) الأحدث، الشيلكات التعددية، العديد من راجمات الصواريخ الكبيرة والصواريخ العملاقة المرافقة. كانت هذه أسلحة فعلية لجيش فعلي.

في هذا الجزء من المعسكر لم يكن هناك سوى أفغانيين، فتابعنا السير إلى جزء آخر من المعسكر عائد للعرب من مقاتلي الحزب الإسلامي. عبرنا جسراً ورأينا السد إلى يسارنا. بدا عملاقاً، وصخب الماء المندفع فوقه كاد يصم الآذان.

بعد قليل وصلنا إلى بعض المهاجع. كنت أرتجف لحظة تزولي من الشاحنة. قادنا أبو جهاد إلى أحد المباني، حيث استقبلنا عدد من المجاهدين العرب. أقمنا الصلاة معاً في مسجد صغير قريب ثم تناولنا وجبة العشاء وتحدثنا على وقْع دَويّ السد في الأفق البعيد.

في اليوم التالي تسلقنا بالسيارة إلى هضبة لاتاباند برفقة عدد من المقاتلين العرب من معسكر ساروبي. كانت الطريق ملغمة بكثافة شديدة مما اضطرنا إلى تجنبها والسير بدلاً من ذلك على مجرى جرى تجفيفه للنهر.

صادفنا شاحنة كبيرة مع شروعنا في التسلق إلى هضبة لاتاباند. ومع اقترابنا أكثر، استطعت أن أرى ثلاثة حراس مسلحين حول الشاحنة. اقترب

أبوجهاد بالسيارة من الشاحنة ونظرت أنا إلى داخلها. كانت الشاحنة ملأى بالألغام وسائر أنواع الأسلحة الأخرى.

كان ثمة رجل بجانب الشاحنة. ما إن مَيَّزَ أبا جهاد حتى ابتسم وحيا ملوحاً. كان يحمل مخلباً معدنياً مكان يده اليمنى. تبادل هو وأبو جهاد الكلام لبضع دقائق ثم تابعنا السير. شرح أبو جهاد أن الرجل كان صياد ألغام مشهوراً دأب على كسب الكثير من المال عن طريق استخراج المواد المتفجرة في الداخل وإعادة بيعها للمجاهدين.

تطلب الوصول إلى الدبابتين مدة خمس ساعات. استطعنا رؤيتهما من الطريق؛ كانتا قد سقطتا في المضيق، في وادٍ بعمق عشرين متراً تقريباً. كانتا اثنتين من دبابات التي - 55 (T-55) الجديدة.

نزلنا جميعاً من الشاحنة، وربض الآخرون على حافة الطريق للنظر إلى قلب المضيق. كنت أعاني من مغص شديد مزحوماً جداً فانطلقت نحو التلة وقبعت خلف بعض الصخور لأقضي حاجتي. وحين انتهيت وقفت فرأيت أبا جهاد يلوح إلي بذراعيه وهو يصرخ: 'ماذا تفعل أنت هناك، يا أبا إمام؟ لماذا ابتعدت عن المجموعة؟'

أجبته صارخاً: 'كان علي أن أفعل. كان الأمر ملحاً.'

'اسمع يا أبا إمام، التلة ملأى بالألغام. مسعود كان هنا بالتحديد!'

فجأة، فهمت. جيش مسعود المنسحب قد لغم الطريق لتغطية جناحه. غير أني لم أكن قادراً على فعل شيء بعد أن فعلت ما فعلته. مشيت نازلاً عن التلة آملاً ألا يحصل مكروه.

سفح الوادي السحيق كان شديد الانحدار مما جعل إنقاذ المعدات من الدبابتين مهمة محفوفة بالمخاطر. كنا ثمانية أشخاص، غير أن اثنين من الإخوان

بقيا مع الشاحنة في حين بادرنا نحن الباقين إلى النزول متمسكين بحبل ثخين إلى الدبابتين. وفيما عكف أبو جهاد وأبو موسى على فك القطع الكهربائية التي كانا قد جاءا للحصول عليها، انشغلت أنا بمعاينة داخل الدبابتين. كتل جافة من الدم كانت تغطي المقاعد والجوانب في الدبابتين.

في طريق عودتنا إلى ساروبي تلك الليلة، توقفنا في إحدى محطات الحزب الإسلامي، على هضبة مرتفعة. 'تعالوا ننزل!' قال أبو جهاد. 'نستطيع أن نرى كابول من هنا.'

وفيما انشغل الآخرون بالحديث مع الأفغان المتمركزين في المحطة، مشينا. عبد الكريم وأنا، إلى حافة الصخرة. ثمة كانت سلسلة من الجبال أمامنا وبعدها سهل فسيح. وهناك في الأفق البعيد، استطعنا أن نرى ومضات قذائف المدفعية المضيئة. أما دوي الانفجارات فكان يستغرق بضع ثوانٍ ليصل إلينا حيث كنا واقفين عابراً المشهد كله.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها حرباً حقيقية. بقينا، عبد الكريم وأنا، واقفين هناك بضع دقائق، إلى أن نادانا أبو جهاد. أقمنا الصلاة مع الأفغان ثم توجهنا نحو المعسكر عائدين.

أفغاني، أفغاني

أقمنا في ساروبي نحو أسبوعين. لم نقابل حكمتيار قط، غير أننا أمضينا وقتاً ممتعاً مع المجاهدين العرب كنا بصدد مستوى جديد تماماً من المدفعية. ثمة كانت راجمتي المفضلة العملاقة للصواريخ من طراز فروغ - 7 (FROG-7). كانت القذائف الصاروخية هائلة؛ كانت الواحدة تزن أكثر من خمس مئة كيلوغرام.

ومع ذلك فإن أكثر ما تعلمتُه كان حول سياسة الحرب. أدركت مدى عمق حقد مقاتلي الحزب الإسلامي على مسعود، وهو أمر أحزنني. كانوا يسخرون من

طريقة اعتماره قبعته الباكول مائلة إلى الخلف. بدوا مقتنعين بأنه كان ألعوبة بيد الفرنسيين لأنهم سمعوه في إحدى الليالي عبر الراديو يتكلم باللغة الفرنسية مع أحد قادته الميدانيين.

قال لي أحد الرجال إنهم كانوا قد تحدثوا مع مسعود قبل بضعة أيام. سمعوا صوته عبر الراديو فدخلوا على الموجة نفسها. احتد النقاش وراحوا يهينونه ويشتمونه. انتظرهم مسعود إلى أن انتهوا، ثم طلب من العرب أن يغادروا أفغانستان قائلاً إنه لم يكن ثمة أي جهاد بل معركة داخلية مجردة صراعاً على الأرض والسلطة. لم يكن ثمة ما يدعو العرب إلى الانخراط.

والمجاهد الذي روى لي القصة كان يسخر من غباء مسعود. وقد قال إن الجماعة استأنفت شتائمها بعد أن أنهى مسعود كلامه. غير أن هذا المجاهد اعترف بأن مسعوداً بقي بالغ التهذيب واللباقة خلال الحوار كله.

لم يكن جنود الحزب الإسلامي يثقون بالأفغان على الإطلاق. بين الحين والآخر كانوا يزورون المعسكر الأفغاني الواقع على الطريق، إلا أنهم كانوا يفضلون البقاء وحدهم معظم الوقت. كانوا يروون قصصاً عن المعارك التي دارت حول كابول أوائل التسعينيات ويتحدثون عن مدى سرعة نقل الأفغان لولاءاتهم. أفادوا بأنهم كانوا قد شاهدوا أفغاناً يقتلون مجاهدين عرباً، حتى وهم يقاتلون مع الطرف نفسه. دأبوا على تنبيهنا: 'إياكم أن تثقوا بالأفغان!' كان قد سبق لي أن سمعت عدداً من التعليقات المشابهة في خالدان، رغم أن أحداً لم يطلقها على نحوٍ صريح ومباشر. بدأت أفهم سبب منعنا الدائم من الكلام مع الأفغان من أدلاّء، حراس، أو طبّاخين.

إن ظاهرة عدم استساغة مقاتلي الحزب الإسلامي للأفغان كانت بالغة الحدة إلى درجة أن حكمتيار نفسه لم يكن ناجياً من الشتائم والإهانات. أحياناً كان الرجال يسخرون من الحرب، يهزون أكتافهم، ويهتفون: 'حكمتيار، رباني -

أفغاني، أفغاني.' كان المعنى واضحاً: لم تكن هوية من يستولي على كابول ذات أهمية؛ لا فرق بين أفغاني وأفغاني آخر، في النهاية.

في البداية، أربكني هؤلاء الرجال. لماذا كانوا هنا بالمطلق؟ من الواضح أن أعواماً من المعارك كانت قد جعلتهم قساة ميالين إلى الشك والكلبية. كانوا أكبر سناً من الفتيان الذين كنت قد التقيتهم في خالدان، أقله في ثلاثينياتهم. عيونهم كانت فارغة، نظراتهم بلا معنى. كانوا جميعاً قد قاتلوا ضد السوفييت، ويتكلمون عن تلك الحرب باعتزاز وبنوع من الحنين الماضوي (النوستالجيا). أما الآن فبدوا هائمين فقط بعشق الحرب؛ لم يكونوا يتحدثون عن أي شيء آخر. كانوا مولعين بتقديم روايات تفصيلية لقصص معارك كبرى كانوا شهوداً عليها بين الطالبان وتحالف الشمال. كانوا يكرهون الأخير كما يكرهون الأول؛ يكرهون تحالف الشمال ويكرهون الطالبان، غير أنهم كانوا ينتشون وتستولي عليهم البهجة وهم يتحدثون عن صداماتهما الطاحنة. ما كان يشغّلهم ويحرّكُهم لم يكن متمثلاً بالإيديولوجيا، أي إيديولوجيا، بل بالقتال نفسه، بالحرب ذاتها.

ليلاً كنا نجتمع في المهاجع ونطلق العنان للكلام. لم يكن لدينا سوى مصابيح الغاز للإضاءة، لأن تحالف الشمال كان دائباً على قصف المنطقة. كنا نلف أجسادنا بالبطانيات لاتقاء البرد القارس، وكان المجاهدون يُسمِعوننا قصصاً من خطوط الجبهة. كنت أنبهر بهذه القصص، بالوصف التفصيلي لدقائق معارك شهيرة كنت قد سمعت عنها فقط.

غير أن أحد المجاهدين روى ذات ليلة قصة عن طائرة تحطمت فوق كابول قبل الإطاحة بحكومة نجيب الله في 1992 ببضعة أشهر. لدى تعرض الطائرة للإصابة قذف الطيار الأفغاني نفسه منها. وفيما هو سابح في الجو فوق الأرض بمظلته، رفع يديه إلى الأعلى معلناً رغبته في الاستسلام. غير أن العرب لم يوقفوا إطلاق النار. جُرح الطيار، وما إن وصل إلى الأرض واستقر حتى ألقوا القبض عليه.

راح المجاهدون يتناقشون حول أفضل طرق إعدام الطيار لدى تلقي الأمر بالراديو من مقر قيادة الحزب الإسلامي. قيل لهم أن يُبقوا الأسير حياً؛ قد يدلي بمعلومات قيمة. ولكن المقاتلين العرب ظلوا يضربون الطيار ضرباً مبرحاً إلى حين وصول المحققين. ولدى وصول هؤلاء كان الطيار قد أصبح في حالة بالغة السوء فأوعزوا للعرب بنقله إلى المستشفى. لم يكن المقاتلون يريدون للطيار أن ينجو ويبقى على قيد الحياة، فقرروا على الطريق حقنه بزيت المحرك - بزيت المحرك الأسود اللزج - في الجسم مباشرةً.

وصل المحققون إلى المستشفى بُعَيْد العرب. أفادهم المجاهدون بأن الطيار كان على حافة الموت لأنه كان قد أصيب بجرح بالغ حين قفز من الطائرة. قام المحققون بمعاينة الطيار لمدة دقيقتين ورأوا أن الاستفادة منه كانت مستحيلة، ففوضوا العرب بإعدامه. سارع هؤلاء إلى رمي الطيار في إحدى الحفر وأطلقوا عليه النار، جميعهم، دفعة واحدة. قامت الطلقات بتمزيق جسد الطيار نتفاً. تفجّرت أمعاؤه من بطنه ناشرةً وابلاً من حبات الأرز في كل مكان.

ثم جاء التعليق 'العبقري' على القصة: 'كان غداء الظاغوت أرزاً!' فضحك الجميع مقهقهين. لعلها أكثر القصص التي سبق لي أن سمعتها في حياتي إثارة للتقزز وبعثاً على الغثيان.

وبعد عدد من الليالي، روى مجاهد آخر قصة دارت أحداثها في أثناء انسحاب السوفييت من أفغانستان. قبيل الفجر كان قد تسلل إلى إحدى حاميات نجيب الله وقذف قنبلة يدوية عبر إحدى النوافذ. ولكنه، لحظة خروج القنبلة من يده، سمع صوتاً منبعثاً من الداخل يهتف: 'الله أكبر!' كان الوقت وقت صلاة الفجر.

بعد ثوانٍ، انفجرت القنبلة، وقتلتْ جميع من كانوا في الداخل.

قال الرجل إنه انزعج في البداية. ساءه احتمال أن يكون قد قتل مسلمين وهم يؤدون الصلاة. تأثر كثيراً إلى درجة أنه استشار فقيهاً جليلاً مطلعاً على القرآن حول المسألة. ولكن الأخير طَمْأَنَه وهَدَّأَ من روعه قائلاً: 'أنت يا أخ تقاتل تحت راية الإسلام. أما هم فيقاتلون تحت راية الكفار. في النهاية، لن تكون إلا مشيئة الله.' من المؤكد أن مشورة الفقيه كانت بلسماً بالنسبة إلى المجاهد. بعد كل شيء، كان لا يزال هنا.

أسد الله

عندما عدنا إلى دارونتا، كان هناك عدد أكبر من الناس مقارنةً بالعدد الذي كان لدى ذهابنا. تذكرت بعضهم من خالدان: أبا يحيى، المدرب اليمني، مع اثنين من المدربين السعوديين تذكرتهما أيضاً. كانوا جميعاً قد جاؤوا، مثلي تماماً، للتدرب على المتفجرات.

أخبرني أبو يحيى أن أسد الله، مدرب المتفجرات، كان في حالة أفضل ومتوقعاً أن يعود إلى دارونتا قريباً. وصل بعد نحو أسبوع مصطحباً ثلاثة قيرغيزيين. هؤلاء أيضاً كانوا سيتدربون معنا.

بدأنا التدرب على المتفجرات في اليوم التالي. كان ثمة نوع من غرفة الصف في أحد المهاجع، وكان أسد الله سيكتب المعادلات على السبورة أو سيقدم عروضاً على طاولة كبيرة. قبل كل شيء علَّمنا تدابير الأمان. أنفقنا أياماً على هذا، حافظين عن ظهر قلب درجتي الحرارة والرطوبة التي ينبغي تخزين العناصر المكوِّنة المختلفة في ظلهما، ومطلعين على معدات الأمان المختلفة - القفازات، أقنعة الغاز، النظارات - الواجب استخدامها مع المواد الكيميائية والمتفجرات المتنوعة. علَّمنا أسد الله ما كان ينبغي فعله إذا طرأ خلل في تجربة ما.

ما أكثر ما كان يكرر التحذير التالي: 'معكم تأشيرة إقامة، وتجلبونها معكم إلى الصف كل يوم. أستطيع أن أجردكم منها في أي وقت. إذا انتهكْتُم أياً من تدابير الأمان فسأعيدكم إلى المكان الذي جئتم منه فوراً.' كنا على يقين بأنه لم يكن مازحاً.

كنا نُمضي إما في غرفة الصف أو في المخبر مدة لا تقل عن عشر ساعات كل يوم. لم نكن نتوقف عن الدراسة إلا لتناول الطعام أو لإقامة الصلاة. كنا نستخدم معادلات رياضية وكيميائية معقدة وكان العمل يتطلب تركيزاً شديداً. تعلمنا فن صنع أي متفجرة من نقطة الصفر. ذلك كان هو الهدف: لم نكن مؤهلين للحصول على متفجرات حربية أو صناعية في الأماكن التي كنا سنتوجه إليها. كان سيتعين علينا أن نتدبر أمورنا بما تقع عليه أيدينا.

تعلمنا كيف نصنع جميع أنواع الأشياء: المسحوق الأسود، الآر دي اكس (RDX)، التتريل، التي ان ني (TNT)، الديناميت، السي 2 (C2)، السي 3 (C3)، السي 4 (C4)، السمتكس، النيتروغليسرين، وما إليها. تعلمنا كيف نركّب كلاً من هذه المواد من منتجات يمكن العثور عليها في المحلات التجارية أو سرقتها من المخابر المدرسية. فكل من شراب الذرة، صباغ الشعر، الليمون، أقلام الرصاص، السكر، البن، الملح الإنجليزي، كرات العث، البطاريات، أعواد الثقاب، الدهان، المنظّفات، المبيِّض، زيت المكابح، السماد، الرمل وإلخ.... يحتوي مكوِّنات أنواع مختلفة من المواد المتفجرة. تعلمنا كيف نحلل كلاً من هذه المنتجات، بل وكيف نقوم بإعادة تركيبها محوِّلين إياها إلى قنابل. بل وقد تعلَّمْتُ كيف أصنع قنبلة من بولي الخاص.

درجنا على اختبار المتفجرات في الخارج، قريباً من بعض الخرائب عند طرف المعسكر. على الدوام تقريباً كنا نستخدم كميات ضئيلة، غير أننا كنا نحرص على قياس تسارع الانفجار لاحتساب النتائج المتوقعة إذا ما تم استخدام

جرعات أكبر. كنا نتحدث عن كيفية ومكان استخدام الأنواع المختلفة من المتفجرات. تعلَّمْنا فن تحديد المواد التي يتعين علينا استخدامها لنسف أحد القطارات، كمية المتفجرات اللازمة، وأسلوب تثبيت العبوة على السكة لإحداث الحد الأقصى من التأثير. تعلمنا فنون نسف السيارات والبيوت.

تحدثنا كثيراً عن الطائرات. هذه كانت صعبة النسف بسبب الحراسة المشددة المفروضة على المطارات. كانت مادة السمتكس هي الأسهل على صعيد إدخالها إلى الطائرة لأن تحريها، كما تعلمنا، كان شبه مستحيل. غير أن هذه المادة كانت صعبة التوفير كما ذكَّرَنا أسدُ الله. وبالتالي فإننا دأبنا أيضاً على الإحاطة بالمتفجرات السائلة.

كنا ندوِّن الملاحظات عن كل شيء في الدفاتر الصغيرة التي زُوِّدْنا بها في المعسكر. إلا أن المطلوب، آخر المطاف، كان حفظ كل شيء عن ظهر قلب. فحين كانت الحاجة ستدعو إلى استخدام المتفجرات، لم نكن لنتوفر على أي كتاب أو دليل تعليمي نسترشد به. كان لابد لنا من معرفة ما يجب القيام به غريزياً. وبالتالي فقد دأبنا على مراجعة المعادلات وتكرارها مرات كثيرة إلى أن نصبح قادرين على تكرارها ونحن نيام. وكل يوم أحد كان أسد الله يمتحننا ليطمئن إلى استيعابنا للدروس.

لم يكن ثمة أي مزاح في صف أسد الله. لم يكن يعرف معنى الابتسام، وكان يطالبنا بالانتباه الكامل. كنت أعرف مدى عجزي عن الاضطلاع بدور مهرج الصف هنا إذا رغبت في النجاح. لعل أبشع المخالفات التي ارتكبتها هو تمرير الملاحظات إلى عبد الكريم في الصف. وكان الأخير عاكفاً، بدوره، على رسم الصور في هوامش دفتري وكتابة عبارات ساخرة تحتها.

ذات يوم، كنا في المخبر حين دَلَق أحد القيرغيزيين كأساً من الماء على أحد المتدربين. مازحاً، ادعى أن المسكوب كان حمضاً للكبريت. كان أسد الله يراقب

العملية كلها وبادر فوراً إلى طرد القيرغيزي من المخبر. في غضون ساعة واحدة كان الأخ في الطريق عائداً إلى الباكستان. كان أسد الله محقاً بالطبع. فالمتفجرات شديدة الخطر وأي منا كان يمكنه أن يقتل المجموعة كلها باقتراف خطأ بسيط.

في أحد الأيام، حَدَّثَنا أسدُ الله عن حادثة كانت قد وقعت خلال تدربه هو على المتفجرات. كانت مجموعته عاكفة على تعلم فن صنع النيتروغليسرين، وأحد الإخوان لم يكن منتبهاً. سمح للمواد أن تسخن أكثر مما كان مطلوباً. لحسن الحظ التفت المدرب في الوقت المناسب تماماً ورأى من مدرج ميزان الحرارة أن المادة كانت موشكة على الانفجار. ثمة كان سبعة آخرون في المخبر، وكان من شأن الانفجار أن يقتلهم جميعاً. صرخ بأعلى صوته: 'إنها موشكة على الانفجار!'

كان هناك حوض جليد بجانب المتدرب، وكان يتعين عليه أن يدلق المواد على الجليد لتبريدها. غير أنه آثر، بدلاً من ذلك، أن يندفع وبيديه القنبلة الموقوتة السائلة نحو الباب. لحظة وصوله إلى خارج الباب انفجر الخليط. أدى الانفجار إلى بتر ذراعيه فوراً وإلى تخريب إحدى عينيه.

سألت: 'هل بقي الأخ حياً؟'

أجاب أسد الله: 'نعم. هو يعيش في لندن الآن، ويخطب في الجوامع. اسمه أبو حمزة.'

لم تكن لدي أي فكرة عن الرجل في ذلك الوقت، كما لم يكن هناك أي سبيل لمعرفة مقدار الأهمية التي كان سيصبح منطوياً عليها في حياتي.

غاز الخردل

في أحد الأيام أنزلنا أسد الله إلى مكان قريب من البحيرة للتدرب على إعداد تفجير كبير حقاً. كانت هناك شاحنة روسية معطلة على سفح التلة،

أنزلناها جراً إلى مستوى سطح الماء. ثم حشوناها بالمتفجرات. استخدمنا خمسين كيلوغراماً من الآنفو ANFO. نيترات الأمونيوم/زيت الوقود ـ مع اثني عشر لغماً مضاداً للدروع.

وصلنا الصاعق بفتيل طويل. كنا قد حسبنا سلفاً أن احتراق الفتيل كاملاً كان سيستغرق مدة دقيقة كاملة. أمر أسد الله أحد القيرغيزيين بالبقاء مع الشاحنة لإشعال الفتيل. أما الباقي فابتعدنا نحو مئتي متر متسلقين سفح التلة واحتشدنا في حلقة محكمة خلف الصخور لمراقبة الانفجار.

لوح أسد الله للقيرغيزي على الشاحنة موعزاً إليه بالإشارة أن يشعل الفتيل. جميعاً حبسنا أنفاسنا حين انحنى الأخ على الفتيل. وما إن انتصب واقفاً حتى انطلق بسرعة مبتعداً عن الشاحنة ومقبلاً نحو سفح التلة. كان يجري كما لو كان هارباً من جيش من العفاريت ـ لم يكن قد سبق لي أن رأيت أحداً يجري بمثل هذه السرعة الفائقة. سحابة غبار كانت متطايرة من حوله. حين وصل إلى الصخور حيث كنا واقفين ألقى بجسده على الأرض بالقرب منا.

لحظة انبطاحه على الأرض انفجرت الشاحنة. بدأت العملية بالوميض الأزرق الذي كنت قد رأيته مرات كثيرة، ولكن هذه الومضة كانت أكثر حدة وقوة من أي نظير سبق لي أن رأيته. ومن ثم بووووم. كرة نارية عملاقة انبثقت من الشاحنة، أعقبتْها كتلة كثيفة من الدخان الأسود راحت تصعد إلى السماء مثل نَبْتة فطر كاملة الأوصاف. الوادي كله امتلأ بالدوي.

بقينا جميعاً واقفين حيث كنا للحظات جاهدين لاستيعاب مدى هول ما كنا قد رأيناه للتو: ثم اندفعنا مسرعين نزولاً عن السفح المنحدر لمعاينة المكان الذي كانت فيه الشاحنة. كان الانفجار قد أحدث حفرة قطرها خمسة أمتار وعمقها متران. كانت الحفرة ملأى بنتف المعادن المتبقية من الشاحنة. كان تأثُّر الجميع استثنائياً حين اكتشفنا أن ستة فقط من الألغام الأحد عشر كانت قد انفجرت.

كان أبو سعيد الكردي يتردد على المعسكر. كان يقيم معنا بضعة أيام متواصلة ثم يغادر ليغيب أسبوعاً ليعود بعده. كثيراً ما كان يجلب معه متدربين جدداً. غير أنه كان هو وأبو موسى ينشغلان بين الحين والآخر، خلال مجموعة الأسابيع، بمشروع معقد. كانا يستخدمان المخبر الملاصق للمكان الذي كان أسد الله يدرِّبنا فيه، وكنا نستطيع أن نراهما عبر النافذة. كثيراً ما كانا يبقيان هناك لساعات متواصلة.

قَدَّرْتُ أنهما ربما كانا يعالجان بعض السموم. فأبو سعيد كان قد علمنا في وقتٍ مبكر نُتَفاً عن السموم. كنا قد تعلمنا كيف نصنع السيانيد من المشمش، واختبرناه بدرجات مختلفة من القوة على الأرانب. وحين قام أبو سعيد بزرق السيانيد مباشرةً في أرنب، نفق هذا على نحوٍ مباشر تقريباً. ثم رششنا قليلاً منه على الجزر وقدمناه للأرانب. استغرقت عملية القتل بهذه الطريقة مدة أطول، نحو أربع وعشرين ساعة.

ذات ليلة، كان أبو سعيد وأسد الله يناقشان مشروعهما في المسجد، فتعمدت الإصغاء. علمت أنهما كانا يحاولان تحويل غاز الخردل إلى سلاح، وكانا يواجهان صعوبة في جمع العناصر في قذيفة هاون. في الأسابيع اللاحقة شاهدتهما يطلقان قذائف مورتار باتجاه الوادي تكراراً. غير أن شيئاً لم يكن يحصل، فينتظران نحو ساعتين ثم ينزلان زحفاً إلى قاع الوادي في ملابسهما الواقية لاستعادة المورتارات واكتشاف الخلل الحاصل.

غير أن العملية ما لبثت أن نجحت في أحد الأيام حين سقطت القذيفة في الوادي ثم انفجرت ناشرةً سحابة كثيفة من الدخان. وحين رأى أبو موسى وأبو سعيد ما كان قد حصل، رقصا طرباً وراحا يهتفان: 'تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر!' - أربع مرات متكررة. انقضّا على رشاشيهما وصارا يطلقان النار في الهواء بجنون، وخرج أهل المعسكر جميعاً للاحتفال معهما.

بعد عددٍ من الأسابيع رأيت حلماً مفعماً بالحياة حيث وجدتُني ماشياً في شوارع لندن. لم يكن قد سبق لي أن كنت في لندن، غير أني أيقنت في الحلم أني كنت هناك. كنت مقترباً من كنيسة بيضاء كبيرة. أمامها كان يقف أربعة من الجنود الملكيين الهنود في الزي العسكري للقرن التاسع عشر: القلانس أو العمائم، الأوشحة العريضة، السترات الأنيقة. غير أن ملابسهم كلها كانت بيضاء ناصعة.

لم يكن الرجال يحرسون الكنيسة. كانوا يحاولون نسفها. كان أمام كل منهم مدفع، وكانوا جميعاً يطلقون الحمم على الكنيسة المَرَّةَ بعد الأخرى. إلا أن قذائفهم لم تصب الكنيسة قط. بدأ الهنود يشعرون بالإحباط وتملّكَني الضيق وأنا أراقبهم. كنت واثقاً من نجاحي في إصابة الهدف بسهولة. قلت: 'دعوني أحاول. أنتم لا تعرفون ما تفعلونه.'

وضعت قذيفة في المدفع وأطلقْتُها. أصابت الكنيسة تحت البرج مباشرة، ترنح المبنى وسقط أرضاً. سحابة دخان أسود انفجرت في الهواء، مؤدية إلى تلطيخ السماء البيضاء الناصعة.

استيقظتُ وأنا أرتجف، وحين استيقظ عبد الكريم رويت له ما رايته في الحلم. وجدني مكتئباً، وقال إن هناك في المعسكر العربي أخ خبير في تفسير الأحلام. زَوَّدني عبد الكريم باسم الأخ ونصحني بالذهاب إليه.

بعد ظهر ذلك اليوم، مشيت إلى معسكر العرب، وحين سألت عن قارئ الأحلام بالاسم دلني أحد الإخوان على أحد المباني الصغيرة. كان ثمة شاب في الداخل مرتدياً جلباباً أبيض. كان متربعاً وعاكفاً على القراءة. تنحنحت للفت نظره فرفع رأسه. سألته: 'هل تستطيع مساعدتي في حلم؟'

قال: 'بالطبع. أغلقْ الباب واجلسْ. هات اروِ لي حلمك.' بعد إسماعه كل شيء، طرح علي السؤال التالي: 'هل أنت متأكد من أن المبنى كان كنيسة، ولم يكن جامعاً؟'

'بلى، أنا متأكد. شاهدتُ الصليب.'

نهض الأخ ومشى إلى كومة كبيرة من الكتب المراكمة بجانب الجدار. حمل واحداً وراح يقرأ وحده. نظر إليَّ. قال: 'هذا نبأ جيد جداً أيها الأخ.'

سألت: 'لماذا؟'

'ستذهب إلى بلاد الكُفر. ستقاتل الكفار وسوفَ تنتصر.'

أبو خَبَب

في أحد أيام أواخر الخريف كنا في الهواء الطلق عاكفين على اختبار بعض الحسابات. كنا نتعلم كيف نفجر قنبلة على سكة حديدية مستخدمين شحنة مخروطية حين رأيت سيارة تويوتا رباعية الدفع تقتحم المعسكر. نظر أسد الله بطرف عينه ثم توجه إلى الجماعة وقال: 'انظروا! إنه أبو خبب.'

كنا جميعاً قد سمعنا الاسم من قبل. مرات كثيرة خلال الدروس كان أسد الله قد حدثنا عن أننا كنا نتعلم تقنيات ومعادلات اجترحها رجل يدعى أبو خبب. انفعلنا جميعاً برؤيته شخصياً.

نزل من السيارة خمسة رجال وطفلان صغيران. تذكرت أحد الرجال فوراً: كان هو المصري صاحب الأطراف الاصطناعية الذي كنت قد التقيته قبل أشهر في بيشاور. كان يحمل حقيبة ظهر. كان ثمة رجل آخر معه أكبر منه قليلاً في السن، أقله في أربعينياته. كان متميز المظهر؛ بدلاً من الباكول (القبعة الأفغانية) التقليدية كان يعتمر عمامة سوداء. كان يضع نظارات على عينيه، وذا لحية محنّاة. بقي الرجال الثلاثة الآخرون ملتصقين بالرجل الأكبر سناً. من الواضح أنهم كانوا حُراساً شخصيين (بودي غاردات). اثنان كانا متنكبين رشاشي كلاشنكوف، والثالث كان يحمل آر بي جي (RPG).

جميعاً رَحّبنا بالضيوف، ثم أبلَغَنا أسد الله بتعليق الدروس في ذلك اليوم وصَرَفَنا. وفيما كنت أهم بالمغادرة سمعت صوتاً ينادي من الخلف: 'أبو إمام! أبو إمام.' التفتُّ فرأيت الرجل الأكبر سناً يومئ إليّ داعياً إياي إلى الالتحاق بهم. عدت إليهم. سألني الرجل الأكبر سناً: 'كيف حالك، يا ولدي؟' بلكنة مصرية قوية.

أجبته: 'الحمد لله!'

ثم تكلم المصري ذو الأطراف الصناعية: 'سمعنا عنك أشياء جيدة جداً أيها الأخ.' تساءلت عما عناه. لم يكن قد مضى على وجودي في دارونتا سوى شهر واحد، وبالتالي فإن من المؤكد أنه كان يلمِّح إلى خالدان، حيث ذاع صيتي بوصفي الأكثر تعرضاً للعقاب في المقام الأول. ثم تابع: 'الإخوان من أمثالك مرحب بهم دائماً في الجماعة.'

كنت على علم بالجماعة. كانت مجموعة كفاحية مصرية انشقت عن تنظيم الإخوان المسلمين حين دان الأخير أعمال العنف الحاصلة في سبعينيات القرن العشرين. كنت أعرف من خلال الراديو في خالدان أنهم ادعوا المسؤولية عن محاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في وقتٍ سابق من ذلك الصيف.

همس الرجل الأكبر سناً في أُذُن أسد الله الذي تجهم قليلاً. ثم قادني المصري ذو الأطراف الصناعية باتجاه الخرائب حيث درجنا على اختبار المتفجرات. جاء الأكبر سناً معنا، وبصحبته اثنان من الحراس الشخصيين. أما الحارس الثالث فبقي قريباً من السيارة مع الطفلين. رأيت أسد الله يتسلل خلسة عائداً وحده إلى داخل المخبر.

حين وصلنا إلى الخرائب فتح الشاب حقيبة ظهره وأخرج علبة معدنية صغيرة. داخل العلبة كانت ثمة عبوات أصغر لا يزيد حجم أي منها على حجم علبة الكبريت. انحنى ليضع إحدى العبوات الصغيرة عند أساس الخرابة.

سألت: 'ما هذا؟'

قال: 'إنه الآنفو (ANFO). نقوم باختباره.'

ثار اهتمامي. كنا دائماً نجرب بكميات قليلة من المتفجرات ثم نحسب ما يمكن للتأثير أن يكونه لدى استخدام كميات أكبر. غير أنه لم يكن قد سبق لي أن رأيت شخصاً يجرب كمية بمثل هذه الضآلة. أمرنا، بالإشارة، أن نبتعد، وجلست مع الرجل الأكبر سناً على أحد الصخور. تزاحم الحراس الشخصيون خلفنا. ثم قام المصري بتفجير عبوة صغيرة، وانحنى ليعاين النتائج.

في هذه الأثناء راح الأكبر سناً يحدثني: 'أين تريد أنت، يا أبا إمام، أن تخوض جهادك؟' ظل ينظر إلى الأمام بخط مستقيم وهو يتكلم. عيناه كانتا متركزتين على صاحب الأطراف الصناعية.

لم أعرف ما كان يُفْتَرض أن أقوله، فبُحت بالحقيقة: 'أنا أريد أن أذهب إلى بلاد الشيشان.'

أومأ الرجل بصمت، وواصل النظر إلى الأمام. ما لبث الأصغر سناً أن عاد إلينا ليعْلمنا بأنه أنجز عمله. قام الأكبر سناً، حَذَوْتُ حَذْوَه. وفيما كنا عائدين سيراً على الأقدام إلى السيارة رباعية الدفع التفت إلي الأكبر سناً. كان مبتسماً. 'أرجو أن تزورنا بعد أن تنهي تدريبك.' ثم ركب السيارة مع الآخرين وانطلقت السيارة بهم.

بعد بضعة أيام كنا خارجين من غرفة الصف في ساعة متأخرة من بعد الظهر، حين شاهدنا أبا جهاد وأبا موسى مقبلين علينا جرياً، توقفا أمام المسجد وراحا يطلقان النار في الهواء من رشاشيهما الكلاشنكوف، وهما يهتفان بصوت واحد: 'تكبير! الله أكبر!'

كان أبو جهاد مكشراً عن أسنانه. كان يقول: 'فعلوها! نسفوا السفارة المصرية!' ثم هرع عائداً إلى الداخل لإبلاغ المعسكرات الأخرى بالراديو.

في غضون دقائق كانت ثمة تفجيرات منبعثة من سائر المعسكرات. كانت قذائف الشيلكا والبي ام بي (BMP) وطلقات المدافع المضادة للطائرات تنطلق معاً. مئات الخيوط الزرقاء والخضراء كانت متطايرة في السماء الداكنة. في لحظة عابرة تصورت الأمر شبيهاً بما كان يمكن أن يحصل إذا ما تعرضت دارونتا للهجوم بالطائرات في وقتٍ من الأوقات.

كانت الهتافات تتردد من كل حدب وصوب: 'تكبير! الله أكبر!'

في تلك الليلة، كما في الأيام التي تلت، كنت سأعرف المزيد عما كان قد حدث. انتحاريان كانا قد نسفا السفارة المصرية في إسلام أباد. كانا قد اقتحما المبنى بسيارتين مملوءتين بالمتفجرات. القنبلة الأولى لفتت أنظار الجميع؛ هرع الناس خارجين من سائر المباني القريبة من السفارة لرؤية ما كان قد حصل. ثم أحدثت السيارة الثانية انفجاراً هائلاً، نشرت الشظايا في جميع الاتجاهات.

تمخض الانفجار عن انهيار أحد طرفي السفارة كلياً كما عن حفرة بعمق مترين. عدد كبير من الناس انسحقوا حين انهار الإسمنت المسلح فوقهم. كانت الحصيلة مقتل ثمانية عشر شخصاً وجرح خمسة وسبعين آخرين.

مباشرةً أعلنت الجماعة مسؤولياتها عن الهجوم. طالبتْ بإطلاق سراح زعيمها الروحي الشيخ عبد الرحمن. من المعروف أن الشيخ عبد الرحمن هذا، وهو المتهم بتدبير مؤامرة 1993 لنسف مركز التجارة العالمي، كان ينتظر المحاكمة في أحد سجون الولايات المتحدة.

وخلال ما تلا من أسابيع وأشهر، سمعنا عبر الراديو أن بناظير بوتو كانت قد أطلقت حملة ملاحقة كبرى ضد العرب. كانت ثمة مداهمات بوليسية في طول البلد وعرضه. وأعداد كبيرة هربت إلى أفغانستان، بل وقد وصل إلى خالدان اثنان من أولئك الملاحقين. أفادا بأن العرب لم يعودوا آمنين على الجانب الآخر من الحدود، أي في الباكستان.

بُعَيْد نسف السفارة في إسلام أباد، جرى اعتقال مهندس كندي يدعى أحمد خضر في الباكستان. اتُّهم بتمويل عملية الهجوم على السفارة بأموال ابتزها من جمعيات خيرية - إنسانية كندية. ادعى خضر البراءة وأُطلق سراحه من السجن بعد بضعة أشهر. كان رئيس الوزراء الكندي قد مارس الضغط على بناظير بوتو خلال زيارة رسمية إلى الباكستان.

كنت سأعرف المزيد من المعلومات عن خضر هذا بعد 9/11، حين قامت الولايات المتحدة بإدراج اسمه على جدول أسماء إرهابيين مشبوهين. عرفت أنه كان صديقاً حميماً لأسامة بن لادن منذ عقد ثمانينيات القرن الماضي، حين دأب الرجلان على تمويل المجاهدين في الحرب ضد السوفييت. ثم ما لبث خضر أن أصبح أحد أبرز جامعي التبرعات لابن لادن.

قُتل خضر عام 2003 في أفغانستان في تبادل لإطلاق النار مع الجيش الباكستاني. ابنه الأصغر، عبدول، كان معه، وأصيب بالشلل النصفي السفلي خلال الهجوم. كذلك كان أبناء خضر الآخرون موجودين أيضاً في أفغانستان في ذلك الوقت. وأكبرا لأبناء، عبد الله، تمت إدانته في ماساتشوستس في شباط/فبراير 2006. كان متهماً بشراء أسلحة للقاعدة، بالتآمر لقتل جنود أمريكيين، وبالتخطيط لاستخدام أسلحة دمار شامل. ابن آخر اسمه عمر أُلقي القبض عليه في 2002 بعد أن قيل إنه قتل ممرضاً من الجيش الأمريكي برمانة يدوية. وهو الآن سجين في خليج غوانتانامو. أما أخوه الأكبر عبد الرحمن فقد جرى اعتقاله في أفغانستان سنة 2001. تم تسليمه إلى الأمريكيين ونُقل إلى خليج غوانتانامو. في إحدى المراحل ارتد وراح يعمل لدى وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) أولاً في غوانتانامو، ومن ثم في البوسنة. روى قصته على شاشة التلفزيون في 2004، وهوليوود عاكف الآن على تحويل حياته إلى فلم.

كان أحمد خضر هو الرجل الذي رأيته داخلاً مخبر المتفجرات في خالدان بصحبة ابن الشيخ. أما عبد الرحمن فكان الابن الذي عرفتُه باسم حمزة، والذي أخبرني عن الأفغان الذين قُتلوا أمامه في خوست. وكان عمر هو أخاه الأصغر الذي عرفته باسم أسامة. كان الأخير هذا هو المشاغب الذي كان يكثر من الكلام عن أصدقاء والده المهمين.

كان من الشائع على نطاق واسع أن مصرياً يُدعى أبا خبب المصري كان العقل المدبر لعملية نسف السفارة. لم يكن أبو خبب، بطبيعة الحال، إلا اسماً مستعاراً. أما اسمه الحقيقي فكان مدحت المصري. قيل إنه نجح في تجنيد الانتحاريَّين من معسكرات دارونتا.

بعد 9/11، عرفت أن المصري كان كبير خبراء المتفجرات لدى القاعدة، متخصصاً في مجالات جملة الأسلحة الكيميائية والبيولوجية. وقد أُشيع أنه كان قد خطط للهجوم على السفارة مع رجل يدعى أيمن الظواهري، الذي هو الآن نائب أسامة بن لادن. حين أصبح بن لادن صاحب الأمر والنهي في المعسكرات أواخر التسعينيات، جرى تكليف المصري بمهمة تطوير أسلحة غير تقليدية للقاعدة.

في دارونتا، قام المصري بتدريب مجند جزائري يُدعى أحمد بسام، وهو الذي اعتُقل في 1999 على الحدود بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. كان ينقل شاحنة متفجرات، عازماً على استخدامها لنسف مطار لوس أنجلوس عشية الألفية الجديدة. كذلك قام المصري بتدريب أبو القنبلة الحذائية المعروف ريتشارد رايت، وزكرياس موسوي، 'المختطِف رقم 20'، الذي يقضي الآن حكماً بالسجن المؤبد. ويظن أن المصري تولى أيضاً تدريب عناصر الهجوم على اليو اس اس كول (USS Cole) في اليمن عام 2000.

في كانون الثاني/ يناير 2006، قُتل المصري بطائرة مطاردة أمريكية بلا طيار في دامادولا الباكستانية. كان الأمريكيون يحلمون بقتل أيمن الظواهري الذي كان يُعْتَقد أنه كان موجوداً مع المصري في ذلك الوقت. كانت المكافأة المخصصة لمن يجلب رأس المصري خمسة ملايين من الدولارات عندما قضى.

ليس ثمة أي صور للمصري، أقله مما أتيحت لي رؤيتها. وبالتالي ليس ثمة ما يمكّنني من أن أعلن عن يقين أنه كان هو الرجل الذي رأيته في دارونتا في ذلك اليوم. غير أن ذلك محتمل جداً.

الحرب النفسية

مع مجيء رمضان في شتاء ذلك العام، كنت أزداد قلقاً. كنا قد أنهينا تدريباتنا على المتفجرات أوائل فصل الشتاء. ذات يوم، أبلغنا أسد الله بانتهاء الدورة، هنأنا، ثم غادر المعسكر مع جميع المتدربين. بقينا، عبد الكريم وأنا، وحدنا مع مقاتلي الحزب الإسلامي.

لم يكن لدينا شيء كثير نفعله بعد ذلك سوى مراجعة المعلومات التي كنا قد تعلمناها في أثناء الدورة. بقيت أُمْضي ساعات كل يوم وأنا أتدرب على البوراید والرشاشات، إلا أنني لم أكن أتعلم أي شيء جديد. كنت أقضي أوقاتاً طويلة متسكعاً لمجرد قتل الزمن؛ لم نكن ملزمين بالرياضة إلا حسب رغبتنا. كل يوم جمعة كنا نلعب كرة القدم هنا في معسكر العرب مع المجندين الجدد. كان مضحكاً أن يرى المرء الإخوان متراكضين في الساحة في سراويلهم وقمصانهم، (أزيائهم الباكستانية)، غير أني كنت أمضي أكثر الوقت متفرجاً. في الحقيقة لم أتعلم لعبة كرة القدم في حياتي.

قَتْلاً للفراغ صرت أكرس فترات طويلة من الوقت للتأمل والتكفير. فكرت بالتفجير الحاصل في الباكستان طويلاً. ظللت أتصور وجه المصري وهو يقول: 'أرجو أن تأتي لزيارتنا. أرجو أن تأتي لزيارتنا.'

بدا الأمر أشبه بكابوس. عرفته أنه كان يريد أن أصبح أحد انتحارييه. كان يجب أن يكون قد سمع قصة تطوعي لتفكيك العبوة المنصوبة في النهر، وظن أنني شديد التوق لأن أصبح شهيداً. صحيح أنني كنت قد راوغت القدر في تلك المرة، إلا أنني كنت متأكداً من تجنيدي قريباً لأداء مهمة أخرى. كانت لديهم خطط بالنسبة إلي، وإلا لماذا كانوا يُبْقونني في دارونتا؟ في المرة القادمة هل كان سيُطلب مني الالتحاق بمهمة - أم كان سيتم إجباري على القيام بها؟

كنت قلقاً بشأن أشياء أخرى أيضاً. كلما طالت إقامتي هنا، كان احتمال اكتشاف حقيقة كوني عميلاً يتزايد. ثمة كان جزائريون في كل مكان. قد يحصل مع مرور الوقت أن يتواصل أحدهم مع أمين وياسين فيكتشف من أكون. تذكرتُ القصة المرعبة التي كنت قد سمعتها في ساروبي، قصة الطيار الذي حُقن بزيت المحرك ثم جرى تمزيقه بالرصاص. لم أكن أريد أن تكون نهايتي مثل نهايته.

وبين وقتٍ وآخر، كنت أتذكر جيل. تذكرت ما قاله لي في الحديقة الاستانبولية. كانت لدي مدة سبعة أشهر؛ وبعدها كان سيتم بَتْري. فترة الأشهر السبعة كانت قد انقضت.

في أحد الأيام، دَخَلْنا، عبد الكريم وأنا، الجامع ورأينا شخصاً معلقاً بعوارض السقف من كاحليه. عيناه كانتا معصوبتين، وكان يزعق. كان هناك عدد من الإخوان واقفين حوله. تذكرت بعضهم من معسكر العرب. كانوا يعنِّفون الأسير، وأحدهم كان يصوب بندقيته على رأس هذا الأسير.

المشهد جمّد الدم في عروقي. قلت لنفسي: هذا هو ما يفعلونه للجواسيس. هذا هو ما سيحصل لي إذا ما تم اكتشافي. كدت أتقيأ، ولكن أبا موسى جاء وأخرجنا من المكان قبل أن يتفاقم الأمر أكثر قائلاً: 'تعالا، هذا ليس لكما!'

سألته: 'وما الذي يجري؟' أصبحت أكثر فضولاً.

قال: 'إنهم من المعسكر الآخر. أحد الإخوان مكلف بمهمة. الآخرون يعدونه للاستجواب تحسباً لاحتمال وقوعه في الأسر.'

'لماذا لا نستطيع أن نشاهد؟' سأل عبد الكريم.

هز أبو موسى برأسه قال: 'لأننا لا نعرف ما سيقوله. قد يكشف شيئاً عن مهمته وأنتما يجب ألا تعرفا أي شيء عنها.'

من المؤكد أنه رأى مدى انزعاجنا كلينا، لأنه بادر بعد بضع ثوانٍ إلى اقتراح تزويدنا بكتاب عن الاستجواب. غير أننا حين فتحناه، وجدناه مكتوباً باللغة العربية. كان النص أكثر تعقيداً من قدرتنا، كلينا على فهمه؛ كلانا كان ضعيفاً.

وافق أبو موسى أن يقرأ لنا أجزاء منه بصوت مرتفع على مسامعنا. عدنا إلى الغرفة، وبدأ يقرأ في الكتاب. بدأ الكتاب باستعراض مراحل الاستجواب والتحقيق المختلفة: من الاعتقال إلى التهديدات وصولاً إلى التعذيب عبر الاستجواب الأولي. ثم جاءت قائمة بالأشياء المختلفة القابلة للاعتماد من قبل المحققين: التعليق بسقف الزنزانة من الكاحلين، الضرب بالأيدي أو العصي أو الكوابل، الوقوف العاري أياماً متواصلة، قلع لأظافر، حرق الجلد بالسجائر أو ألسنة اللهب، التعرض لهجوم الكلاب، الضرب على البطن، إحداث صدمات كهربائية للأعضاء التناسلية. كانت القائمة طويلة جداً وأخبرنا أبو موسى بأن كل هذه التقنيات كانت قد استُخدمت مع الإخوان في بلدان مختلفة.

كان الدرس الأول بسيطاً: على أي مجاهد أن يبقى متكتماً. لعل الوسيلة الفضلى للحيلولة دون إماطة اللثام عن الأسرار هي عدم التوفر عليها في المقام الأول. أدركتُ الآن أن هذا كان السبب الكامن وراء منعنا الجازم، منذ اليوم الأول، من التكلم مع بعضنا عن أي شيء من خارج المعسكرات. كان السبب متمثلاً بالخوف من وجود جواسيس. كانوا يريدون الاطمئنان إلى أن أياً من الإخوان لن يكون قادراً على الكشف عن أشياء كثيرة إذا ما تعرض للانهيار تحت الضغط.

إلا أن الإيمان، لا الكتمان، كان السلاح الأهم والأمضى في جعبة المجاهد. فأي مجاهد حقيقي قادر على مقاومة أي شيء إذا كانت معاناته في سبيل الله. لابد له من الاستعداد للاستجواب والتعذيب تماماً مثل الاستعداد للأنواع الأخرى من المعارك. كان أبو موسى بالغ الوضوح في هذا الشأن: لم يكن الاستجواب إلا أحد أشكال الحرب النفسية. وكما في الحرب الفعلية، لم يكن ثمة أي احتمال لهزيمة الأخ. فهو إما أن يدحر عدوه، أو يقضي شهيداً.

غير أن هناك خطوات ملموسة أيضاً. قبل الانطلاق إلى تنفيذ أي مهمة لابد للأخ من مناقشة قائده حول ما يتعين عليه قوله للمحققين إذا ما وقع في الأسر. يجب ألا ينحرف عن تلك الخطة المرسومة. يجب ألا يبوح بأي معلومات، كما يجب أن يدرك أن البوح لن يفيد في شيء. لن يتمخض إلا عن المزيد من التعذيب لأن المحققين سيرون أن لدى الأسير أسراراً يمكن أن يكشف عنها. غير أن المحققين كانوا سيبقون شديدي الحرص على عدم قتل الأسير، لأن الجثة لن تفيدهم في شيء.

وكما شرح أبو موسى، فإن الاستجواب كان فرصة عظيمة بالنسبة إلى أي أخ. كان الأخير يستطيع معرفة المزيد عن العدو ونشر الأضاليل التي من شأنها أن تساعد جماعته في بلوغ أهدافها. وهذا النوع من التوظيف كان يتطلب مهارة، وعلى أي أخ أن يتدرب لاكتسابها، تماماً كما يتدرب على استعمال السلاح، أي سلاح. يجب أن يتقن فن تضليل محققيه ومستجوبيه. كلما طال الاستجواب زادت المعلومات التي يمكن للمحققين أن يكشفوا عنها فيما يخص معرفتهم واستراتيجيتهم. ويستطيع الأخ توظيف تلك المعلومات لصياغة ردوده الخاصة، لتزويد العدو بأكاذيب على أنها حقائق. عملية الاستجواب لم تكن بالنسبة إلى أي مجاهد سوى تكتيك حربي آخر.

بعد ظهر ذلك اليوم، أنجز أبو موسى مهمة القراءة لنا، ورحت أنا أفكر بما كنت قد تعلمته أصبحت أفضل فهماً للسبب الذي جعل أبا بكر بالغ السعادة بالأخ الذي كان قد أخذه رهينة خلال المداهمة الليلية في خالدان. كان الأخ قد وظف عملية الاستجواب لخدمة جماعته. كان يحاول زرع الخوف في قلب العدو ودفعه إلى التراجع.

بعد سنوات كثيرة، كنت سأعود إلى التفكير بهذه العبرة مرة أخرى، حين بدأت أعرف المزيد من المعلومات عن ابن الشيخ الليبي ودوره في إطار ما بات يُعْرَف باسم القاعدة. واصل ابن الشيخ إدارة معسكرات التدريب في أفغانستان على امتداد عقد التسعينيات، وكان قريباً من بن لادن. أُلقي القبض عليه في وقتٍ مبكر حين قام الأمريكيون باجتياح أفغانستان بعد هجمات 9/11، وتم نقله جواً إلى مصر حيث قامت وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) بتعذيبه. وهنا قال لمستجوبيه إن صدام حسين كان قد زَوَّد القاعدة بمعلومات حول بناء وتركيب أسلحة كيميائية. إن المعلومات المأخوذة من ابن الشيخ هي المعلومات التي كان جورج دبليو بوش وكولن باول يلمحان إليها حين أفادا بأن لديهما إثباتات تؤكد أن صدام حسين كان على علاقة بالقاعدة. استخدما ما صدر عن ابن الشيخ لتسويغ غزو العراق.

فيما بعد قال ابن الشيخ إن قصة صدام حسين لم تكن صحيحة. وبالفعل فإن وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) كانت قد عرفت أن قصة ابن الشيخ لم تكن جديرة بالاعتماد قبل أن يُقْدم كون باول على الإشارة إليها في خطابه الشهير أمام الأمم المتحدة بوقتٍ طويل. غير أن الأمر كان قد فقد أهميته لدى بروز هذه الحقيقة على السطح. فأمريكا كانت قد دخلت الحرب.

كثيرون يزعمون أن ابن الشيخ كذب على سجانيه نتيجة اليأس، لأنه كان يتعرض لتعذيب بالغ الوحشية. أنا أعرف أن ذلك ليس صحيحاً. كان يدير هذه

المعسكرات، وكل شيء تعلمناه هناك كان ابن الشيخ قد تعلمه قبلنا بكثير. كان قد أعد نفسه للاستجواب تماماً مثل الأخ في المسجد الذي كان عاكفاً على إعداد نفسه. كان يعرف ما تعين عليه أن يفعله.

ما من مجاهد حقيقي يخشى الألم، ولاسيما إذا كان مفعماً حماسة مثل ابن الشيخ. لا قيمة للألم. يستطيع الإنسان أن يتقن فن عدم الإحساس به. وما من مجاهد حقيقي يخاف الموت. فالموت في سبيل الله هو غاية الحياة.

لا، مستحيل، إن ابن الشيخ لم يتعرض للانهيار تحت وطأة التعذيب. تعامل مع مستجوبيه بالقدر نفسه من المهارة التي درج على استخدام رشاشه بها. كان يعرف ما كان مستجوبوه يريدون معرفته، وكان هو سعيداً بتزويدهم بذلك. كان راغباً في رؤية صدام مطاحاً به حتى أكثر من الأمريكيين. وكما كان يقول لنا في خالدان، فإن العراق كان ميدان الجهاد الكبير التالي.

في مكان ما، في إحدى غرف التعذيب السرية، كان ابن الشيخ قد ربح معركته.

العمل الدعائي

كنت غارقاً في بحر من السأم فقررت ذات يوم بتنظيم سقائف التخزين القريبة من مدخل المعسكر. كنا، أبو جهاد وأنا، قد دخلناها بحثاً عن ذخائر معينة فرأيت كم كانت في حالة من الفوضى. سألت أبا جهاد عما إذا كان مسموحاً بأن أقوم بترتيبها. بدا متفاجئاً بطلبي، غير أنه رحَّبَ بالاقتراح.

في اليوم التالي سلَّمني مفاتيح المستودع وبدأت فرز الموجودات. في الغالب، ثمة كانت كميات كبيرة من الأسلحة موزعة على صناديق مختلفة وفقاً لعائديتها الملكية. في خالدان كانت الأسلحة كلها عائدة للمعسكر، أما في دارونتا فكانت ملكاً لمجاهدين متنوعين. فعلى جبهات القتال كان المجاهدون قادرين على تملك

كل ما يغنمونه من العدو. صحيح أننا كنا، جميعاً، قادرين على استخدامها، غير أن هويات مالكيها كانت معلومة.

كانت ثمة أعداد من الصناديق الخشبية في حجرات المستودع أيضاً. أحد هذه الصناديق لفت نظري. كان عائداً لمخرج سينمائي عربي كان قد زار دارونتا قبل بضع أسابيع. لم يبق في المعسكر سوى ليلة واحدة، وفي السهرة كنا جميعاً قد جلسنا سوية في المسجد فيما قام هو بعرض بعض الأفلام التي كان قد أخرجها. فوجئت لأنني كنت قد شاهدت عدداً كبيراً من هذه الأفلام من قبل في أوروبا: أفلام عن أفغانستان، البوسنة، بلاد الشيشان.

لاحقاً في تلك الليلة، أفادني أحد مقاتلي الحزب الإسلامي بأن المخرج السينمائي كان مشهوراً. كان قد أخرج مئات الأفلام الدعائية. وهذه الأفلام كانت تُطبع في أوروبا وتباع في المساجد وأمامها بعد صلاة أيام الجمعة.

كان المخرج قد جلب معه صندوقاً إلى المعسكر. قبل مغادرته، رأيته يحجزه ويغلق عليه في إحدى الحجرات الكائنة أمام المعسكر. ثمة كانت فسحة للتخزين أيضاً، حيث درج مقاتلو الحزب الإسلامي على ترك أشيائهم وحوائجهم فيها عند ذهابهم إلى الجبهة. كنت قد نسيت صندوق المخرج السينمائي تماماً، غير أنني شعرت الآن برغبة جامحة في معاينة ما فيه. في أعماقي، راودني إحساس بأنني راحل قريباً من أفغانستان. كان يتعين علي أن أعود إلى أوروبا قبل أن يعمد جيل إلى بتري. وقد فكرت أن علي أن أسعى إلى جمع بعض المعلومات الملموسة قبل لقائه. كنت قد أمضيت في أفغانستان ما يقرب من عام، آخر المطاف، ولم أكن قد عرفت الاسم الحقيقي ولو لواحد من المجاهدين.

بعد إنجازي لعملية ترتيب المستودع، تلفَتُّ حولي لأرى ما إذا كان أحد يراني. ثم سارعت إلى خلع قفل صندوق المخرج. تسارعت نبضات قلبي. كنت سأُعدم فوراً لو رآني أحدهم. كنا ممنوعين حتى من طرح الأسئلة على بعضنا البعض. إن

تفتيش ممتلكات شخص آخر كان انتهاكاً صارخاً لجميع المبادئ التي كنا قد تعلمناها. صورة الطيار ووقود المحرك مرت أمامي خطفاً مرة أخرى.

شعرت بالعرق المتصبب على جبهتي وأنا أفتح الصندوق. كان في الصندوق أعداد من أشرطة الفيديو، مسدس ماكاروف عيار 9 مم، ومجموعة من جوازات السفر الأوروبية والخليجية، بأسماء مختلفة. لم يكن هناك أي شيء استثنائي الفائدة بالنسبة إلي، فسارعت إلى إغلاق الصندوق وإعادته إلى مكانه بين الصناديق الأخرى. شعرت بقشعريرة تتملك جسدي وأنا أمشي عائداً إلى المهاجع لإعادة المفاتيح إلى أبي جهاد.

بدلاً من الاكتفاء باستعادة المفاتيح، طلب مني أبو جهاد أن أرافقه إلى حجرات المستودع ليتمكن من إلقاء نظرة على ما كنت قد أنجزته من عمل. أدركت أن الشك راوده حول احتمال أن أكون قد سرقت شيئاً من أحد الإخوان الآخرين. إلا أنه ما لبث، بعد قيامه بعَدِّ جميع قطع الأسلحة في الصناديق، أن تأكد من أن شيئاً لم يكن ناقصاً. فشكرني على ما بذلته من جهد.

بعد بضعة أسابيع عاد المخرج السينمائي إلى المعسكر. كان في بلاد الشيشان. ليلة وصوله عرض علينا بعض الأفلام التي كان قد التقطها بما فيها فلم عن شامل باساييف. كنت أعرف كل شيء عن باساييف. كان بطلاً عظيماً. كنت قد عرفت عنه كل شيء في خالدان، عبر الاستماع إلى الأخبار المذاعة بالراديو.

في الصيف الماضي، كان باساييف قد قاد مجموعة صغيرة من المجاهدين واقتحم مشفى في بلدة بوديونوفسك الروسية. كان في المشفى نحو ألف وخمس مئة روسياً، أخذهم باساييف ورجاله رهائن. حاول الروس اقتحام المشفى وتحرير الرهائن مرتين. ولكن باساييف ورجاله صدوهم. أخيراً نجح باساييف في اجتراح اتفاق مع رئيس الوزراء الروسي. مقابل تحرير الرهائن، اضطرت

روسيا أن تمنح باساييف مروراً حراً للعودة إلى بلاد الشيشان. وافق الروس أيضاً على وقف العمليات العسكرية فوق الأراضي الشيشانية.

في الفلم الذي عرضه المخرج السينمائي السعودي علينا، بدا باساييف متباهياً برشاش جديد. كان الرشاش مزوداً بكاتم للصوت ولا يحدث لدى الإطلاق سوى نقرة صغيرة في السبطانة. كان باساييف يتحدث عبر مترجم، وقال إن الرشاش كان الطراز الروسي الأحدث. في إحدى المراحل التفَتَ إلى الكاميرا، لَوَّحَ، وأرسل تحياته إلى جميع الإخوان في معسكرات التدريب في أفغانستان. يجب أن يكون مطّلعاً على أن المخرج كان عازماً على العودة إلى دارونتا، لأنه خصَّنا بالذكر.

في اليوم التالي كان المخرج لا يزال في المعسكر. رأيته في صلاة الفجر، ومن ثم رأيته ظهراً. غير أنني شعرت بأن هناك خللاً في المرة الثانية؛ كان متجهم الوجه. على الفور استنفرتْ أحاسيسي.

بعد صلاة الظهر، وقف أبو جهاد وقال لنا بصوتٍ واضح الجدية والوقار: 'هذا الصباح، اكتشفنا أن شخصاً فتح صندوق صديقنا المودع في حجرة التخزين' وهو ينظر إلى المخرج. 'وكما تستطيعون أن تروا نحن مستاؤون جداً.'

ثبّتُّ نظري إلى الأمام دون أي تعبير، ولكن قلبي في صدري كان ينبض متسارعاً. لم أفاجأ حين التفت أبو جهاد نحوي قائلاً:

'أبا إمام، أنت كنت في المستودع بضع ساعات وحدك. هل فتحت الصندوق؟'

كان ردي جاهزاً: 'لا، أيها الأخ، لم أفعل' قلت بصوت هادئ. 'ألا تتذكر أنك عاينت المكان معي بعد قيامي بإعادة ترتيب كل شيء؟ لو كنتُ قد خلعتُ الصندوق، لكنتَ، قد لاحظتَ، بالتأكيد.'

لاحظت تدفق الدم على وجه أبي جهاد الذي راح يقول محاولاً الابتسام: 'أنت على صواب، يا أبا إمام. أنا آسف.' ثم التفت إلى الآخرين، وفي تظاهر زائف بالقوة قال إن أحداً لن يُسمح له بالدخول إلى المستودع إلا في حضوره هو من الآن وصاعداً.

بعد كل شيء، كان جميع مقاتلي الحزب الإسلامي ودودين جداً معي. والتوتر في العلاقة بين المجاهدين وأبي جهاد لم يزدد إلا سوءاً خلال فصل الشتاء، مع مواصلة الطالبان زحفهم نحو كابول. جميع الإخوان كانوا بالغي السعادة لقيامي بإيقاف الأمير عند حده.

أرض الجهاد واسعة

كنت في المطبخ أَجْلي الأطباق ذات مساء حين رأيت شاحنة رباعية الدفع متوغلة في المعسكر. نزل منها عدد من الرجال وكان ابن الشيخ أحدهم. أزحت الأطباق جانباً ومشيت نحوه، وتبادلنا التحية. كنت سعيداً برؤيته.

ما لبث الآخرون أن خرجوا من المهاجع وذهبنا جميعاً إلى المسجد للكلام. حدثنا ابن الشيخ عن رحلته ومدى صعوبتها. تعين عليهم أن يختاروا طرقاً وممرات خطرة عبر الجبال المكللة بالثلوج لتجنب اجتياز الحدود الباكستانية من جهة، والتوغل في مناطق القتال من الجهة المقابلة.

بعد انتهائه من رواية قصته، التفت إليَّ: 'ما رأيك يا أبا إمام بمشوار؟' تبعته إلى خارج المسجد، غير أن الرياح اللاذعة لسَعَتْنا صفعاً فور خروجنا. ما لبثنا أن وجدنا نفسينا قابعين معاً أمام شاحنته.

بدأ الكلام قائلاً: 'مضى نحو سنة على قيام أبي أنس بإيصالك إلينا يا أبا إمام. وخلال هذه الفترة تعلمت عدداً كبيراً من الطرق المختلفة لمحاربة الطواغيت.' أومأت، وتابع: 'أتذكر أنك كنت، حين كنت في خالدان، تتحدث عن رغبة في خوض جهادك في بلاد الشيشان، أليس كذلك؟'

'بلى، ذلك هو ما أريده.'

تنفس أبو جهاد الصعداء. 'أرض الجهاد واسعة يا أبا إمام. ولكن الأهم هو الجهاد إلى القدس الشريف. هناك في القدس، يتمادى أعداء الله في فرض معاناة كبيرة على إخوتنا وأخواتنا من المسلمين والمسلمات.'

كان ابن الشيخ قد قال هذا عدداً كبيراً من المرات في خالدان: القدس هو قلب الإسلام، وأولى أوليات المجاهدين. غير أنني لم أكن راغباً في الذهاب إلى القدس. لم يكن قد سبق لي أن رغبت في الذهاب إلى هناك لأنني لم أكن أريد أن أجاهد عن طريق تفجير نفسي في إحدى الأسواق أو الحافلات. من المؤكد أنني لم أكن قد حصلتُ على كل هذا التدريب من أجل ذلك، أليس كذلك؟

غير أن أبا جهاد ما لبث أن بدأ يشرح: 'علينا أن نقاتل الصهاينة بكفاءة؛ لابد لنا من ضربهم في أضعف نقاطهم وأكثرها هشاشة. نحن بحاجةٍ إلى إخوان يستطيعون أن يعيشوا في كنفهم، يستطيعون أن يراقبوهم، أن يرصدوا تحركاتهم. نحن بحاجةٍ إلى مخططات وصور لأَنْديتهم، لكُنُسهم، لبنوكهم، لقنصلياتهم. لجميع الأمكنة التي يحتشدون فيها بأعداد كبيرة.

تابع أبو جهاد كلامه قائلاً: 'لا نستطيع أن نرسل كائناً من كان للقيام بمثل هذه المهمة. نحن بحاجة إلى أخ يستطيع مقاومة جميع الإغراءات ويبقى طاهراً ونقياً من الداخل وهو يتابع الحياة بين صفوف الكَفَرة. نحن بحاجةٍ إلى شخص متوفر على رصيد غير محدود من الصبر والتصميم. إن التمثل، الاهتداء إلى مهمة، العثور على التوثيق السليم، سيستغرق وقتاً. إن الاهتداء إلى مجموعة إخوان، أربعة أو خمسة مسلمين مستعدين للقيام بالمهمة سيتطلب وقتاً.'

كنت أعرف ما كان سيلي. منحنياً علي قال أبو جهاد:

'أنت، يا أبا إمام، عشتَ في أوروبا سنوات عديدة. وتتحدث بعدد من اللغات.

أنت ذكي. أنت جريء، أنت مستقل. لهذه الأسباب كلها، نحن نعتقد بأن أفضل خدمة تستطيع أن تؤديها للأمة هي أن تعود إلى أوروبا.'

أجبت: 'سأبقى دائماً مستعداً لتنفيذ أي أمر أتلقاه منكم. ولكن لماذا لا أستطيع أن أذهب إلى بلاد الشيشان؟'

قلت ذلك دون أن أعنيه. بالطبع، لو جاءني ابن الشيخ في ذلك اليوم وطلب مني الذهاب إلى بلاد الشيشان، لما ترددت في الاستجابة، لكنت قد ذهبت. كنت مؤمناً بذلك الجهاد. غير أن كل ما كان يهمني حقاً في تلك اللحظة كان متمثلاً بالخروج من دارونتا. كنت أتطلع إلى أن أفعل شيئاً - أي شيء - جديداً أو أكبر مما كنت أفعله هنا في دارونتا.

إلا أنني فوجئت إذ أدركت مدى انفعالي حين قال ابن الشيخ إنني كنت مرشحاً للعودة إلى أوروبا. على امتداد ما يقرب من السنة كنت قد حرصت على كبت هذا الجانب من شخصيتي. في الحقيقة كنت قد نجحت نجاحاً شبه كامل في الإجهاز عليه وقتله. كنت مجاهداً؛ لم أكن قادراً على التفكير بأي شيء آخر. لو كنت قد فعلت لكنت قد تعرضت للتداعي فالانهيار؛ لكانت الحياة قد أصبحت غير قابلة لأن تُطاق، ولكان الآخرون قد تمكّنوا من رؤية ما خلف قناعي.

على نحوٍ مباغت، في تلك اللحظة عاد كل شيء. افتقدت حياتي في الغرب. افتقدت الخمرة افتقدت السجائر. افتقدت المأكولات الفاخرة والجرائد والشراشف الناعمة. وأكثر من كل شيء افتقدت الجنس. وهكذا فإنني لم أنسحق هذه المرة حين قال ابن الشيخ إنني لم أكن لأستطيع الذهاب إلى بلاد الشيشان. شعرت بالارتياح.

تابع ابن الشيخ كلامه: 'الإخوان في بلاد الشيشان ليسوا بحاجة إلى أن تقاتل معهم ميدانياً. إنهم بحاجة إلى المال. وأفضل طرق مساعدتك لهم هي

دعمهم مالياً، عبر إرسال التبرعات إلى المعسكرات من خلال المكتب.' صمت قليلاً. 'وما نحن جميعاً بأمس الحاجة إليه هو وجود عدد أكبر من الإخوان في بلاد الكفر.'

أنجز ابن الشيخ مهمته. أعطاني أمراً، أومأت موافقاً.

ثم تغيرت نبرة صوت ابن الشيخ. 'هل تستطيع السفر بهويتك الحقيقية أم أن هناك مشكلة بينك وبين السلطات؟'

'أعتقد أنني أستطيع أن أسافر إلى تركيا. يمكنني شراء جواز سفر هناك.'

'حسناً. سنتخذ الترتيبات بعد الوصول إلى بيشاور. جواز سفرك وأشياؤك الأخرى هي هناك مع أبي زبيدة. سنذهب غداً. غير أن عليك، يا أبا إمام، أن تعلم أن الوقت عصيب جداً بالنسبة إلى العرب في الباكستان.' نَبْرتُه كانت مظلمة. 'قامت الشرطة بمداهمة البيوت في طول البلاد وعرضها. إنهم يعتقلون أي عربي بلا تأشيرة إقامة.'

رحت أفكر بجواز سفري وبتأشيرة الإقامة المنتهية صلاحيتها منذ ثمانية أشهر عليه.

'هات لي دفاترك الآن يا أبا إمام.' كان يلمح إلى الملاحظات التي كنت قد دونتها في أثناء الحصص الدرسية مع أسد الله.

هرعت إلى المهجع لالتقاط دفاتري وجلبها إلى الشاحنة. وأنا أناوله إياها، دس ابن الشيخ يده في جيب سترته وسحب رزمة من الأوراق النقدية. قال:

'هاك. هذه لك. إنها مكافأة من الشيخ لكل من الإخوان.' ثم نزل من الشاحنة ومشى عائداً إلى المسجد.

في طريق عودتي إلى المهجع نظرت إلى المبلغ. كان قد أعطاني روبيات

باكستانية تساوي أربع مئة من الدولارات تقريباً. آنذاك لم تكن لدي أي فكرة عمن كان يشير إليه حين قال إن المبلغ كان مكافأة من الشيخ. أما الآن، فأفترض، بالطبع، أنه كان يقصد أسامة بن لادن.

عندما وصلت إلى غرفتي، كان عبد الكريم موجوداً. كان قد استلم مبلغ الأربع مئة دولار أيضاً. حين قلت له إنني كنت موشكاً على الرحيل، بدا حزيناً وقال: 'غير انك جئت بعدي، والآن تغادر قبلي! لم يكن، على ما بدا، أقل مني توقاً للرحيل عن دارونتا.

سألته: 'هل تعبت من الجهاد وسئمتَه يا عبد الكريم؟'

أجاب: 'لا، قطعاً لا. لم أقصد ذلك. أردت فقط أن أذهب إلى خطوط الجبهة. أريد أن أعود إلى أوروبا، أريد أن أشرع في تأدية رسالتي.'

فهمت بالطبع. كان ذلك ما أردته أنا أيضاً، وإن بطريقتي الخاصة. طمأنته: 'لا تقلق يا أخ، ساعتك لا ريب آتية وبسرعة. إنشاء الله!'

ابتسم: 'إنشاء الله!'

غمرني إحساس بالأمان وأنا أستعد للذهاب إلى النوم في تلك الليلة، أكثر مما كنت قد شعرت به في ليلتي الأخيرة في استانبول. بالطبع، كانت أعصابي متوترة، بسبب ما كان ابن الشيخ قد قاله عن أخطار السفر عبر الباكستان. غير أني أحسست في أعماقي بأنني كنت سأنجح، بأن قَدَري كان عازماً على إعادتي إلى أوروبا.

دقَّقْتُ في ما كان ابن الشيخ قد قاله لي عن قراره القاضي بإعادتي إلى أوروبا. فهمت أكثر مما كنت قد فعلت من قبل لماذا عاملني في خالدان على نحوٍ مختلف عن معاملته للآخرين. لماذا أتاح لي فرصة البقاء بل وحتى الارتقاء على الرغم من اختصار المسافات في أثناء الجري، من معاندة المدربين، ومن

اصطحاب مصباح الجيب المحظور. هذه الليلة كان ابن الشيخ قد أماط اللثام عن وجهه: كان يرى استقلالي ذُخراً. خلافاً لحال أكثر المجاهدين في المعسكر كنت أفكر بنفسي. لم أكن بحاجةٍ لأي دفع أو حفز من الآخرين. في المعركة، لابد للمجاهد من أن يفكر مع إخوانه، ومن أن يعتمد عليهم مئة بالمئة. أما إذا كنتُ عازماً على تشكيل خلية في أوروبا - ذلك بالتأكيد هو ما كان يطلبه مني - فإنني كنت سأجد نفسي مضطراً للتحرك من منطلق مبادرتي الخاصة.

يا لها من مفارقة باعثة على الحيرة! بنظر ابن الشيخ كنت المجاهد المثالي المناسب لمثل هذه المهمة لأنني كنت فرداً. غير أنني لم أكن هذا الفرد المطلوب إلا لكوني قد نشأت وترعرعت في أوروبا، بكل ما تنعم بها من حريات. كان ابن الشيخ يريد تدمير الغرب بأسلحته الخاصة.

العبور

صباح اليوم التالي كنا جميعاً واقفين بالقرب من المسجد حين جاءت سيارة تويوتا زرقاء رباعية الدفع. كانت مدموغة، كما لو كانت سيارة إسعاف، بهلال أحمر على أحد الجانبين. أحد مقاتلي الحزب الإسلامي أفادني بأن الشاحنة عائدة لحكمتيار. نزل ابن الشيخ من الشاحنة وحيا الإخوان جميعاً. ثم دار نحوي وقال: 'دقت ساعة الرحيل يا أبا إمام!'

ودعت الجميع واعداً أن أتذكرهم في صلواتي وردوا بالمثل. ثم صعدت إلى الشاحنة لأكون مع ابن الشيخ. كان ثمة ثلاثة آخرون في السيارة. الأول الذي لاحظته كان هو الدليل الأفغاني الذي كان قد أوصلني إلى خالدان في ذلك اليوم الأول من مجيئي. كان هناك سائق أيضاً. وعلى الأرض في الصندوق الخلفي كان ثمة رجل أفريقي ممدد على نقّالة.

أوضح ابن الشيخ أن المريض كان قد أُخذ رهينة خلال محاولة حكمتيار الانقلابية ضد رباني في 1994. ولم يتم الإفراج عنه إلا مؤخراً. أفادني ابن

الشيخ أن الرجل كان قد فقد عقله في أثناء محنته، فبات وجوده على الجبهة خطراً.

ناولني ابن الشيخ حقنتين، قارورة كلوروفورم، وبعض قطع القماش. قال لي إن وظيفتي كانت متمثلة بضمان بقاء الأخ نائماً خلال الرحلة إلى بيشاور. تعين عليّ أن استخدم الكلوروفورم حتى الاقتراب من نقطة الجمارك عند ممر خيبر، والمبادرة بعد ذلك إلى حقنه بإحدى الحقنتين. وقد تعين علي أن أستخدم الحقنة الثانية عند الوصول إلى حاجز البوليس الأخير قبل مخيم اللاجئين.

خرجنا من المعسكر، وبعد نحو خمس عشرة دقيقة بدأت عينا المريض تفتحان ببطء. فتحت قارورة الكلوروفورم وبللت قطعة القماش بعناية، تماماً كما كنت قد تعلمت في درس الاختطاف في خالدان. ما إن قمت بسد أنف المريض حتى جحظت عيناه. كانتا متقدتين وشرستين. أدركت بعد بضع ثوانٍ أنه كان يحبس نفسه، فضغطت على القماش أكثر لسد منخريه به. لاحظت التوتر في وجهه وهو يقاوم الاستنشاق. كان لابد لي من إعادته إلى النوم، غير أنني تذكرت أيضاً من التدريب أن من شأن بقاء القماش على وجهه مدة أطول من اللازم أن يؤدي إلى قَتْله. ما إن غامت عيناه قليلاً حتى سارعت إلى إبعاد قطعة القماش المبللة بالكلوروفوم.

تعين علي أن أكرر العملية كل نصف ساعة تقريباً. ما من مرة إلا وقاومني فيها، وما من مرة إلا واضطررت لأن أُبقي قطعة القماش على وجهه مدة أطول من المرة السابقة. من الواضح أن هذا الرجل كان يعاني من خلل معين. فهمت السبب الكامن وراء رغبة الإخوان في إبعاده عن الجبهة ـ كان الزبون مضطرب العقل.

كنا قد تسلقنا وصولاً إلى قلب الممر حين أمرني ابن الشيخ بحقن المريض بالإبرة. كان نائماً سلفاً حين فعلت، فلم يقاوم. ثم قام السائق بإيقاف السيارة

فبادرنا: ابن الشيخ، الدليل وأنا، إلى النزول. كنا على مسافة نحو مئتي متر من الحاجز.

قال لي ابن الشيخ: 'سنعبر الحدود سيراً على الأقدام.' أما التويوتا فكانت ستلحق بركب العربات الأخرى. ذكّرني ابن الشيخ بضرورة الامتناع عن الكلام. كلمة عربية واحدة كان من شأنها أن تكفي لاعتقالي.

كان ثمة حشود من البشر لدى اقترابنا من المعبر. الجميع كانوا يتزاحمون مندفعين نحو الحاجز. دخلت في الرتل وسرعان ما بدأت أحس بجسمي مدفوعاً إلى الأمام من قبل مَنْ هم ورائي. كنت هذه المرة أكثر ثقة مني عند الدخول مع أبي سعيد. كنت أعرف أن لدى ابن الشيخ خطة تمكّننا من تجاوز الحرس.

سمعت صوتاً ينادي من الخلف: 'أبو إمام! أبو إمام!' فالتفتُّ. كان صاحب الصوت هو ابن الشيخ نفسه. كان هو والدليل لا يزالان واقفين على بعد خمسة عشر متراً خلفي. لم أنتبه إلى أنهما كانا قد توقفا. كانا، كلاهما، يلوحان بهلع طالبين مني أن أعود إلى الخلف.

درت بسرعة لأنظر إلى الحاجز، وما إن فعلت حتى سارع حارسان إلى السماح للرجل الذي كانا يفتشانه بالمرور والاندفاع نحوي. كانا يصرخان متوجهين إلي أنا بلغة لم أفهمها. كنت قد تدربت على التعامل مع مثل هذا الوضع: تجمدت حيث كنت ورفعت يدي في الهواء. على نحوٍ مفاجئ، شعرت بألم حاد في ساقي. كان أحد الحارسين قد ساطني بكرباجه. أما الحارس الآخر فرفع كلاشنكوفه ووجهه نحوي مباشرة.

نظرت إلى الأمام ورأيت حارسين آخرين كانا قد أمسكا ابن الشيخ والدليل. كانا يدفعانهما باتجاهي. كان الحارسان يضربانهما بالعصي ويركلانهما بلؤم. لم يصرخ أي منهما؛ بقيا صامتين تماماً. جميعاً كنا قد تدربنا على الرد بهذه

الطريقة عند الاعتقال. غير أنني لم يكن قد سبق لي أن رأيت التطبيق العملي للأمر، وصُعقت حقاً بتصرف ابن الشيخ. ربما كان أنشط من قابلتُهم من الرجال؛ ثمة كانت على الدوام طاقة شرسة كامنة خلف تحديقه الموزون. والآن، بين أيدي الحراس، بدا وكأن الحيوية كلها قد تبخرت من جسده. عيناه كانتا فارغتين تماماً كان قد قلب شخصيته رأساً على عقب.

لم يكن لدي وقت للتفكير بهذا. كنا بحاجة إلى مهرب. تقاطعت نظراتي مع نظرات الدليل وأشرت برأسي إلى جيب سترتي. قرأت في وجه الحارس أنه فهم ما قصدته: ثمة مبلغ من المال في الجيب. همس الدليل في أذن الحارس الذي كان يمسك به. ترك الأخير ذراعي الدليل الذي تقدم نحوي ومد يده إلى جيبي وأخرج نحو نصف رزمة الأوراق النقدية: الأوراق النقدية التي كان ابن الشيخ قد سلمني إياها في الليلة السابقة. مرر الأوراق خلسة إلى الحارس.

نظر الحارس إلى المبلغ، قال شيئاً بما يشبه الهمس، ثم دفع بالدليل نحوي. من الواضح أن الحارس كان قد رأى الأوراق النقدية وكان يرغب في الحصول على المزيد. وفيما كان الدليل مشغولاً بسحب الباقي من الأوراق من جيبي، نظرت إلى ابن الشيخ. كان الحارس ممسكاً به بإحدى يديه، ويتابع ضربه بالعصا باليد الأخرى. كان المشهد مرعباً؛ من المؤكد أن الضرب كان مبرحاً والموقف مؤلماً جداً. غير أن ابن الشيخ بقي صامتاً. ظل يبتسم راضياً فيما يواصل الحارس ضربه، الأمر الذي كان يضاعف من غضب الحارس.

ما إن أنجز الدليل تسليم المبلغ كله حتى توقف الضرب. سمح الحراس لنا جميعاً بالمرور. كان ابن الشيخ أول من مر وهو يحملق فيَّ.

لمت نفسي كثيراً وبعنف وأنا أعبر الحاجز. كنت أنا السبب في كل ما كان قد حصل. أدركت أن ابن الشيخ لم ينوِ قط المرور بالحاجز. هو والدليل كانا قد سارا

إلى الحاجز لمجرد التأكد من مرور الشاحنة. من المؤكد أنهما كانا يفكران بطريق أخرى، سرية، غير أنني كنت قد أفسدت الخطة غَفْلةً مني. كنت غاضباً من نفسي. كنت قد خذلتُ ابن الشيخ.

إلا أنني تعلمت شيئاً تلك الليلة ـ شيئاً مهماً. لم أكن فهمت فهماً كاملاً الطريقة التي كان أمين وياسين قد اعتمداها في الرد هناك في بروكسل حين أفدتهما بأنني كنت أعمل مع جهاز الاستخبارات الخارجية (الدي جي اس إي DGSE) بكل الشرائع كان يتعين عليهما إعدامي. كانت تلك هي المرة الثانية التي كنت أخونهما فيها، ولم أكن مديناً لهما بأي مبلغ من المال. غير أنهما أحجما عن قول شيء، عن فعل شيء، أي شيء، بله الإعدام.

في تلك الليلة، قرأت في عيني ابن الشيخ الفارغتين البلهاوين سبب رد فعلهما في ذلك اليوم. عرف أمين وياسين أنهما وقعا في المصيدة. ربما أنا مزوَّد بجهاز. ربما كانت الشرطة محاصِرة للسيارة وتنتظر إشارة اعتقالهما. في الحدود الدنيا، كانا خاضعين للمراقبة. فأمين وياسين كانا في المعسكرات وكانا قد تدربا على التعامل مع لحظات كهذه أدركت أنهما لم يكونا قد صدقا كلمة واحدة من التفسير الذي كنت قد قدمته. كانا يتقنان فن الصمت لأن التحقيق كان قد بدأ، بمقدار ما كان الأمر يخصهما.

مدينة أشباح

وصلنا إلى بيشاور ثم توجهنا إلى مخيم اللاجئين. صُعقْت حين نظرت إلى ما حولي: كانت الشرطة في كل الأمكنة، وحواجز الطرق الواحد بعد الآخر. ومع اقترابنا أكثر أومأ ابن الشيخ لي لينبهني إلى ضرورة حقن المريض بالإبرة الثانية. مع اقترابنا من الحاجز الأخير كان غائباً عن الوعي.

قبيل الحاجز، نزلنا، ابن الشيخ وأنا، من الشاحنة وسرنا باتجاه القطاع العربي من المخيم. دُهشت حين وصلنا. كنت في المكان مرتين من قبل؛ هذه المرة

كان كل شيء مختلفاً. بدا المكان مخيفاً؛ كانت الشوارع خالية. أوضح ابن الشيخ أن البيوت كانت الآن خاوية، وأن الشرطة كانت، بعد الهجوم على السفارة المصرية، قد حاصرت المخيم مدة أسبوع واعتقلت عدداً كبيراً من الإخوان. كان البعض محظوظاً إذ نجح في الهرب عبر الحدود إلى أفغانستان.

أعادني ابن الشيخ إلى البيت الآمن حيث كنت قد أقمت في المرتين اللتين زرت فيهما بيشاور. أبلغني بأن بقائي هنا كان سيدوم أسبوعاً حارساً للبيت. ثم أخرج من جيبه بعض المفاتيح ودرنا على ثلاثة بيوت أخرى. قال إن عليَّ أن أتفقد كلاً منها يومياً للتأكد من أن شيئاً لم يحدث لها. جميع البيوت كانت فارغة من كل شيء سوى أعداد ضئيلة من الصناديق والعلب والحقائب. قال لي إن عليّ أن أعيد هذه إلى البيت الآمن حيث كان أحد الإخوان سيأتي ليستلمها في غضون بضعة أيام.

ثم ذهبنا إلى البيت الرابع، في مواجهة البيت الآمن على الجانب الآخر من الشارع حيث كنت سأقيم. قام ابن الشيخ بفتح الباب ومددنا رأسينا إلى الداخل. ثمة كان سعوديان تذكرتهما من خالدان وصبي باكستاني لا يزيد عمره عن خمسة عشر عاماً. تبادلنا التحية ثم شرح ابن الشيخ أنه كان سيتعين علي أن آتي إلى هنا يومياً لتناول وجبتي الغداء والعشاء.

وبعد ذلك عدنا، ابن الشيخ وأنا، إلى البيت الآمن. دخل إحدى المقصورات وسحب جراباً ومسدس ماكاروف وقدمهما إلي. قال إن علي إذا ما حصل أي خطأ أن أخبر السعوديين في البيت وهما سيتصلان به عن طريق أبي زبيدة. ثم ابتسم، وَدَّعَني، وخرج من الباب.

كان الوقت ساعة متأخرة من بعد الظهر حين غادر ابن الشيخ، وحان وقت صلاة المغرب. توضَّأت ثم عبرت الشارع. الصبي الباكستاني فتح الباب لي.

هذه المرة استطعت أن أعاين المكان. سرعان ما أيقنت أن هذا كان بيت عائلة غنية: ثمة كان مطبخ فيه فرن مايكروويف وجمّادة، وفي غرفة الجلوس أو المعيشة كان هناك جهاز تلفزيون كبير وفيديو. كانت ثمة حديقة خلف البيت، محجوبة عن الشارع بأسوار عالية. كان هناك مسكبة خُضَر في الزاوية وملعب صغير لكرة القدم. كان المكان زاخراً بالأرانب.

بعد أداء الصلاة جمعاً تناولنا طعام العشاء سوية. عبر السعوديان عن سعادتهما لرؤيتي وأفهماني أنهما لم يكونا قد غادرا البيت منذ نحو ثلاثة أشهر. بعد انتهاء العشاء عدت إلى بيتي. وفيما كنت مستلقياً أستعد للنوم، انتبهت إلى أنها كانت المرة الأولى التي كنت سأنام فيها وحدي في غرفة مستقلة منذ نحو عام.

أمضيت الأسبوعين التاليين في بيشاور. تمثلت مهمتي الأولى بتفتيش الصناديق والعلب والحقائب قبل أن يأتي أحد لاستلامها. أردت أن أرى إذا كان هناك أي شيء في داخلها يمكنني إخبار جيل عنه لدى لقائنا من جديد. انتظرت حلول الظلام، ثم قلبت ما في كل منها مستخدماً مصباح الجيب. لم أعثر على شيء ذي أهمية، ملابس وحاجيات شخصية فقط في الغالب.

كنت أمضي كثيراً من الوقت مع السعوديين. كنا نلعب تنس الريشة في الحديقة، ونشاهد أفلام الفيديو معاً. كانا متوفرين على مخزون هائل من أشرطة الفيديو، معظمها للتدريب. ثم كانت أفلام عن الاختطاف، عن الرصد، عن صنع القنابل. كان ثمة عدد كبير من الأشرطة الدعائية: معارك الجماعة الإسلامية المسلحة، اغتيال أنور السادات، تفجيرات 1983 لثكنات الجيش الأمريكي في بيروت.

مرة سألت الصبي الباكستاني عما إذا كان المصري موجوداً، أبو الأطراف الصناعية. أومأ، فسألته عما إذا كان يستطيع أن يذهب ويطلب منه مزيداً من

الأفلام عن المتفجرات. خرج مسرعاً وعاد بعد نصف ساعة ومعه خمسة أشرطة فيديو تدريبية. كل منها كان يتضمن تعليمات تفصيلية، خطوة ـ خطوة، عن كيفية تصنيع المتفجرات المتطورة.

يومياً كنا نذبح رأسين من الأرانب ونأكلهما في وجبة العشاء. كنت آمل ألا يُستخدم أي منها لاختبار السموم أو المواد الكيميائية كما كان يحصل في دارونتا. غير أنني لم أكن واثقاً إذ عثرت ذات يوم فيما كنت أتطفل مفتشاً زوايا البيت على قليل من المسحوق الفضي على الأرض في إحدى الغرف الخلفية. لمست المادة بإصبعي وجدتها مسحوق الألمنيوم، الذي كنا نستخدمه هناك في دارونتا لصنع القنابل. وبعد بضعة أيام عثرت، في مرآب أحد البيوت الأخرى، على بعض آثار نيترات الأمونيوم التي تتحول إلى متفجرة الآنفو ANFO إذا ما اجتمعت مع زيت الوقود.

من الواضح أن كل الأشياء، أو جُلها بالأحرى، كانت قد مُسحت قبل مجيء الشرطة. أما قبل ذلك فإن القطاع العربي كله من مخيم اللاجئين كان، باعتقادي، يبدو أشبه بمخبر كبير للأسلحة.

ذات يوم، مر الصبي الباكستاني بالبيت الآمن. أبلغني بأن علينا جميعاً أن نغادر، بأن المخيم لم يعد آمناً بالنسبة إلى أي منا. سارعت إلى لملمة أشيائي وخرجت معه. كان السعوديان هناك بانتظارنا، وتوجهنا جميعاً نحو الشارع الرئيسي.

استقلينا حافلة متوجهة إلى بيشاور ومنها إلى أخرى خارجة منها إلى الجهة الأخرى. وصلنا إلى منطقة سكنية حضرية متواضعة لم يكن قد سبق لي أن كنت فيها من قبل. بعد النزول من الحافلة سرنا على الأقدام إلى منزل كبير رن الصبي الباكستاني جرس بابه رنة رمزية. فُتح الباب وكان يقف خلفه أبو سعيد الكردي الأخ الذي كان قد أخذني عبر الحدود وأوصلني إلى دارونتا. قادنا جميعاً

إلى القسم الخلفي من البيت، إلى غرفة بدت أشبه بمكتب كان على الطاولة جهاز كمبيوتر نقال وعدد غير قليل من جوازات السفر.

أبو زبيدة وابن الشيخ كانا جالسين في كرسيين في العمق قريباً من الجدار الخلفي؛ قاما بالترحيب بنا. ثم بادر ابن الشيخ إلى سحب الآخرين من الغرفة كي يمكّن أبا زبيدة من التكلم معي وحدي. قال الأخير: 'اسمع يا أبا إمام، غداً ستذهب إلى إسلام أباد. سأزوِّدك باسم أخ في الجامعة سيساعدك في شرعنة أوراقك. عليك أن تغادر البلد فوراً. بات بقاؤك أي وقت إضافي خطراً جدا. قد يعتقلونك في أي لحظة، ودون تأشيرةً إقامة سيلقون بك في السجن.' صمت ' لن يمكّنوك من الخروج.'

ناولني أبو زبيدة بعض المال لشراء تذكرة السفر الجوي، ثم أعطاني جواز سفري. لم أكن قد رأيته منذ سنة، منذ تركته مع أبي بكر في يومي الأول بخالدان. ثم كتب ثلاثة أرقام على ورقة: 'الأولان خليويان. ما إن تصل إلى أوروبا حتى تستطيع الاتصال معي على هذه الأرقام. عادة تستطيع الوصول إليَّ أيام الجمع. لا تستخدم الرقم الثالث إلا بعد اختبار الأولين. إنه رقم أحد الإخوة في الجامعة هنا في بيشاور يمكنك تحميله أي رسائل.'

وبعد ذلك دوَّنَ عنوانَيْ صندوقَيْ بريد مختلفين إضافةً إلى رقم الحساب المصرفي. قال لي إن علي، بعد الاستقرار في أوروبا والبدء بكسب مرتَّب، أن أرسل التبرعات برقياً إلى ذلك الحساب. كذلك سجل رقم موجة إذاعية. وقال لي إنها الموجة التي يستخدمونها في التواصل مع المعسكرات وبينها. وإذا توفر عندي جهاز قوي فأستطيع، كما قال، استخدامه للاتصال من أوروبا.

أخيراً فتح أبو زبيدة دُرْج مكتبه وحمل دفتراً. إنه دفتري أنا من دارونتا. قال: 'سأوافيك بهذا فور نجاحك في الاستقرار وفي تزويدنا بعنوان آمن.' ثم

تحدثنا، كلانا، عن المكان الذي يجب أن أذهب إليه. لم يكن يفكر بأي مكان محدد على ما بدا. كان من شأن أي من إنجلترا، فرنسا، بلجيكا، ألمانيا، أن يكون مفيداً برأيه.

وبعد ذلك نهض أبو زبيدة من مكانه وفتح الباب. نادى على أبي موسى الكردي الذي كان يتحدث مع السعوديين. قال: 'سيرافقك أبو سعيد الآن إلى مركز المدينة لشراء بعض الملابس. أنت بحاجة لأن تبدو باكستانياً من الآن وصاعداً.'

أخذني أبو سعيد إلى مركز مدينة بيشاور حيث اشترى لي سروالاً وقميصاً باكستانيين. ثم أخذني إلى حلاق لحلاقة ذقني. وفيما كنت جالساً في الكرسي، عاينت صورتي المنعكسة في المرآة الضبابية أمامي. لم يكن ثمة أي مرايا في المعسكرات، وبالتالي فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تتاح لي فيها فرصة دراسة وجهي منذ ما يقرب من عام كامل. بالكاد تعرفت على نفسي. كانت لحيتي بطول خمسة عشر سنتيمتراً وبشرتي متشققة ومشوية بالشمس.

غير أن الدائرتين المستقرتين تحت عيني هما اللتان صدمتاني أكثر من أي شيء آخر. كانتا حالكتي السواد إلى درجة أنهما بدتا أشبه بأصبغة الوجه. تذكرت أنني لم أنعم بنوم ليلي حقيقي منذ خروجي من تركيا. فصلاة الفجر، التمارين الليلية، الإجهاد المستمر - ذلك كله كان محفوراً في وجهي. كنت قد رأيت هذه العيون مرات كثيرة من قبل، رأيتها عند أمين وياسين، وعند جميع الإخوان في المعسكرات. لم يخطر لي قط أن من شأن عيونهم أن تصبح عائدة لي.

بعد ذهاب لحيتي، عدنا أبو سعيد وأنا، سيراً على الأقدام إلى البيت. دلني على غرفة فيها عدد من أكياس النوم وحين نظرت إلى الأرض فوجئت بحقيبة السفر التي كنت قد حملتها معي من أوروبا. فتحتها، فيها الأشياء كلها: ملابسي،

آلة الحلاقة، نظارات الريبان. الشيء الوحيد الناقص كان السكين العسكري السويسري، ذلك المزَيَّن بالصليب.

صباح اليوم التالي، حان وقت الرحيل. بعد أداء صلاة الفجر احتشدنا جميعاً عند الباب: أبو سعيد، ابن الشيخ، أبو زبيدة، وأنا.

بادرني ابن الشيخ قائلاً: 'تذكر لا تتحدث مع أحد. ليس ذلك آمناً.' أومأت وابتسمت. كنت قد أدمنت تلقي الأوامر والإيعازات. ثم حيّاني هو والآخرون وتمنوا لي رحلة آمنة إلى خارج الباكستان. وَعدوا بالدعاء لي في صلواتهم كما وعدتهم بالشيء نفسه بالمقابل.

انحنيت أخرجت نظارات الريبان من حقيبتي ووضعتها على عيني. حين انتصبت واقفاً كان ابن الشيخ يضحك وهو يقول بدفء: 'انظر إلى نفسك. لقد أصبحت واحداً منهم من الآن.'

أنا أيضاً ضحكت. ثم درت، فتحت الباب، خرجت إلى شفق الصباح الباكر.

obeikandl.com